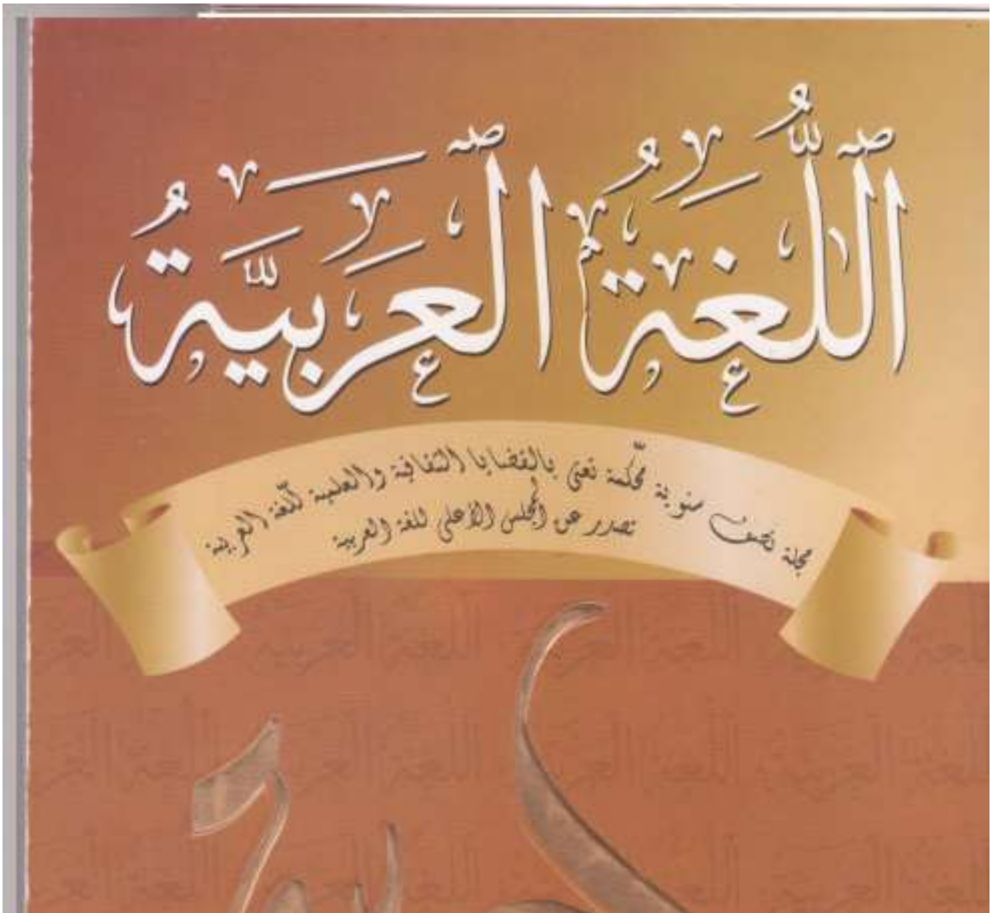
اللغة العربية
مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للغة العربية
تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية
العربية
العدد التاسع والعشرون - السداسي الثاني 2012

اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ

مجلة نصف سنوية مُحكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للغة العربية

العدد التاسع والعشرون

اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية.

المدير المسؤول

أ/ جيلالي علي طالب
أمين عام المجلس

رئيس التحرير

د. مختار نويوات

هيئة التحرير

- د. سعيد شيبان
- د. عبد الجليل مرتاض
- د. طاهر ميلة
- د. بوزيد بومدين
- أ. سي فضيل محمد
- د. محمد تحريشي
- د. عثمان بدري
- د. صالح بلعيد
- د. عبد المجيد حنون
- د. عبد الرزاق عبيد
- د. فضيل عبد القادر
- د. محمد بن قاسم ناصر بوحجام
- أ. حسن بهلول

تصفيف وتوضيب : أ. نورة مراح

يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية.
المجلة منبر حر، وليس كل ما ينشر فيها معبرّا بالضرورة عن موقف المجلس.

قواعد النشر

- ✓ التقيد بالمعايير العلمية والأكاديمية المتعارف عليها : كالتوثيق..
- ✓ أن تكون الأعمال أصيلة لم يسبق نشرها من قبل.
- ✓ ترسل النصوص مرفقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو رئيس التحرير على العنوان المذكور أدناه.
- ✓ أن توضع الهوامش والمراجع في آخر المقالة.
- ✓ المقالات التي ترد إلى المجلة لا تردّ إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.

التحرير والمراسلة

المجلس الأعلى للغة العربية
شارع فرنكلين روزفلت الجزائر
ص.ب . 575 ديدوش مراد – الجزائر
الهاتف: 24/25 07 23 21 (00213)
الناسوخ:07 07 23 21 (00213)
الترقيم الدولي الموحّد للمجلاّت (ر.د.م.م) :1112 . 3575
الإيداع القانوني:02 7/20

محتويات العدد

التركيب اللغوي وانتماء النص........................ الدكتور زروقي عبد القادر ج. ابن خلدون– تيارت	11
في أبعاد المصطلح................................... الدكتور يوسف مقران المدرسة العليا للأساتذة– بوزريعة الجزائر	35
آليات التحويل والتفريع عند النحاة العرب الأوائل في ضوء نظرية تشومسكي اللغوية أ. فازية تيقرشة المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة	77
دور مراكز القياس حول واقع اللغة العربية ومدى تأثرها باللهجات والعاميات................................. ..... الدكتور فهد سالم خليل الراشد المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم– دولة الكويت	95
مصطلح التنغيم في التراث اللساني العربي................... الدكتور جيلالي بن يشو جامعة مستغانم – الجزائر	129
هل يصلح المعجم المدرسي المرتب حسب الموضوعات معجما للناشئة دراسة لـ (الآفاق المدرسي معجم لغوي مدرسي).........................	157

الأستاذة الجوهر مودر جامعة مولود معمري – تيزي وزو	
معيارية التناص في تحليل الترجمة " دراسة نصية"........................ الدكتور نوح الأول جُنيد قسم اللغات الأجنبية – جامعة لاغوس – نيجيريا	181
العربية في ظل العولمة.. أ.د. عبد الجليل مرتاض – جامعة تلمسان	207
العربية سابقة واللاتينية لاحقة.................................. الدكتور عثمان سعدي رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية	263
دور الخط العربي في ترقية الرسم القرآني وبيان القراءات القرآنية...... أ. علي بلعالية – جامعة الشلف	275

كلمة رئيس التحرير

د/ مختار نويوات

كان المشرفون على "مجلّة المجلس الأعلى للّغة العربيّة" بيّنوا للقارئ الكريم وللأفاضل من الرّاغبين في المساهمة فيها بنشر بحوثهم أنّها ترمي إلى أن تكون دوريّة ثقافيّة تهدف إلى خدمة اللّغة العربيّة والتمكين لها، داخل الوطن وخارجه، وِفْقا للمعايير العلميّة الحديثة ولمقتضيات العصر، وأنّ ما يكفل لها النجاح بحوث تتّسم بالأصالة والعمق والحداثة وتُتابع ما جدّ في العالم من دراسات متميّزة تمتّ بأوثق الصلات إلى اللّسان العربيّ وروافده وتحقّق التواصل المعرفيّ أساسَ كلّ حضارة. ولا يكون البحث أصيلا عميقا حديثا ما لم يُجْتَنَبِ فيه الجمع المحض والسطحيّة العقيمة، وما لم يكن له علاقة باهتماماتنا الراهنة وبما يتطلّبه العصر، وما لم يكن مرآة لهذا العصر، تعكس حضارته بكلّ أبعادها وأسسها الفكريّة وطاقاتها الإبداعيّة.

تتوخّى المجلّة كلّ ما يكفل لها الحياة والازدهار لتصبح مثابة لكتّاب العربيّة وملتقًى لأقلامهم ومعرضا لآرائهم، وتحاول أن تجمع ألوانا مختلفة من الدراسات في الميادين التربويّة واللّغويّة المحضة والأدبيّة والعلميّة والتاريخيّة وكلّ ما ينشر الثقافة ويرفد اللّسان العربيّ.

من أثرى المواضيع وأوكدها معالجةُ مشاكل التعليم ودراسة أسبابها، والتفكيرُ في النهوض به وفي إصلاحه إصلاحا حقيقيّا جديرا بجعلِه تعليما فعّالا يساير العصر. ومن المقالات التي ترسل إلى المجلّة لنشرها ما يهتمّ بهذا

الجانب لكنه في أغلب الأحيان لا يتجاوز وصف الواقع، والواقعُ معروف لا يجهله إلاّ من لا صلة له بالميدان، ولا ينفذ إلى الأعماق، والسطحيُّ قليل من كثير.

ومن المقالات ما يتناول قضيّة لغويّة أو نحويّة درسها القدماء بإسهاب وأفاض فيها المحدثون، ولغزارة مادّتها وسعة انتشارها في مختلف الكتب يرى صاحب المقال تلخيصها لتعميم فائدتها، والتلخيص مهما كان ناجحا لا يرقى إلى مستوى البحث. والبحث في ما لا علاقة له أكيدةً بالحاضر من الكماليّات.

نعم ! درس حسن حسني عبد الوهّاب " صوغ أفعل التفضيل من الثلاثيّ "، وهو من فطاحل علماء الجمهوريّة التونسيّة، ونشر الدراسة في " مجلّة المجمع اللّغويّ " بالقاهرة؛ ودرس أنستاس الكرمليّ، وهو من هو في معرفة اللّغات وفي التمكّن من اللّغة العربيّة، درس " النّسبة إلى فَعيلٍ " ونشر الدراسة في المجلّة نفسها. وكان سيبويه والزمخشريّ وغيرهما من كبار النحاة قتلوا الموضوع بحثا. لكنّ العالِمَيْنِ التونسيّ والعراقيّ صحّحا ما ورد في كتب النحو أو على الأقلّ أكملا نقصها ووسّعا مدارك المعاصرين في مثل هذين البابين من أبواب النحو. وتصدّى الكرمليّ لكثير من الألفاظ العربيّة " اليونانيّة الأصل" وبيّن أنّ اليونان هم الذين أخذوها عن العرب. لا نطلب من الباحثين النّاشئين في الجزائر أو في غيرها من البلاد العربيّة أن يكونوا في مستوى من ذكرت. إنّما أردت أن أقول بأنّ الدّراسة، قَدُمَ موضوعها أو جَدَّ، ومهما كانت مادّتها، لا بدّ من أن تتّسم بجزء ولو قليل من الجدّة والإبداع.

من المواضيع التي تخصّنا، نحن الجزائريّين، معرفة أسمائنا وألقابنا وكُنانا ولغاتنا ولهجاتها وأسماء أُسَرِنا وأراضينا ومدننا وحيواناتنا وغير ذلك ممّا هو منّا أو لصيق بنا، مشتقّ من إحدى لُغَتَيْنا أو معرّب أودخيل خيل. لا تجد شعبا من الشعوب الراقية إلاّ خصّ مثل هذه المواضيع بالبحوث الْمُعمّقة المستفيضة

وبالمعاجم المرموقة. وأقرب ما نستشهد به معجم لاروس الخاصّ بشرح أسماء الأسر الفرنسيّة، ومعاجمنا الشهيرة ك"الاشتقاق" لابن دُرَيْد، و"معجم البلدان" لياقوت الحمويّ و"معجم ما استعجم" لأبي عبيد البكريّ وغيرها كثير في تراثنا. ما أحوجنا إلى فِرَق علميّة مؤهّلة تجوب بلادنا طولا وعرضا وتبحث بحثا متأنّيا شاقّا مرهقا مثمرا في آخر أمره لتشرح لنا ولغيرنا ما ورثنا من أسماء ومسمّيات. وتكون الحصيلة معاجمُ علميّة جادّة جُمعت مادّتها عصرا بعد آخر وكانت ثمرة الجهد والصبّر على المعاناة. مثل هذه البحوث يتجاوز حدود المجلّة في كلّه لا في بعضه. فكثير من الكتب الحديثة نُشر مقالات في الصحف والدوريّات ثمّ جمع وطبع.

المادّة اللّغويّة جدٌّ ثريّةٍ ومجال البحث فيها واسع متنوّع الفروع متنوّع الطرائق. لكنّ الباحث لا يتحكّم في موضوعه إلاّ إذا كان متمكّنا من المادّة التي يدرسها، واسع الأفق، غير مقصور على لغة واحدة مهما كان ضليعا بهذه اللّغة، وكان مشاركا في الفنون الأساسيّة كالفلسفة وبخاصّة المنطق، واللّسانيّات الحديثة والتّاريخ والأدب بأوسع معانيه والحركات الفكريّة المعاصرة وما إلى ذلك ممّا لا يستغني عنه أيّ باحث.

قد يقالُ : ما للفلسفة وللّغة العربيّة ؟ وما لأرسطو وللمبتدإ والخبر والفعل والفاعل؟ –خير ما يبيّن حقيقة المسند والمسند إليه بطريقة علميّة سهلة جذّابة ما ورد عن المعلّم الأكبر فيما سمّاه ب"المقولات العشر" التي لا يخرج عنها أيّ إسناد في لغتنا وفي معظم اللّغات إن لم يكن فيها كلِّها. لذلك قال القدماء : المسند والمسند إليه والموضوع والمحمول؛ جعلوا الجوهر مسندا إليه وموضوعا والعرَض مسندا ومحمولا. وما زال الفرنسيّون يسمّون الفاعل موضوعا (sujet) كما سمّاه اليونان وعلماء المنطق عندنا.

أمّا اللّسانيّات العامّة والخاصّة فلا لغة ولا نحو ولا بحث بدونها. وقد يقال أيضا إنّ سيبويه وأضرابه من مؤسّسي النحو العربيّ لم يكونوا من علماء اللّسانيّات ولا احتاجوا في تقعيد القواعد إلى ما نتشدّق به اليوم من هذا العلم الذي أخذناه عن الغربيّين. فأقول إنّهم كانوا يصدرون عن الحسّ السليم وذلك ما جمع بينهم وبين علماء اللّسانيّات. أوْ لا فما بال HJELMSLEV يستشهد بهم في حديثه عن "الخطاب" (Discours) ويخطّي ء علماء الغرب ؟

هذا في بعض الخصوصيات. ومن الخصوصيّات أيضا، وعلى سبيل المثال، دراسة الفيلسوف الإنجليزي المعاصر J.L. Austin لجزء ضئيل ممّا نسمّيه "الجملة الإنشائيّة" بأضيق دلالاتها في الخطاب العاديّ. درسها في اثنتي عشرة محاضرة نشرها في كتاب دعاه " حين يكون القول فعلا " (150 صفحة). ترجم الكتاب إلى اللّغات الغربيّة ولا أعرف أنّه نُقِلَ إلى العربيّة مع أهمّيّته البالغة وخصب مادّته وشحذه للفكر وتنبيهه للهمم . فهل يوليه الباحثون اهتمامهم ويزوّدون به المكتبة العربيّة ؟ ينقلونه نقلا حقيقيّا ب"لسان عربيّ مبين" وبأمثلة مستقاة من الأدب العربيّ القريب الْمُتناوَل وبأوسع معانيه لا بأمثلة إنجليزية كما نجد في بعض الترجمات المعاصرة.

واللّسانيّات في عمومها تلقي ضوءًا جديدا على التّراث العربيّ وتبرزه في أجمل حلله وفي أبهى تجلّياته. لكنّ مثل هذه الدراسات في القطر العربيّ لم تزلْ ضئيلة محتشمة، والدراسات الجامعيّة في تعليمنا العالي وفي بعض الأحيان، واهية الصّلة بالألسنيّة لجهل الطلبة باللّغات أو لعدم تمكّنهم ممّا درسوا منها.

واللّغة في تاريخها وفي تطوّرها وفي علاقتها بغيرها من اللّغات وصلتها بما تفرّع عنها من اللّهجات المحلّيّة وفي أخذها وعطائها مجال واسع للبحث. فهل من يخوضه بمعطيات جديدة وبما توفّره العلوم المعاصرة للباحثين ؟

التركيب اللغوي وانتماء النص

الدكتور زروقي عبد القادر
ج .ابن خلدون . تيارت

إذا كانت اللفظة المفردة على ما تتطلبه من مقاييس وشروط تكفل تحقيق جانبٍ من شعرية النص. غير أنَّها لا تكتفي بذاتها بالوصف؛ لأنها تستمد شعريتها مما يضفى عليها وهي داخل تركيب لغوي بعينه؛ لتكون حينئذ محكومة بنسق ذلك التركيب والبناء حيث تقترن بغيرها من الألفاظ. إذ يمكنها أنْ تتبادل مواقع الجودة ومواطن الرداءة في هذا التركيب أو ذاك، وهو ما يوحي بأن بناء النص الأدبي يعتمد على نظامين متلازمين يقومان على حركية جدلية تتجلى في نظامين اثنين أحدهما إفرادي والآخر تركيبي، ويقومُ هذان النظامان أو بالأحرى هذه الحركية الجدلية بنقل الألفاظ من المألوف إلى غير المألوف، أو بتحويلها من مجرد أداة اتصال وحسب إلى وسيلة إبداعية فنية تحقق المتعة والشعرية وهويّة النص فضلاً عن الاتصال.

من المؤكد أن النص يبدأ بالحرف لكي يشكل الكلمة، ويبني أبنيته على أساس الجمل والعبارات بالشكل الذي يفتح حيزا للشعرية بأنْ تتشكّل انطلاقا من الكلام ذاته حيث يتحول إلى لغة خاصة متميزة، منفصلة عن وسائل فنية

ولغوية أخرى، هذه الخصوصية تتفرد بانبثاقها من الأدب نفسه، وتَمْثُل في نسيجه وتركيبه اللغوي.

ولعل هذا تجسيد للإشكالية المطروحة أساسا حول ماهية الأدب. أو بالأحرى ما الذي يجعل النص نصاً أدبياً؟. وكمحاولة للإجابة على السؤال، نبتدئ من واضع السؤال نفسه، وهو "رومان جاكبسون"، فتُطرح الإشكالية بوجه مغاير بالصيغة التالية:

حسب أي معيار لساني نتعرف تجريبياً على الوظيفة الشعرية؟ وعلى وجه الخصوص ما هو العنصر الذي يعتبر وجوده ضرورياً في كل نص أدبي وأثر شعري؟ وأين تقف فاعلية التركيب اللغوي من جمالية اللفظة، وتفاعل الدلالات؟.

تقع الإجابة من "جاكبسون" نفسه على كل ذلك من خلال توفيره لآلياتٍ يمكن تلخيصها في مقياسين اثنين وهما الاختيار والتأليف.

اختيار اللفظ ينتج اعتمادا على قاعدة التماثل والمشابهة والمغايرة والترادف والطباق،بينما يقوم التأليف الذي يتولى بناء النص المشتبه للمتوالية على المجاورة. وتتحقق شعرية النص عند تجانس مبدأ التماثل لمحور الاختيار مع محور التأليف، فيكون التماثل الوسيلة التي تكفل للنص أنْ ينموَ على وتيرة واحدة[1]. أو يمكن اعتبار هذا التقاطع بين الاختيار والتأليف مصدر انطلاق عملية نظم النص أو بنائه. فالألفاظ المختارة من المبدع تأتلف فيما بينها، وتُنسَج وفق معمار هرم البناء ليكون "التركيب طاقة واسعة يستحيل أنْ تجمد في بعد واحد أو تقوم على مستوى تعبير موجه، أو تدرك منفصلة عن حدة المعنى وقوته وثرائه"[2] ويتوفر لكل لفظة مختارة حق اكتساب دلالة إيحائية

جديدة، تختلف عن دلالتها المعجمية الأصلية، ويعني ذلك أنَّ الدلالة الجديدة تتحدّد وفق ائتلاف هذه اللفظة مع الألفاظ الأخرى ضمن هذا السياق الجديد الخاضع لمبدأي الاختيار والتأليف.

الجدير بالذكر أن علماءنا ولغويينا القدماء قد وعوا هذه القضية حيث أنهم لم يذهبوا بعيدا عن هذا المعْلم المتعامد المتجانس الذي يمثّله الاختيار والتأليف. فـ«الجاحظ» يرى قمة بناء النص وجودة الشعر في ما «رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنَّه أُفرع إفراغاً واحداً، وسُبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدِّهان»[3]، أما إذا افْتُقِدَ هذا المعْلم الذي اصطُلح عليه في الموروث العربي القديم بـ«**القران**» وهو ما يعني الربط بين أجزاء النص، ليقع التشابه والانسجام والتأليف بين عناصره، افتُقِدت الشعرية. فقد قال بعض الشعراء لصاحبه: أنا أشعر منك. قال: ولم؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمِّه، وعاب «أبو العجاج رؤبة» شعر ابنه فقال «ليس لشعره قران»[4]، لذا تباين النمطان من الكلام فما كان من الأسلوب الأول «لذّ سماعه، وخف مُحْتمله، وقرب فهمه، وعذب النطق به، وحَلِيَ في فم سامعه، فإذا كان متنافراً متبايناً [وهو الأسلوب الثاني] عسر حفظه، وثقل على اللسان النطق به، ومَجَّتْهُ المسامع فلم يستقر فيها منه شيء»[5].

فمن المواصفات التي تلحق بالنص الذي لا يتمتّع تركيبه بالقران أن يكون مختلف المعاني متباين المباني جار على غير مناسبة ولا مشاكلة ولا مقاربة، ومن ذلك البيت الذي يذكره الحاتمي لذي الرمة وقد فقد شعريته نتيجة هلهلة بنائه وعدم انسجامه:

لَمْيَاءُ فِي شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ وَفِي اللِّثَاثِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنَبُ

فعلق الحاتمي عنه بقوله "وهذا لعمري عيب فاحش لأن الكلام لم يجر على نظم، ولا ورد على اقتران وممازجة، ولا اتّسق على اقتران، وممّا يحتاج إليه القول أنْ ينُظم على نسق المماثلة، وأن يوضع على رسم المشاكلة"(6)، ولذا قيل قديماً:

وَشِعرٍ كَبَعْرِ الكَبْشِ فَرَّقَ بَيْنَهُ لِسَانُ دَعِيٍّ فِي القَرِيضِ دَخِيلِ

فهذا البيت يؤكد التفكك الذي يصيب النص، فيغدو كبعر الكبش الذي يقع متفرّقاً متبايناً ومتبدّداً ، فهو لذلك لا يشاكل بعضه بعضاً.

إذاً فعدم تحقّق هذا المعْلَم بكل غايته يؤدي إلى نشوء نصٍّ متنافر الكلمات والحروف، مستكرهٍ في السمع، وثقيل الوطء على اللسان؛ لأن ألفاظ النصّ إنْ لم "يقع بعضها مماثلا لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات(7)، وإذا كانت الكلمة ليس موقعُها إلى جنب أختها مَرْضِيّاً موافقا، كان اللسان عند إنشاء ذلك الشعر مؤونة"(8).

فالاعتداد بالخصائص الشكلية وحدها كحدٍّ للنص الأدبي غير كفيل لإبراز جماليته وقوة شعريته؛ لأنَّ أقوى بنية في النص الأدبي هي بنيته اللغوية، مما يجعل منه نسيجا متلائما بين الإفراد والتركيب أو بين الاختيار والتأليف بكل المقاييس، وهو ما قال به ابن قتيبة لمّا فضل "النابِغة الذبياني" بشعره وجعله أوضح الشعراء كلاما، "وأَقَلّهم سقطا وحشوا، وأجودهم مقاطع، وأحسنهم مطالع، ولشعره ديباجة، إنْ شئت قلت: ليس بشعر مؤلف، من تأنثه ولينه، وإنْ شئت قلت: صخرة لو رُدِيَت بها الجبال لأزالتها"(9).

واعتمادا على هذه النوعية من التراكيب اللغوية المحكمة كان رصد ابن قتيبة لأنماط النصوص الجيد منها والرديء، وكان أجودها على الإطلاق الذي اكتمل بناؤه اللغوي حتى وإن هو لم يتعد القيمة الجمالية والمتعة الفنية دون سواها، وهو الذي "حسن لفظه وحلا، فإذا أنْت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى»[10] وخير ما يمثّل لهذا اللون من الشعر العربي القديم قول الشاعر[11]:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَـاجَـةٍ   ومَسَّحَ بِالأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَـاسِحُ
وَشُدَّتْ عَلَى هَدْبِ المَهَارِي رِحَالُنَا   وَلاَ يَنْظُرُ الغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِـحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بيننا   وسالت بِأَعْنَاقِ المَطِيُّ الأَبَـاطِحُ

إنّ مبعث جودة هذا النص وشعريته تجاوز اللفظة بمعية أخواتها وظيفتها وأسرارها التعبيرية إلى أثرها الشعري والشعوري. ليكون هذا التغير في اللغة الفنية قائما على تلك الآليات التعبيرية كالتشبيه والتقديم والتأخير والحذف وما إلى ذلك من وسائل أسلوبية، فيتأكد لدينا أنَّ انتماء النص إلى الفنية يقوم على هذا المبدأ الذي يجعل من القول المحكم البناء قولا شعريا حقيقيا، زيادة إلى وجود الفعل الشعوري فيه.

هذا الحكم يدلّ على أنَّ في موروثنا العربي القديم، إدراك بأنَّ الفنية أو الشعرية لا تتحقق بدون إقامة نظام للنص، يكفل وحدة هذا الأخير، ويكون "أول ما يحتاج إليه القول أنْ يُنْظَمَ على نسق وأن يُوضَع على رسم المشاكلة»[12] وبهذا النظام كذلك يكون الكلام الشعري كلاماً مؤتلفاً، مُجسِّداً للشعرية في الصياغة المتولدة عن كيفيات إخراج القول في لُحمة واحدة تدفع لانسجام النص، وهو ما رمى إليه "ابن طباطبا" الذي يجعل من "القصيدة كلها كلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، نسجاً وحسناً، وفصاحة وجزالة ألفاظ، ودقة

معان، وصواب تأليف»[13]، فتغدو صفة بلاغة القول مبنية على اختيار الكلام وحسن نظمه وتأليفه.

هكذا كان النسج تركيباً وصياغةً لغويا ورصفاً للألفاظ في العبارة، مما جعله يشترك والنظم في معنى واحد مفاده ضَمُّ الكلمات بعضها إلى بعض متفقة مع معاني النحو أو النظم بمعناه البلاغي. لينتج جراء ذلك الإدراك الجمالي الذي يتزامن مع حالة التناغم؛ لأن علَّة المقبولِ الحُسنُ والاعتدالُ، بينما علة كلّ منبوذ القبح والاضطراب.

إن «أبا هلال العسكري» يقصر مدار الجودة في الكتابة على حسن التأليف الذي يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً، وهو ما يجعل الكلام الأدبي شعره ونثره على السواء على درجة من السلاسة، والسهولة، والاستواء وقلة الضرورات، فكان من الجدير أن «تتفاضل الناس في الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها»[14]، وغدا من تمام حسن الرصف، أنْ توضع الألفاظ في مواضعها وتُمكَّن في أماكنها، وأن يخرج الكلام مخرجا يكون فيه فنية، ولا يستعمل فيه التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلاّ بالقدر الذي لا يفسده، فيعمَّى المعنى، وأن يكون مستقيم الألفاظ صحيح المعاني، وأن تضمّ كل لفظة منه إلى شكلِها، وتضاف إلى لِفْقِها، حتى يحظى بالانتماء إلى الشعرية، فلا غرو أن يكون «التفاضل الواقع بين البلغاء في النظم والنثر، إنما هو في هذا المركب الذي يُسمَّى تأليفاً ورصفاً»[15].

انطلاقاً من هذا التركيز على مبدأ التأليف وكيفيات تشكيله يتمثّل الاهتمام بالتركيب اللغوي والاعتراف بالجانب الشكلي للنص، وعليه يكون التكلف والتعسف في بناء النص أمراً لابد منه؛ لأنه يفضي إلى الإكثار من

البديع، الذي ينافر ويبتعد عن السهولة وانسياب العبارة ووضوحها، فيظهَر سوءُ النسج وفسادُه، من هنا تكون الشعرية منبثقة عن جمالية بينة الخطاب دون سواها، فهي غير متولدة عن المعاني، وإنَّما تتخلّق عن طرائق تشكيل النصوص وصياغتها ونسجها.

إنّ اختيار اللفظ، وإحلاله الموقع المناسب في السياق هو أساس التركيب البلاغي والحسن البياني، كما هي الحال عند «أبي بكر الباقلاني» الذي يرى أن «إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتَزِلُّ عن مكان لا تَزِلُّ عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه، وتضْرِبُ بِجِرَانِها، وتراها في مَظَانِّها، وتجدُها غير مُنَازِعَة إلى أوطانها، وتجدُ الأخرى . لو وضعت مَوْضِعَها . في محل نِفَار، ومرمى شِراد، ونابِيةً عن استقرار»[16]. فكل كلمة مفردة باختلاف غائيتها ودلائليتها، مهما بلغت من الجمال في حالة الإفراد، فإنّه قد يزداد هذا الجمال إذا قارَنتْها أخواتُها، وضَامَّتْهَا ذواتها، مما يجري في الحسن مجراها، ويَأخذ في معناها، والعكس صحيح فيخبو أو ينعدم مطلقا ذلك الجمال ويحول بريق هذه اللفظة، لذلك لا يصلح بعض الكلمات والألفاظ أن تتبادل مكان بعضها البعض، إذ قد توجد لفظة ذات بريق سحريّ في عبارة ما من نص أدبي ما، لكنها تصير سامجة ممجوجة في تركيب لغوي آخر.

إنّ اللفظة المفردة لا تحقق مطلق الشعرية بالرغم مما قد تتمتع به من جمالية، ما لم تتواءم مع غيرها من الألفاظ وحينئذ تنبثق شعرية النص من «اللفظة التي لا تدل بتركيب حروفها وحده، بل بما تقترن به من هيئة نغمة ونبرة»[17]، ويكون الانتقاء لهذه الألفاظ المبعثرة في متون اللغة ورصفها في قوالب مختلفة تعجب وتروق الأديب، وهو يسعى لبلورة تركيبه اللغوي وبنيته الأسلوبية بالكيفية التي تحقق لنصه شعريته.

يجسّد "عبد القاهر الجرجاني" هذه الرؤية تطبيقياً، حينما يصرح بعدم اعترافه بشعرية الدال المفرد، حيث يتحدث عن لفظ الأخدع[18] مقارنا لها في سياقين مختلفين، فأما السياق الأول هو بيت "الصمة بن عبد الله"[19]

تلفَّتُّ نحو الحيّ وجدتني وجِعتُ من الإصغاء لِيتاً وأخدعا

وفي بيت "البحتري"[20]

وَإِنِّي وَإِنْ أَبْلَغْتَنِي شَرَفَ العُلاَ وَأَعْتَقْتَ مِنْ رِقِّ المَطَامِعِ مَعَ أَخْدَعِي

أما السياق الثاني فهو بيت "أبي تمام"[21]

يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هَذَا الإِمَامَ مِنْ خُرْقِكْ

نجد لهذه اللفظة في البيتين الأولين ما لا يخفي من الحسن؛ لأنها تناسبت مع غيرها من الألفاظ، مشكِّلَةً تركيباً لغوياً ازداد بها وازدادت به حسناً وجمالاً، أمّا في البيت الثالث فقد أوقعت من الثقل والغرابة على النفس أضعاف ما أوجدته هناك من الخفة والألفة.

ويتضح بذلك "اتضاحا لا يدع للشك مجالا أنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تَثْبُتُ لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"[22]، والفكرة نفسها قال بها "ابن منظور" حين اعتبر أنَّ الكلمة الواحدة "لا تُشجي ولا تُحزن ولا تتملّك قلب السامع، وإنَّما ذلك فيما طال من كلام وأمتع سامعيه لعذوبة مُسْتَمَعِهِ ورقّة حواشيه"[23].

فالألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مفردَة، وإنَّما يكون التفاضل مُتاحاً لها بعد تواجدها في إطار من العلاقات التركيبية في السياق، ولذلك

تنتفي الشعرية حين يتمّ تقديم الدال في سياق بعينه، ثم تُرْصَدُ حين يقَدَّم ذلك الدال نفسه في سياق آخر، وبالرغم من توافقه في المرتين، فإنَّ الناتج الدلالي يتغير تبعاً لتلك العلاقات التي تؤلف بينها وبين غيرها من الألفاظ المفردة الأخرى، فتتجلى الشعرية في الشعر أو النثر على السواء كلّما زاد التوازن والتناسب بين أقسام النص وأجزائه.

هذا ما أشار إليه علماؤنا وركزوا عليه قديماً، وهو ما يشير إليه التفكير اللغوي والنقدي العربي الحديث إذْ يقرّ «أنَّ اللفظة المفردة لا جمال فيها ولا قبح، ولكن الجمال في علاقتها بغيرها»(24) ليكون هذا التركيب والعلائق الناتجة عنه المميز الأوحد للشاعر أو المبدع عامة عن المتحدث العادي الذي تكون اللغة عنده وسيلة لا غير، فهو يستخدمها ليُفْصِح عن ضروراته ومبتغاه، فهي مقتصرة في تعبيره على غايتها الحصرية في المستوى النفعي دون أي مستوى آخر، أمّا عند المبدع فهي على النقيض تماما، حيث تصير غاية في حدّ ذاتها؛ لأنه يسعى ويجِدّ في تجميلها لأجل التمتع بها قبل نفعيتها.

إنَّ مبدأ التناسب الذي أشرنا إليه سلفاً بين الألفاظ واختيارها ينبغي أنْ يكون حاضراً لدى المبدع لكي يحقق لنصه التركيب اللغوي الكفيل بتحقيق الشعرية بواسطة الانسجام الذي يكفل توفير «مزاوجة الألفاظ»؛ وهو ما يجعل اللفظ متآلفاً مع غيره أو متعدٍ إلى أكثر من لفظ واحد، مما يسمح للتناسب أن يشكّل «قيمة جمالية أصيلة في جميع الفنون ، وهو في القصيدة العربية تدرج فني من جزء إلى جزء إلى نهاية النص»(25) وهو ما دفع ببعض المبدعين أنْ «يجعل الكلمة وأختها (...) ومنهم من يقابل لفظتين بلفظتين»(26)، فمثلا «البحتري» يكتفي بأن يضم الكلمة إلى ردفها ومن ذلك قوله(27):

تَطِيبُ بمِسْرَاهَا البِلاَدُ إذا سَرَتْ　　　فَيَفْغَمُ رَيَّاهَا وَيَصْفُو نَسِيمُهَا

فالتناسب ظاهر بين يَفْغَمُ ورَيَّاهَا من جهة، بين يَصْفُو وَنَسِيمُهَا ومن جهة أخرى، أمّا «امرؤ القَيس» فقد مثل نموذج تعليق أكثر من لفظ واحد بغيره من الألفاظ ومن ذلك قوله(28):

كأني لم أَرْكَبْ جَوَاداً للذة　　　ولم أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالِ

وَلَمْ أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ　　　لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

جمع الشاعر في البيت معنيين، ولكل معنى ألفاظه وقد تآلفت مع الألفاظ الأخرى، فهو يتكلم عن شبابه، واصفاً نفسه بالتملك والرفاهة والفتوة والشجاعة، فذكر في البيت الأول الجواد المؤهل للصيد، بينما ذكر في البيت الثاني الكَرُّ المُبدي للفتوة والشجاعة، وقد ذكر في البيت الثاني الألفاظ الدالة على الخمرة رامزاً إليها بِزِقِّها الذي يُسْبَأ؛ أي يُشرى لأجل الشراب لا للبيع، وقد علق هذه الألفاظ بما ذكره في البيت الأول من ذكر للنساء الكواعب ذوات الخلاخل، وهذا كله مما يحقق له اللذة، وهذا التركيب اللغوي هو القمين بتوفير الشعرية في النص والتقبّض عليها.

ومن الذين أطالوا المُكث عند قضية البناء النصي مركزين على أهمية التركيب اللغوي للنص الأدبي وما يمكنه أنْ يحققه من فنية ابن رشيق، حيث يصف الكلام غير الخاضع لحسن النظم بالكلام المُثَبَّجِ(29)، كما أنّه يقدم النموذج الأمثل للتركيب اللغوي الكفيل بتوفير الفنيّة للنص الأدبي، وذلك حين يُبَيِّن شروط العبارة الشعرية المتمثلة في سهولتها وتموضعها في إطارها، دون تأخير أو تقديم، فالمبدع الذي يؤسس لكل لفظة ويجعلها في تعبيره في

موضعها فلا تتعداه، يكون نصه ظاهراً وسهلاً غير مُشْكَلٍ ولا متكلف فيه، على عكس ذلك الشاعر مثلا الذي يقدم ويؤخر في كلامه، إما لضرورة الوزن أو القافية، أو لأنّه يريد أنْ يدلّل على علمه باللغة، وتصريف الكلام وقدرته على تعقيده، فهذا هو العيّ والتقعير اللغوي بعينه، حيث يسقط استعماله في الغريب والشاذ اللغوي[30].

وقد بيّن «ابن شرف القيرواني» هذا المنحى الأسلوبي وأثبت ما يُمْكن أنْ يُحدِثه عدم التناسق بين الألفاظ في النص الأدبي من سماجة، كقول بعض المتأخرين، الذي عيب وذُمَّ في بنائه، لمجاورة الكلمة لما لا يناسبها ولا يقاربها:

وَاللهِ لَوْلاَ أَنْ يُقَالَ تَغَيَّرَا وصَبَآ وإِنْ كَانَ التَصَّابِي أَجْدَرَا

لأَعَادَ تُفَّاحُ الخُدُودِ بَنَفْسَجَا لَثْماً وَكَافُورَ التَّرَائِبِ عَنْبَرَا

فالتنافر واقع بين التفاح والبنفسج لأنهما ليسا من جنس واحد، فالتفاح ثمرة، والبنفسج زهرة، غير أنَّ الشاعر أجاد في جمعه بين الكافور والعنبر لأنهما في قبيل واحد، ولذا يستحسن حسب تعليق ابن شرف لو أنّ الشاعر قال:

لأَعَادَ وَرْدَ الوِجْنَتَيْنِ بَنَفْسَجاً لَثْماً وَكَافُورَ التَّرَائِبِ عَنْبَرَا

فيجود الوصف ويحسن الرصف؛ لأن الورد من قبيل البنفسج، هكذا يطلب «ابن شرف» من كل مبدع أنْ يفتقد هذا النوع، ويعتمد هذا الشرع[31].

قد يتغاضى المتلقي عامة عن مسلك المبدع إذا لحق بنصّه بعضُ الإخلال الذي أُكرِه عليه وأُجبرَ، كتجنّبه التركيب البسيط للعبارة، أو كسلوكه ضرورة الوزن والقافية، شرط أنْ يكون هذا المسلك على مضض، لكن لا هوادة

مع الذي استهوته مقدرته اللغوية فحشد الغريب والشاذ وقدّم وأخّر، حتى يصيب تعبيره التعقيدِ المفضي إلى العيّ، وهو ما أعيب على "أبي الطيب المتنبي" في قوله(32):

حَمَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ لِسَانِي حَدِيْقَةً سَقَاهَا الحَيَا سَقْيَ الرِّيَاضَ السَحَائِبِ

فقد فرق الشاعر بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، فوقع المضاف في البيت على غير ذي بالٍ، ممّا أعدم تنظيم الكلام وجعل حُسن تركيبه اللغوي غائباً، فالشاعر حين يقول "سَقْيَ الرِّيَاضَ السَحَائِبِ" إنَّما يريد به سَقْيَ السَحَائِب الرِّيَاضَ، فالتقديم والتأخير هنا من شواذ الاستعمال، وجراء ذلك اضطرب التركيب وتشتَّت النظام وتشعب الالتئام(33).

إن الخفّة في التعبير من شرائط سلامة التركيب وصياغة الألفاظ؛ لأن "العرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظة، أو معنى لمعنى، كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض"(34)، وإنْ كان ابن رشيق في هذا لا يبتعد كثيراً عن "الجاحظ" الذي طلب، تلك الخفّة من قبله، فقد روى أبو فرج الأصفهاني قصة ذلك المجلس الذي حضره "الجاحظ" فاستمع الحضورُ فيه إلى أرجوزة "أبي العتاهية" "ذات الأمثال" وحينما وصل منشد الأرجوزة إلى قوله(35):

يَا لَلشَّبَابِ المَرِحِ التَّصَابِي رَوَائِحُ الجَنَّةِ فِي الشَّبَابِ

فأوقفه "الجاحظ" قائلا: "انظر إلى قوله: روائح الجنة في الشباب، فإنَّ له معنى كمعنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته إلاّ القلوب، وتعجز عن

ترجمته الألسنة إلاّ بعد التطويل وإدامة التفكير وخير المعاني إلى ما كان القلب قبوله أسرع من اللسان في وصفه»[36].

كما بيّنا من قبل أن التفكير اللغوي والنقدي العربي الحديث يؤيّد هذه الرؤية، ويجعل منها رؤية حداثية، فقد عدَّ مكمن قيمة النص الأدبي الحقيقية في تركيبه اللغوي، وأنّ نقطة الارتكاز فيه هي نظمه وصياغته، وأن علم النص غير قائمٍ على الأشكال البلاغية، بل يتمثل في أبنيته وتراكيب أساليبه التي تؤدي وظائف بلاغية، فلا يكون الانتقاء إذاً لهذه الأشكال حتى "يتم استخراجها من هذا النسيج اللغوي لتسليط الضوء عليها؛ إذ إنَّ وجودها، بل فاعليتها، مرهون بهذا النسيج الكلي للنص»[37].

إن فنية النص وانتمائه للشعرية عند العرب ومنذ القديم خاضعان لتشكله اللغوي الذي يعتبر كمعطى مركزي يؤسس لقيمة العمل الأدبي؛ أو لنقل إنَّ شعرية النص وفنيته نابعتان . أساساً . من الفضاء اللغوي المشَكّل من تشابك علاقات الألفاظ القائمة على مبدأي الاختيار والتأليف[38].

هكذا يكون الإجماع بين الموروث والحداثي على تفضيل التركيب اللغوي في النص الأدبي على الأداء المعنوي؛ لأن "اللفظ أغلى من المعنى ثمناً، وأعظم قيمة، وأعز مطلباً، وإنَّ المعاني موجودة في طباع الناس، يستوي الجاهل فيها والحاذق، ولكن العمل على جودة الألفاظ، وحسن السبك، وصحة التأليف»[39]، تلك هي الأهمية المولاة للنسيج والتي جعلت المقولات الحداثية خاصة تُقصر حقيقة النص الأدبي وانتماءه على التركيب اللغوي، وأصبحت "تعني كلمة نص **(Texte)** النسيج **(Tissu)**»[40].

لقد اعتد قدماؤنا بأبي تمام نظراً لاهتمامه بالبناء الفني المحكم في نصوصه وجعلها كتلة واحدة نتيجة تضافر تركيبها اللغوي، حيث غدت هذه النصوص غير قابلة للخرق وللفصل بين أجزائها، فهو يضع الألفاظ والمعاني في أنساقها التي لا بديل عنها، فهو عند ابن رشيق مثل الشاعر الذي يعدل بين اللفظ والمعنى أو "كالقاضي العدل، يضع اللفظة موضِعَها، ويُعطي المعنى حقّه»[41]، فتقابل الانسجام والتأليف هو الذي يحقّق للنصّ شعريته ويفصح عن انتمائه؛ لأنه حينما تتمازج الألفاظ والمعاني يتعسر فَكُّ أحدهما عن الآخر، وعندئذ لا يُؤتى النص من بنائه ولا يصير كلُّ عنصر منهما بمعزل عن الآخر، هكذا لا يمكن لأي خطاب أدبي أنْ يتخلص من مبدأي الاختيار (**sélection**)، والتأليف (**conbination**)، حيث يكون هذا التركيب اللغوي الموسوم بالإحكام محور الشعرية المحدِّدة لهويّة النص.

مما يَشدّ الانتباه، ويحرّك الأريحية في شعر «أبي تمام» على سبيل المثال لا لحصر قصيدته البائية، التي يخلّد فيها انتصار سيف الدولة في عمورية، فهي تعكس مواصفات النص المحكم التأليف في تركيبه اللغوي، المبسط في ألفاظه التي بَدَتْ ومعانيها ككتلة واحدة خُصَّصت لوصف المعركة ورصد لحظات الانتصار، فثخنت بشعريتها نتيجة عنصر التناسب الحاصل بين مجمل تراكيبها اللغوية انطلاقاً من فرادة ألفاظها، وإثر ذلك تحقق التوازن بين أجزاء النص، حيث لا يمكن أنْ نجد فيه ما يمكن فصله بداية من مطلعها:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنبــاءً مِنَ الكُتُبِ   فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِــدِّ وَاللَّعِبِ

بِيضُ الصَّفَائِحِ لاَ سُودُ الصَّحَائِفِ في   مُتُونِهِنَّ جَلاَءُ الشَّــكِّ وَالرِّيَبِ[42]

هكذا يغدو مصبَّ اهتمام علمِ الأدب حول "الكلام ذاته، لا موضوع الكلام"[43] فـ "رولان بارت" يرى أن الأدب ليس سوى لغةٍ، ونظام من العلامات، وأنّ شعريته ليست فيما تحمله هذه العلامات من دلالات، وإنَّما هي في نظامه التركيبي؛ أي في حسن اختيار وتأليف هذه العلامات "وليكن موضوع الأدب بعد ذلك ما يكون"[44]، إن هوية النص الفنّية هنا تتحقق في غير المعنى، أو فيما يصطلح عليه بجودة السبك المتعلقة بحسن اللفظة وحسن التركيب، ولا يتأتى ذلك إلا إذا انطلقنا من المفردات التي توافرت لها شروط الفصاحة "في النطق وتآلف الإيقاعات الصوتية فيما بين الحروف، وفيما بين الكلمات في الفقرة المركبة، وبين هذه كلها من جهة، وبين إيقاعات الوزن وتقاطيعه الموسيقية في النظم من جهة أخرى، وهذا ما يعبّر عنه بجودة السبك في معظم الأحوال"[45].

تتضح لنا أهمية هذه الجودة بصفتها عملية تأليف للحروف فيما بينها لتكوَّن الكلمة، التي ترقى إلى عملية تركيب بمعيّة باقي الكلمات من جهة أخرى، ليتألف هذا الكلام ويصاغ فيقع موقعاً حسناً على حركات الموسيقى الشعرية، حيث لا تتنافر وحداتُه باختلاف ماهيتها وحجمها في مجرى الإيقاع الموسيقي، ولا يتفلت هذا المجرى النغمي، بِنُبُوِّ حرف أو كلمة أو عبارة، فيتقطّع مجراه ويتقلقل سياقه، ويختل معهما تسلسل أنغام التفاعيل وتعاقبها.

الإقرار بأهمية اللفظ إفراداً أو تأليفاً وتركيباً، يقتضي الرجوع إلى رأي ابن رشيق القاضي بقيام هذه الأهمية على المعنى لأصالته وأوّليته، أو الوقوف على رأي "ابن خلدون" المؤيد له في اعتبار "أنَّ صناعة الكلام نظما ونثراً إنَّما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنَّما المعاني تبع لها، وهي أصل"[46]، وهنا لا

يُلغى وجود المعنى بشكل كلّي، ولا يقلّل من أهميته، فهو سابق للفظ، مما جعل هذا الأخير محتاجاً إلى الأول ليتكفل به، ويكون الخافض الرافع له، فـ "المعنى مثال، واللفظ حذو، والحذو يتبع المثال، فيتغير بتغيّره، ويثبت بثباته"(47) فالمعنى مثال، والمثال قالب، والقالب قاعدة يقاس عليها، ولكن إنْ لم يحسن التعبير عن هذه المعاني في أحسن صيغة لفظية، بخست هذه المعاني وسقطت، واستدعى الأمر إلى رابط خفي يجمع بينهما.

من هنا تكون القدرة على الربط بين اللفظ والمعنى جوهر اللغة، والنظرة الفاحصة للغة تبرز العلاقة الوثيقة بين المعنى والتركيب الصوتي الدال عليه، فالمبدع لا يختار لغته، وإنَّما تلتحق لغته بالمعنى المراد طرقه، فتتناسب معه في شكل حميمي قائم على براعة التركيب الذي يوشي بهوية النص.

الإحالات

1 ـ **ينظر، جاكبسون رومان، قضايا الشعرية، ترجمة محمد الوالي ومبارك حنوز، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، سنة:1988م، ص: 33.**

2 . الدكتور تامر سلوم، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، سنة، 1983م، ص:7.

3 . الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د.ت، ج/1، ص: 67.

4 . الجاحظ، المصدر نفسه، ج/1، ص: 228، وينظر، نفسه، ج/1، ص: 68 حيث «قال، عبيد الله بن سالم لرؤبة مت يا أبا الجحاف إذا شئت، قال وكيف ذلك، قال، رأيت اليوم عقبة بن رؤبة ينشد شعرا له أعجبني. فقال رؤبة، نعم، انه ليقول ولكن ليس لشعره قران»

5 . ابن رشيق،أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة ، دار الجيل، بيروت، لبنان، سنة: 1981م، ج/1، ص: 257.

6 . الحاتمي، أبو علي محمد بن الحسن، الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم، دار صادر للطباعة والنشر، ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، سنة:1965م، ص: 23.

7 . العلات، أولاد علة هم أولاد الرجل الواحد من أمهات مختلفات .

8 . الجاحظ، البيان والتبيين، ج/1، ص: 66 – 67.

9 . ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، سنة: 1966م، ج/1، ص: 168.

10 . ابن قتيبة، المصدر نفسه، ج/1، ص: 66. تعقيب ابن قتيبة «هذه الألفاظ كما ترى، أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإذا نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته، ولما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاءَ، ومضى الناس لا ينظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطي في الأبطح».

11 . كعب بن زهير، الديوان، حققه وشرحه وقدّم له الأستاذ على فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة:1997م، ص: 15.

12 . المبرد ، محمد بن يزيد ، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، سنة:2002م، ج/1، ص: 335.

13 . ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي، عيار الشعر، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام، الطبعة الثالثة، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، سنة:1984م، ص: 126.

14 . العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، سنة: 1986م، ص: 196. وينظر، نفسه، ص: 170-171.

15 . التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه أحمد أمين و أحمد الزين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، سنة:1953م، ج/ 2، ص: 132.

16 . الباقلاني، أبو بكر بن الطيب إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، سنة: 1963، ص: 184.

17 . ابن سينا، أبو علي الحسين، الشعر، ضمن كتاب الشفاء، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، سنة: 1966، ص: 67.

18 . الأخدعان، عرقان في جانبي العنق قد خفيا وبطنا. الليت، صفح العنق وقيل أدنى صفحتي العنق من الرأس.

19 . الجرجاني، عبد القاهر, دلائل الإعجاز في علم المعاني، صححه السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت لبنان، سنة:1981، ص: 38.

20 . البحتري، أبو عبادة الطائي، ديوان البحتري، دار صادر، بيروت (د.ت)، ج/1، ص: 106. وقد أورد الجرجاني صدر البيت بشيء من التغيير:

وَإِنِّي وَإِنْ بَلَّغْتَنِي شَرَفَ الغِنَى وَأَعْتَقْتَ مِنْ رِقِّ المَطَامِعِ أَخْدَعِي

ينظر، عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 38.

21 . أبو تمام، حبيب بن أوس، ديوان أبي تمام، ضبطه وشرحه الأديب شاهين عطية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، دت، ص: 198. الخرق بالضم العنف وكذلك الحمق والجهل وضم الراء للشعر، ويريدون بتقويم الأخدعين إزالة الكبر والعنف لأنهم يقولون في المتكبر العاتي شديد الأخدعين. عند الجرجاني وردت لفظة الأنام بدلاً من الإمام الواردة في الديوان.

22 . الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص: 38. وقد حدد الجرجاني موطن الإعجاز، وشعرية النص بقوله، "لم يبق إلا أن يكون [الإعجاز]في النظم والتأليف" وكان هذا الحكم خلاصة لما أراد الجرجاني أن يتلمسه من مواطن الإعجاز التي لم يحدها في الألفاظ ولا في العبارات أو الفواصل. نفسه، ص: 300.

23 . ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمد، لسان العرب، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، (د. ت.) مادة، كلم ج/12، ص: 522- 523.

24 . إسماعيل عز الدين (الدكتور)،الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، سنة:1992م، ص: 198.

25 . السد نور الدين، الشعرية العربية، دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة:1995م، ص: 49.
26 . ابنُ رَشِيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج/1، ص: 258.
27 . البحتري، الديوان، ج/1، ص: 124. فَغَمَهُ الطيبُ، سدَّ خياشيمه وملأها، الريا، الريح الطيبة. وقد وردت في الديوان لفظة فينعم بدلاً من فَيَفْغَمُ التي أوردها ابن رشيق.
28 . امرؤ القيس بن حجر، ديوان القيس بن حجر، شرح أبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمري، تصحيح ابن أبي شنب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة:1974م، ص: 115.
29 . ثبج الكلام تثبيجا، لم يُبَيِّنْه، والتثبُّج/ اضطرب والتثبيج التخليط (اللسان ثبج) أما عند ابن رشيق فالتثبيج جنس من المعاظلة التي تعني تداخل الكلام في بعضه البعض.
30 . ينظر، ابنُ رَشِيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج/1، ص: 259-261.
31 . البيتان لتميم الفاطمي، وقد أورد تعليقه عليهما ابن شرف القيرواني،أبو عبد الله محمد، مسائل الانتقاد، تحقيق الدكتورالنبوي عبد الواحد شعلان، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، د.ت، ص: 190.
32 . المتنبي، أبو الطيب، العَرْفُ الطَّيِّبُ في شرح ديوان أبي الطيب، لناصيف اليازجي دار صادر ، بيروت، (د.ت.)، ج/ 1، ص: 429.
33 . ينظر، ابنُ رَشِيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج/2، ص: 72.
34 . ابنُ رَشِيق، المصدر نفسه، ج/1، ص: 129.
35 . أبو العتاهية، ديوان أبو العتاهية، دار صادر، بيروت، سنة:1980م، ص: 349. وقد ورد على هذا النحو: إنّ الشَّبَابَ حجَّةُ التَّصَابِي رَوَائِحُ الجَنَّةِ فِي الشَّبَابِ
36 . الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق سمير جابر، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، (د.ت.)،ج/4، ص: 40.
37 . بحيري سعيد حسن (الدكتور)، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، الطبعة الأولى، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، سنة:1997م، ص: 71. وينظر، أبو زيد نصر حامد (الدكتور)، إشكالية القراءة وآليات التأويل، الطبعة الخامسة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، سنة:**9919**م، ص: 175.

38 . ينظر، عيد رجاء (الدكتور)، القول الشعري، منظورات معاصرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، سنة:1995م، ص: 46، ويوسف أحمد(الدكتور)، القراءة النسقية ومقولاتها النقدية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة:2002م ، ص: 222.

39 . ابنُ رَشِيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج/1، ص: 127.

40 . بارت رولان، لذة النصّ، ترجمة الدكتور منذر عياشي، الطبعة الثانية، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سورية، سنة:2002م، ص: 104.

41 . ابنُ رَشِيق، المصدر السابق، ج/1، ص: 133.

42 . أبو تمام، الديوان، ص: 18. و التبريزي، الخطيب، ديوان أبي تمام بشرح التبريزي، ط1 دار الفكر العربي، بيروت–لبنان، سنة: 2001، ج/1، ص: 32.

43 . بارت رولان، النقد البنيوي للحكاية، ترجمة انطوان أبو زيد، الطبعة الأولى، منشورات عويدات، بيروت– باريس، سنة:1988م، ص: 83.

44 . حسين طه، خصام ونقد، الطبعة العاشرة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،سنة: 1980م، ص: 86.

45 . عاصي ميشال (الدكتور)، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، الطبعة الثانية، مؤسسة نوفل، بيروت،لبنان، سنة:1981م، ص: 169.

46 . ابن خلدون عبد الرحمن ، المقدمة، تحقيق حجر عاصي، دار مكتبة الهلال، بيروت، سنة، 1991م، ص: 143.

47 . ابنُ رَشِيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج/1، ص: 127.

مكتبة البحث

أولا: المصادر

1. الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق سمير جابر، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، (د.ت.).

2. امرؤ القيس بن حجر، ديوان القيس بن حجر، شرح أبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمري، تصحيح ابن أبي شنب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة:1974م.

3. الباقلاني،أبوبكر بن الطيب إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، سنة: 1963.

4. البحتري، أبو عبادة الطائي، ديوان البحتري، دار صادر، بيروت (د.ت).

5. التبريزي، الخطيب، ديوان أبي تمام بشرح التبريزي، ط1 دار الفكر العربي، بيروت– لبنان، سنة: 2001م.

6. أبو تمام، حبيب بن أوس، ديوان أبي تمام، ضبطه وشرحه الأديب شاهين عطية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، دت.

7. التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه أحمد أمين و أحمد الزين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، سنة:1953م.

8. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون،دار الجيل، بيروت، د.ت

9. الجرجاني،عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صححه السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت لبنان، سنة:1981.

10. الحاتمي، أبو علي محمد بن الحسن، الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم، دار صادر للطباعة والنشر، ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، سنة:1965م.

11. ابن خلدون عبد الرحمن،المقدمة، تحقيق حجر عاصي، دار مكتبة الهلال، بيروت، سنة، 1991م.

12. ابن رشيق، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة،دار الجيل، بيروت، لبنان، سنة: 1981م.

13. ابن سينا، أبو علي الحسين، الشعر، ضمن كتاب الشفاء، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، سنة: 1966.

14. ابن شرف القيرواني، أبو عبد الله محمد، مسائل الانتقاد، تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، د.ت

15. ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي، عيار الشعر، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام، الطبعة الثالثة، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، سنة:1984م.

16. أبو العتاهية، ديوان أبو العتاهية، دار صادر، بيروت، سنة:1980م.

17. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، سنة: 1986.

18. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، سنة: 1966.

19. كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير، حققه وشرحه وقدّم له الأستاذ على فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة:1997م.

20. المبرد،محمد بن يزيد،الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، سنة:2002م.

21. المتنبي، أبو الطيب، العَرْفُ الطَّيِّبُ في شرح ديوان أبي الطيب، لناصيف اليازجي دار صادر،بيروت، (د.ت.).

ثانيا: المراجع باللغة العربية

22. إسماعيل عز الدين (الدكتور)، الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، سنة:1992م.

23. بحيري سعيد حسن (الدكتور)، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، الطبعة الأولى، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، سنة:1997م.

24. حسين طه، خصام ونقد، الطبعة العاشرة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، سنة:1980 م.

25. أبو زيد نصر حامد (الدكتور)، إشكالية القراءة وآليات التأويل، الطبعة الخامسة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، سنة:1999م،

26. السد نور الدين، الشعرية العربية، دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،سنة:1995م.

27. سلوم تامر (الدكتور)، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، سنة:1983م.

28. عاصي ميشال (الدكتور)، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، الطبعة الثانية، مؤسسة نوفل، بيروت،لبنان، سنة:1981م.

29. عيد رجاء (الدكتور)، القول الشعري، منظورات معاصرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، سنة:1995م.

30. يوسف أحمد(الدكتور)، القراءة النسقية ومقولاتها النقدية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة:2002م.

ثالثا: المراجع المترجمة

31-بارت رولان، النقد البنيوي للحكاية، ترجمة انطوان أبو زيد، الطبعة الأولى، منشورات عويدات، بيروت- باريس، سنة:1988م.

32-بارت رولان، لذة النصّ، ترجمة الدكتور منذر عياشي، الطبعة الثانية، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سورية، سنة:2002م.

31. جاكبسون رومان، قضايا الشعرية، ترجمة محمد الوالي ومبارك حنوز، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، سنة:1988م.

في أبعاد المصطلح

د / يوسف مقران
المدرسة العليا للأساتذة
بوزريعة . الجزائر

ملخّص:

نتعرّض في هذا المقال للوحدة التي تتناولها المصطلحيات، وكذلك طرحنا إشكالية تعدّد أبعاد المصطلح أو ما أسميناه إبستيمولجيّة الطابِع التعدّدي، وذلك ابتغاء مَنْهَجَة البحث المصطلحي. بيد أنّ هناك ضغوطاً استدعت منّا إعمال الاختزال والتّجريد، فوقفنا عند أربعة أبعاد هي: البعد اللّغوي (اللِّساني) حيث بيّننا الوحدة المصطلحيّة (المصطلح) مِن حيث كونها تسمية أوّلاً وقبل كلِّ شيء، لكّنها محصَّلة في مواقِف معيَّنة، ما أحالنا إلى البعد الاجتماعي (التداولي) للمصطلح حيث سيادة المجال وسياق الحال وتدخّل المستعمِلين الشركاء، وهذا الأخير متين العلاقة بالبعد الثالث وهو البعد التواصلي (المعلوماتي) المستدعي لمراعاة شأن التواصل والإيصال، ولمّا كان همُّ المصطلحيات هو تحليل المفهوم اقتضى ذلك العناية بالبعد الرابع وهو البعد المعرفي (المَوجودي) للمصطلح الماثِل أكثر في الوحدة المفهوميّة (المفهوم) وتناولنا فيه كذلك قضيّة التعيين.

مقدمة :

إنّ البحث في هويّة المصطلح بالنسبة للقضايا المطروحة على الدّرس المصطلحي الحديث، هو ما كان البحث فيما يُسمّى جوهر اللّغة بالنسبة للدّرس اللِّساني الحديث الذي يمتدّ إلى تراث الدّرس اللّغوي الفقهي والمقارن. والحال إنّ الإشكاليّة الأخيرة قد لوحِظ أنّه مِن الخطير أن تمكث على مكانتها الأولى ومن الخير أن تتنحّى بعيداً عن حيِّز البحث، بل أصبح طرحُها محظوراً من الناحية العلميّة لأنها لا تُسعِف كثيراً في تقدّم الأمور إن لم تُعرقل البحث بكامله*. غير أنّه ينبغي فحص الموضوع في النطاق الذي تسوء فيه الأوضاع ويحسّ المرء إزاءَه أنّ تقدّم الأمور يستعصي عليه، ذلك أنّ السّاحة العربيّة تعوّدت طرح قضايا المصطلح (اللِّساني) طرحاً تقريبياً ومبهماً.

1. إبستيمولجيّة الطابِع التعدّدي[1]:

ولتفادي مثل ذلك الطَّرح، فأقلّ ما قادتنا إليه تلك الأمور المستعصية هو التأمّل في أبعاد الظّاهرة المصطلحيّة، وكذلك إلى مقاربة تلك الهويّة ـ إذا كان لابدّ أن نشتغِل عليها ـ في أبعادها الأربعة المُتراتِبة منهجيّاً والمتمايِزة وظيفيّاً وهي: البُعد اللّغوي والبُعد الاجتماعي والبعد التواصلي والبعد المَعرِفي. ذلك كلّه مِن أجل الإجابة على سؤال: *كيف **يشتغِل المصطلح*** ؟ تماماً كما شاءت الدراسات اللِّسانيّة أن تجعل من **اللّغة** *قضيّة مُفكَّرة* بدلَ البحث في جوهرها الذي يُعدّ بعيدَ المنال على الرغم مِن وفرة الدّراسات المنصبّة عليه.

1.1 مَنْهَجَة البحث المصطلحي :

شئنا برمجة هذا المبحث منذ وقفة نظام هذه، أوّلا: مِن أجل التقدّم بحلٍّ ابستيمولوجيٍّ لمشكِلة عويصة وهي جدليّة اعتبار المصطلح دليلاً لغوياً وعدّه في آنٍ نفسِه علامةً تقوم على أكثر من طرفين اثنين وتكتسح أكثر من بعدٍ. ثانياً: استباقاً للمعضِلة التي ستعترض طريقَنا كلَّ مرّة وكلّما قادنا البحثُ إلى تناول الوحدة المصطلحيّة، وهي المتمثِّلة في عجز الدّرس المصطلحي مناهجيا. فبالتلي، وثالثاً: استجابةً لمقتضيات التّفكير في مَنْهَجَة البحث المصطلحي. ولكن لا يمكِن المبادرة إلى تلك المَنْهَجَة مِن غير الإحاطة أوّلاً بأكبر عددٍ ممكِنٍ مِن الجوانب التي يقوم عليها المصطلح. وهذا الأمر يتطلّب فتح الموضوع على جميع المجالات القادمة من كلِّ حدبٍ وصوبٍ لتشتركَ في تناول هذا المصطلح والتي كانت إلى هذه الغاية تشكِّل ـ كلٌّ على حدة ـ تجربةً لابدّ أنّها ملهِمة لكلِّ درسٍ مصطلحيٍّ. ذلك أنّ الأمر يتعلّق بنسقٍ من الأنساق العلاماتية المسخَّرة لغوياً واجتماعياً ومعرفياً. وما دام الأمرُ كذلك فعلينا أن نتشبَّث بإعادة رسم مخطَّطاتٍ جادّة جادت بها كلٌّ من السيمائيات واللِّسانيات وكلّ الفروع العلميّة المواكِبة لتعدّديّة أوجه المصطلح على غرار نظريّة المعرفة والمنطق والمعلوميات وعلم الاجتماع. ونجد مساندة لهذا الرأي في ظلّ المقترحات الزاحِفة لتذليل الصعاب إلى حدّ الإدلاء بضرورة الإبقاء على المصطلحيات كعلم في مفترق الطرق فينتفع حينئذٍ بكافّة الرواسب التي تتركها العلوم المارّة من ذلك المكان (مفترق الطرق). فمِن هنا جاء تشكيك بعض الباحِثين في جدوى حصر المصطلح في المظاهر اللّغويّة البحتة وأخذ آخرون ينادون بعدم تغييب الملامح السيمائيّة وحتّى الأسلوبيّة المعتبِرة ـ كما يرى جورج مولينيه (Georges Molinie) ـ للتمثّلات الثقافية التي تنطوي عليها الأنظِمة

القيميّة الانتروبولوجيّة بل والجماليّة أيضاً[2]. وهذا يحتاج فعلاً إلى التوغّل في الظاهِرة المصطلحيّة لإزالة المظاهر التي يعلوها التسيّب والاحتكار المختصر واستغلال ذلك التوغّل في سبيل رصد المعطيات التراثيّة والمستجدّة معاً. ذلك أنّ رصد المعطيات يعدّ بالنّسبة لأيّة لغةٍ ـ بما فيها لغة الاختصاص ـ أمرًا حيويًّا. فالوضع الميسور هو ذلك الّذي تتواجد فيها اللّغة معزّزةً بتقاليد دراسيّة راسخة مسبقا[3]. إنّ أيَّ درسٍ لسانيٍّ يكون قد استمدّ من الدّرس النحوي تقاليدَه لا يمكن له إلاّ أن يهتمّ باللّفظ. لكن المصطلح ليس لفظاً كغيرِه وليس لفظاً كلَّه[4]، ذلك أنّ المصطلح وحدةٌ لغويّة ووحدة تعيين تسمّي المفهوم والشيء والحدث (صيرورة): فالمصطلح وحدة تعيين عناصر الكون المحسوس أو المتصوَّر لا يتمّ التخليط ـ إلاّ قليلاً ـ بينه وبين الكلِمة التي تُرسَم وفقَ قواعد إملائيّة[5]. ثمّ إنّه، وعلى الرغم من سيادة البعد اللّغوي في المصطلح، فينبغي التنبيه إلى أنّه لا سبيلَ إلى إنكار باقي الأبعاد. غير أنّ تقصّي هذه الأخيرة مجالٌ واسِع جدّا بشكلٍ يقنط أيّ دارسٍ من الإحاطة به بالتّفصيل الدّقيق والشّمولية التامّة، ذلك أنّ عالَم التخصّص كثيراً ما يقارَب بوساطة عدّة أنظِمة سيمائيّة تتعلّق بالتخصّص ذاته، بما فيها لغات الاختصاص في وظيفتها التواصليّة[6] وكذلك في وظيفتها التمثيليّة[7]، فلا يُعزى كلُّ شيء إلى المصطلح. بيد إنّ هذا الأخير يكتسب قيماً ويتّخذ أبعاداً تتفاوت باختلاف تلك الأنظِمة: لهذا كلِّه، فقد عمدنا إلى إقامة بعض تحديداتٍ تعسّفية شيئاً ما. رضينا فيها بما يتّفق وطبيعة موضوعنا (المصطلحيات واللِّسانيات). إذن، فعلى الرغم مِن لغويّة المصطلح ـ بما فيه المصطلح اللِّساني ـ فيتعلّق الأمرُ في واقِع عَمَلنا كلِّه وتطلّعاته بثمانية أبعادٍ، وذلك وفق الطابِع التوسُّطي المشار إليه أعلاه، هي على التّوالي: (اللّغوي) و(الاجتماعي التداولي) و(التواصلي المعلوماتي) و(المَعرفي الموجودي المنطقي).

2.1 ضغوط الاختزال والتّجريد:

ولمّا كان المصطلح تابِعاً لنظامٍ علاماتيٍّ فريدٍ من نوعِه ـ إذ هو متأصِّلٌ في اللّغة ولكن لا يحجم عن الانفِلات منها أحياناً وتحت دواعٍ معيّنة ـ فهذا الشّأن لا يأمل الواحِد أن يغطّيه بمجرّد ما يعرج على المعالجات المصطلحيّة في وقفات تطبيقيّة تقتضيها النصوص الأصليّة أو المترجَمة، أو بذريعة هذه الحريّة المتاحة. ذلك «إنّ تدبير أمور المُصطلح ليس شأناً تقنياً يتكفَّل به مُترجِمون مُتمرِّسون يُجيدون اللّغات، بل هو شأن مَعرِفي يتكفّل به المختصون في شتى فروع المَعرفة»[8]: لهذا بات التعرّضُ للمصطلح مِن خلال تلك الأبعاد ـ ومن غير استبعاد وجهة النظر المَوجوديّة (Point de vue ontologique) ـ أمراً لا مَناصَ منه، وذلك على الرغم مِن مسالك هذه الأخيرة الوعرة. ولكن فضّلنا اختزالَ التَّداولي في **الاجتِماعي**، وصرف المعلوماتي في **التَّواصلي** وتجميع ارتِباطات المصطلح بكلٍّ مِن المنطق ونظريّة المعرفة والجانِب الموجودي في **المنظور المَعرفي** ـ علماً أنّ لا أحدَ ينوب عن الآخر ـ وذلك علاوةً على **الطابع اللّغوي** القارّ الذي تُمنح له الأولويّة. فصارت إثر هذه العمليّة الاختزاليّة أربعة أبعاد (اللّغوي والاجتِماعي والتَّواصلي والمَعرفي). ونشير إلى أنّه ثمّة إمكانيّة تعريض هذا الترتيب والتصنيف لتعديلات معيّنة وتعويضه بما ينسجم وموضوع الدراسة المصطلحيّة الذي يعالجه أيّ باحث آخر. فقد اكتفى ـ مثلاً ـ خوان كارلوس ساجي (Juan-Carlos Sager) بثلاثة أبعاد ورتّبها كالآتي: البعد المعرفي والبعد اللّغوي والبعد التواصلي[9]. وكذلك تفضّل ألان رِي بشرح البعد المعرفي للمصطلحيات نفسها بربطه بالطبيعة المعرفيّة للمصطلحات التي تشكِّل جزءاً هامّاً من موضوعها. فالمصطلحات ـ حسب رأيه ـ تنجح كلّما تيسّر لها ربط الجانب المعرفي

بالحاجات الاجتماعيّة عن طريق الأشكال اللّغويّة التي يتيحها طابع المصطلحات اللّغوي الذي يكفّل لها بدوره مهمّة التواصل بين الأخصّائيين ويسهم في تمكين التواصل بين هؤلاء والجمهور تمكيناً أقرب ما يكون إلى الكمال، عبر وسطاء بشريّة وآليّة كالمصطلحيين والمترجمين والمحرِّرين والموثّقين بل وأجهزة التواصل والإعلام الآلي[10]. وقد راعينا هذيْن الرأيّيْن لكن فضّلنا العمل بالإيجاز الذي اقترحناه أعلاه، وذلك:

أوّلاً: تحرياً للحصر الدّقيق، وإقراراً بأنّ العلامة أيّاً كانت طبيعة قناتها ونجاعتها التّواصليّة ومهما تكن درجة فنائها من أجل تأدية الرسالة، تظلّ اختِزاليّة؛ ولاسيما في حال انغلاقها. وأفضل برهانٍ على ذلك ما سيُخصَّص في هذا البحث من توالي الأحاديث عن المَظهر الثقافي الذي اختزِل في الاجتِماعي. بيدَ أنّ أيّ تحرٍّ للحصر الدّقيق عبر الصورة العلاماتية، هو مَطلب صعبٌ تحقيقُه حالَما يصنع الاستعمال مِن صورة العلامة الجديدة (مضموناً وشكلاً) شيئاً مألوفاً. ويشكّل هذا الطابع الاختزالي التّجريدي التّقريبي أحد العوامِل الداعية إلى بذل العلامات الاضطراريّة القَصديّة المصاحبة التي تُعرِّض الدليل اللغوي للاستعانة بالعلامات الفولسانية الداعِمة*.

ثانياً: إنّ الطّابِع الاجتماعي (Cachet social)، وهو يعكِس تجليات المفاهيم واستعمال المُؤوِّلين للمصطلحات وأسباب انتِشارها ونتائجها، لا يُهمل اختيارات أولئك الأشخاص ومواقِفهم المرافِقة التي مِن شأنها أن تروِّج أو تعطِّل؛ مثله في ذلك مثل الطابع التداولي (Cachet pragmatique) الذي يجنح إلى اعتبار كيف يتجسّد الخطاب المتخصِّص في ظروفٍ ملموسة. وكلاهما يصاحِب، كبُعدين في المصطلحيات، تأهيلَ الأفراد للغتهم القوميّة، تأهيلاً عفوياً أو مخطَّطاً له، لكي تُصبِح لغة العِلم وناقِل المَعرِفة. فعنصرا السياق (الموقِف)

والمؤوِّل سائدان في كلا المظهرين (الاجتماعي والتّداولي) بتفاوتٍ بسيط: لعلّ هذا ما حدا ببعض المترجِمين المشارِقة . كما ينقل محمّد عناني . إلى أن يضعوا مقابِلَ المُصطلح (Pragmatics) المستعار عِندَهم مِن الثّقافة الإنجليزيّة، تسميّتيْ *السِّياقيّة والمَواقِفيّة* إلى جانب تسميّة *التّداوليّة* المشهورة*. ثم إن أحد مكتسبات الدّرس التّداولي هو تحديد أنواع السياق الذي كان يعاني مِن قلّة الوضوح . وقد أقدمت فرانسواز أرمينقو على تقييم دور التداوليّة في إخراج مفهوم السياق من غياهب الغموض[11] . بحيث لا يمكن للمصطلحيات إلاّ أن تستفيد منه، ذلك أنّ مفهوم السياق يعاني مِن سوء التحديد في ظلِّ هذه الأخيرة أيضاً.

ثالثاً: علاوةً على ذلك فإنّ اللّسانيات التّداوليّة** التي وإن ترتكِز مهمّتُها على دراسة العلاقات بين الرموز والعلامات والمستعمِلين لها[12]، فهي مجالُ بحثٍ غير محدَّد بكيفيّةٍ واضِحة ـ كما تشكِّك سيبيل بولتن (Sibylle Bolton) في ذلك علناً ـ لكنّه يستمدّ أسباب وجوده الابستيمولوجيّة مِن علاقة النَّسَب التي تربِطه من جهة باللِّسانيات ومن جهةٍ أخرى بعلم الاجتماع (نظريّة الأدوار، تحليل التفاعلات الحادثة ضِمنَ مجموعاتٍ بشريّةٍ محصورةٍ) وبنظريّة التواصل باتجاهها النفسي[13].

رابِعاً: يمكِن الادّعاء أنّ البُعد الاجتماعي (التداولي التواصلي) هو شأنٌ يخصّ بلداناً دون أخرى. فليس كلُّ عملٍ مصطلحيٍّ مُلزَماً به: لهذا فقد تَبلورَ العملُ المُصطلحي المُراعِي لذلك البُعد في البلاد التي عرفت وضعاً لغويّاً سادت فيه التعدّديّة اللّغويّة أو الازدِواجيّة اللّغويّة، على غرار كندا وسويسرا وبلجيكا وبعض البلدان الإفريقيّة ذات الإرث الاستعماري المنعكِس على الخارِطة الاجتماعية الثقافيّة اللّغويّة، هذا مِن النّاحية الرّسميّة؛ أمّا مِن حيث

الشّكل فاضربْ مثلاً ببعض البلاد العربيّة إن لم نقل كلّها. ونقول «تبلور» لأنّه يعزّ التسليمُ بقضيّة الظهور التي يصعب دائماً إثباتُها؛ أمّا *النضج والتبلور*، فقد يجوز الإمعانُ فيهما عن كثب؛ ومِصداق هذا القول فرنسا التي لم تمنع سيادةُ اللغة الفرنسيّة لغةً رسميّة أن تكون بجامعاتها وباحثيها مرتعاً خصباً للأعمال المصطلحيّة المراعِية هي الأخرى لذلك البعد الاجتماعي. فهي رائدة في هذا الميدان ولها الأولية في اعتِبارها مرجعيّة. لكن ورغم ذلك فإنّ أوّلَ جامعة تخصّصت في المصطلحيات وهي رين 2 (Rennes II) الفرنسيّة، لم تأخذ في تنظيم ملتقيات حول شؤون المصطلح إلاّ في بداية التسعينيات مِن القرن العشرين فقط[14]. ونستعين هنا شيئًا ما بما يتداوله بعضُ الباحِثين في إطار التّخطيط اللّغوي حيث لا يفتأ بعضُ الدّارِسين يذكرون الدور التوسُّطي للمصطلح ولا بأسَ إذا كان تحت شِعاراتٍ توحي للوهلة الأولى بالابتعاد عن موضوعنا، كأن يُقال: في ضرورة العِناية بالمصطلح الحامِل للمضمون.. تجربة الأمّة التّاريخيّة[15]، أو غير ذلك من الكلمات التي تؤسِّس للمصطلح من المنظور اللِّساني سواء من الناحية العِلميّة أو من ناحية الموضوع (اللّغة والأداءات المختلِفة) والذات والجماعة والأمّة (المستعمِل).

خامِساً: كما يتداخل المعلوماتي في مفهومه المزدوج (Informationnel + informatique) بالتواصلي بمعنى (Communicational) إذ كلاهما يصنع القنوات ويبحث في الأدوات التي يقع بها التفاهم والعناصر التي تضمن التواصل بما فيه التواصل المتخصِّص*، من هنا صحّ عند المصطلحيين التعليل بالقول كما يقال في علم التجويد: *نظراً للأصل وعملاً بالوصل*.

سادِساً: إنّ الظاهِرة المصطلحيّة جزءٌ منبثِق عن الظّاهرة اللّغوية ومرتبطِةٌ بها بأواصر لا تنفكّ أبداً إلاّ على سبيل الاختبار (التّحليل والوصف والدّراسة): فأنماط الجمل التي تتشكّل في نسبتِها الكبيرة مِن المصطلحات هي طبقة شِبه متقدمة من طبقات اللغة، وتشكِّل لغةً نوعيّةً ضِمنَ اللّغة المشتركة. والمعجم المتخصِّص هو كذلك طبقةٌ من طبقات المعجم العام أو إنّه آيلٌ ـ كلّما تحقّقت الشروط المتحكِّمة ـ إلى أن يكون كذلك جزئياً أو كلياً. من هنا فإنّ الاعتماد على البُعد اللّغوي في دراسة الظّاهِرة المصطلحيّة هو أمرٌ مسلَّم به ويكاد يكون مسيطِراً على غيره من الأبعاد الأخرى الاجتماعية والفلسفية والمنطقية والمعلوماتية التي هي مراجع علمية أساسيّة كذلك في علاقتها بالظّاهرة المصطلحية.

ويتبيّن الآن، وفقَ المعطيات المسطَّرة في الفقرات السّابِقة، أنّ هذه المُعتبَرات التكامُليّة هي ما يشفع لهذا التصرّف الاختزالي المنطِقي. والمسألة تتعلّق أيضاً بتمييز المصطلح من هذه النواحي الأربع مُتضافِرة، إذ أنّ المصطلح كعنصر مُتعدِّد الأوجه لا يمكِن الظفر بوصفه إلاّ إذا انقاد البحثُ مُقدِّراً لتلك الأوجه جمعاء.

2. البعد اللّغوي:

إذا عمَدنا إلى استجلاء مَعالِم تلك الهوية المطروحة أعلاه مِن خلال مُكوِّنات المصطلح ـ وهي إحدى الحلول التي تقدّم بها دي سوسير لمقاربة مَفهوم الدّليل اللّغوي ـ فما وافق مُعايَنته بشراكة تلك العلوم المشار إليها سابقاً وبالميل شطر البعد اللّغوي أكثر، هو أنّه ثلاثي الأطراف كما يفسِّره التحليل الآتي: يستقي المصطلح مِن الدليل اللّغوي ـ في المرحلة الأولى وتبعاً لطابِعه

اللّغوي وباستعادة المَفهوم السوسيري ـ مكوِّنيْن هما (الدال والمدلول): الثنائية التي تتحوّل في المصطلح إلى هذه المجموعة (التسمية من جهة، والمدلول ± المرجع البيرسي* = المفهوم من جهة أخرى). ونفسِّر إمكانيّة اجتزاء المدلول أو *المرجع* من المفهوم حسب أطروحة ليلى المسعودي التي ترى أنّ المدلول جزءٌ من المفهوم الذي قد يشمل كذلك المرجع وقد يختلف عنه اختلاف النِدّ للندّ[16]. بمعنى أنه لا يمكِن استبدال أحدهما بالآخر (المفهوم والمرجع) نظراً للتفاوت الذي لابدّ أن يكون بينهما وإمكانيّة قيام المرجع بذاته دونما حاجة إلى عمليّة المَفْهَمَة على ضرورتها. ثم يصبح جلُّ الاهتمام ـ في المرحلة الثانية بعد تجاوز التراث السوسيري ـ مرتكزاً على إعادة التفكير في سيمائيّة جديدة لا تنحصِر إمّا في الجانب التسموي أو في الجانب المفهومي: هذا يُفضي إلى استبدال بالتقابل السوسيري ذي نهايتين منظومةً ذات ثلاث نهايات: التسمية والمفهوم و(المرجع). ذلك أنّه وحسب نظرة تشارلز بيرس (Charles Sanders Peirce) إلى العلامة (اللّغويّة)، يجب وضع منظومة الدلالات التي تنشأ من جهة عن نَظم الكلمات على المحور التّركيبي ومن جهة أخرى عن تواردها في أذهان المستعمِلين ـ أي شبكة العلاقات بين الكلِمات ـ في مقابل المنظومات الاجتماعيّة المشكَّلة من نوعيّة التبادلات التي تقع بين المستعملين لتلك العلامة ـ أي شبكة العلاقات بين الأفراد المؤوِّلين؛ وهذا شرطٌ أساسيٌّ اشترطه بيرس في عمليّة تأويل العلامات ـ بل ومعانيها التي تبدو أنّها قارّة ـ في مختلف مواقِف الاستعمال الحقيقيّة والحَريّة بأن تؤخَذ بالاعتبار لاستيعاب مدى تغيُّرها ووتيرته ..الخ[17]. ونذكِّر في هذا السياق أنّ لويس غلبير (Louis Guilbert) يقيم على هذه الثلاثيّة ما أسماه *نظريّة الدليل العلمي والتقني* (La théorie du signe scientifique et technique) حيث

يركِّز على المثلّث السيمائي لكلٍّ مِن أوجين (Ogden) وريتشارد (Richards)[18].

1.2 المصطلح / الوحدة المصطلحيّة:

فكما سبق لماريا تريزا كابري أن أعلنت أنّ « الموضوع المركزي الذي تختصّ المصطلحيات به وفيه هو الوحدة المصطلحيّة »[19]، فقد درس لويك ديبيكر حدَّ «المصطلح» وإمكانات تعريفِه ووصفِه مِن الناحية اللِّسانيّة، وهو يتحفّظ في مفردة *المصطلح*. فاقترح لذلك، أوّلاً: التحدّث عن (الوحدة المصطلحيّة) بدل الحديث عن (المصطلح) بسبب تركيبات تلك الوحدة المعقَّدة وتنوّعاتها اللّغويّة التي تدخل في تكوينها، ومِن أجل إبراز الخصائص اللّغويّة للمصطلح، وكذلك لكي نرضى بكون المصطلحيات تدرس وحداتٍ معيَّنة، سيبقى بعد ذلك شيءٌ واحِدٌ هو إثبات الطابع اللّغوي لتلك الوحدات (أو نفيه)؛ ما يؤدّي حتماً إلى إقرار تبعيّة المصطلحيات لحقل اللِّسانيات أو شيء آخر غير ذلك أو أكثر من ذلك.

ثانياً: أن تُعتبَر التسميات باسِطة ومستبدَلة (Extensives et substitutives)[20]. *باسِطة* أي أنها تشير إلى موضوعات عينيّة خارجة عن اللغة، شأنها في ذلك ليس كشأن جميع الوحدات اللّغويّة ولاسيما تلك المستعمَلة في اللغة العادية حيث يغلب عليها الإيحاء والإيعاز. *مستبدَلة* أي مرتبِطة ارتباطاً متبادلاً وفق محوريْ الاستبدال والتركيب معاً (Axes paradigmatique et syntagmatique). ونضيف إلى هذا الطرح أنّه يُستحسن، لِضبط تلك الوحدة المصطلحيّة وتعزيزاً لأهميّة تحيين المصطلحات وفق المحور التركيبي ذاك، أن تُوضَع في نِظامٍ تقابُليٍّ مع غيرها مِن العلامات

الدّالة وحتّى تِلك الّتي لا تدلّ بوضوح لِكي يتسنّى أمرُ فصلِها عمّا يشوبها مِن الخصائص غير اللُّغويّة ثمّ تقييد خصائصها المُميِّزة لَها سواء أكانت لغويّة أم غير لغويّة[21]. فعلاوةً على ما تتيحه هذه المعلمات الثلاث (paramètres: البسط والاستبدال والتقابل من إمكانيات ـ وهي أكثر الخاصيات المؤسِّسة لفرادة مفهوم *الوحدة المصطلحيّة* ولاسيما في إطار التعليميات[22]، فإنّ التنظيم المصطلحي المتكوّن أساساً من التسمية والمفهوم يستمد قيمته الدلالية مِن طبيعته الاصطلاحية والخطية والتراتبيّة في آنٍ واحد. هذا، وعلى الرغم مما يستوجبه اللِّسانيون مِن ضرورة التّموقُع دائمًا في اللُّغة واتِّخاذها كمِعيارٍ لِكلِّ التّجليّات الأخرى لِلكلام ـ بل لِلِّسان البشريّ ـ وكلّ التنوّعات الأدائيّة بما فيها لغات الاختصاصات. بيدَ أنّ الرجوع إلى اللّغة أولى لاستِجلاء تلك الخصائص وذلك لغرض تفهّم أهميّة عزل الوحدة المصطلحيّة لا كما فعلت المصطلحيات الكلاسيكيّة حينما جعلت منها قائمة مصطلحيّة مثاليّة مُستأصَلة عن سياقها اللّغوي في غالب الأحيان[23]. وللاضطلاع بهذه المهمّة نسترشِد بالتصوّر الذي قدَّمه لويس يلمسلف في شأن مفهوميْ الدّال والمدلول ـ التسمية والمفهوم فيما يخصّنا ـ مستوى التعبير ومستوى المضمون حسب المصطلحيّة التي اعتمدها. هذا ما يدلّ على ضرورة الاحتفاظ على التوازن بين المستويين المذكوريْن أعلاه (التسمية والمفهوم). وهذا ما يذكِّرنا به بيار لوراه : « فالمنظور اللِّساني لا يقدِّم المُصطلحيّة (قائمة المصطلحات) على أنّها أوّلاً زمرة مِن المَفاهيم؛ لكن عوضاً عن ذلك، يكشف عنها كسلسلة مِن العبارات التي تُسمِّي في لغةٍ طبيعيّةٍ ما مفاهيمَ تابِعة لمجالٍ مَعرفيٍّ مبوَّبٍ تبويباً مَوضوعاتياً »[24]. فما كان مبوَّباً تبويباً مَوضوعاتياً مِن الناحية المفهوميّة يُحيَّن في سياقاتٍ لغويّة تبليغيّة عبر عبارات لغويّة تسمويّة. وكذلك يَنظر لويس يلمسلف إلى اللّغة نظرةً شكليّة بحتة تماشياً مع مَبدأيْن أساسيّيْن صادريْن عن دي سوسير، وهما:

1. أنّ اللّغة شكلٌ وليست جوهراً
2. وأنّ دراسة اللّغة ينبغي أن تتمّ على مستويَيْن: مستوى التعبير ومستوى المضمون.

ولذا يقوم يلمسلف بعمليّة تعميم هذين المبدأين ويصل إلى الاعتقاد بأنّ الفرق بين لغتين يكمن في الشكل أي في التعبير وليس في المضمون؛ ولهذا يُمكِن الترجمة من لغة إلى أخرى، وينفي يلمسلف وجود المترادِفات في لغة ما لأنّ العناصِر الدّلاليّة للكلمات غير متوازِنة، فهي تتّفق في بعضِها وتختلِف في البعض الآخر. وقد طوّر يلمسلف النظريّة النسقيّة (وتسمّى أيضاً الشّكليّة لأنه يمنح الشّكلَ الأولويّة المطلقة في دراسة اللّغة) واتّجه بها اتّجاهاً خاصًّا حيث لم يعتمد في دراسة الوحدات اللّسانيّة مبدأ التقابل ـ وهو المفهوم الأساس في الدّرس السوسيري ـ لأنّ هذا المبدأ في اعتبار يلمسلف يؤدّي إلى منح الوحدات اللّسانيّة صفة الإيجابيّة بينما يعتبر الوحدة في غاية السلبية أي أنّها لا تحدِّد نفسَها بنفسِها بل بمجموع العلاقات الشكلية التي تقيمها مع بقية وحدات اللّغة. فالأهمية القصوى عنده تكمن أساساً في البحث عن طبيعة العلاقات التناسقية بين العناصر اللّسانية التي تتشكّل منها أيّ مدوّنة لغويّة.

2.2 التسمية:

نتحدّث عن التسميّة ـ كما اتّفق أعلاه ـ عندما نرغب في إبراز البعد اللّغوي في المصطلح. وهو الحلّ الذي تقدّم به لويك ديبيكر إذ يقول: « سننطلق مِن مبدأ أنّ المصطلح يتألّف مِن تسمية ومِن تصوّر تُرجِعنا التسمية إليه. نقطة الانطلاق هذه مفيدة لعدّة أسباب. في ما يتعلّق بالتسمية، هذا الاسم بالذات أساسي. غالباً ما تتحدّث الأوصاف في علم المصطلحات عن تسمية،

وفقاً لمصطلح مستمدّ مِن التقليد»[25]. غير أن استعمال كلمة تسمية فيها من العيوب ما فيها من الحسنات، وذكر لويك دييبكر من الأولى، وهو يواصِل كلامه السابِق قائلاً: « إنّ كلمة تسمية برأينا مضلِّلة، فهي تحملنا أوّلاً على الاعتقاد أنّ علم المصطلحات يقتصِر على الأسماء. وهذا أبعد ما يكون عن الواقِع »[26]. أمّا فيما يخصّ الحسنات يقول متابِعاً كلامه السابق: « [..] نقوم مِن جهتنا بالتّمييز بين المصطلح والتسمية. ففي الواقِع، حين نتكلَّم عن المصطلح، مِن الممكِن أن يُفهَم أنّنا نتكلَّم عن المصطلح ككلّ (تصوّر وتسمية)، أو فقط عن الجانب اللغوي فيه. والحال أنّه، بقدر ما يبدو لنا جوهرياً أن نشير إلى التعارض الذي يفصل التسمية (التي تنتمي إلى نظام اللّغة) عن التصوّر (الذي ينتمي إلى نظام الفكر)، بالقدر ذاته يكون جوهرياً أيضاً أن نفصل كلاًّ منهما عن المجموع الذي يشكِّلان جزءاً منه. وإلاّ، ففي معرض الحديث عن (المصطلح)، سيتعذّر علينا معرفة إن كان المقصود به التسمية أو التصوُّر الذي ترجع إليه أو المصطلح بمجمله. ومِن هنا نشأ هذا المبدأ الثاني الذي يمكن أن يُسدِّد خُطانا في هذا العرض: المصطلح رمزٌ لغويٌّ (دالّ + مدلول) يُرجعُ إلى تصوّر قابِل التّحديد خارج إطار اللّغة »[27]. هكذا، فلمّا تتمثّل ـ وتمثُّل لنا ـ المصطلحات كمعطيات أوليّة ذات طابع لغوي بالدرجة الأولى، فلا يمكن التغاضي عن الجوانب اللِّسانيّة (الصرفيّة والتركيبيّة والمعجميّة والتهجِئيّة) كمداخل ضروريّة لمعرفة طبيعة تلك المصطلحات*. وكذلك ركّزت الباحِثة كرستين بورتلانس (Christine Portelance) على توضيح المحور التركيبي كأحد الأبعاد اللِّسانيّة اللّغويّة التي استغربت أن يُغيِّبها البحث المصطلحي إلى غاية 1988 حيث قام جان كلود بولانجي[28] (Jean-Claude Boulanger) كما ترى بدراسة المركّبات المصطلحيّة[29]. وذلك على الرّغم من التوقّع الذي أطلقه دي سوسير حول الخطيّة باعتبارها الآيِلة إلى

التقطيع المزدوج الذي يخوّل دراسة المصطلحات مِن حيث منبتها في سياقات نصيّة وتبليغيّة. وكذلك لأجل ذلك الحلّ الذي أدلى به يلمسلف ونظريّة الدليل العلمي والتقني التي شغَّلها غلبير، والتوصيف الذي قدّمه لويك ديبيكر، وبمراعاة الدّرس اللِّساني السوسيري دائماً ونظريّة المرجع بالمفهوم البيرسي؛ أضحى لزاماً علينا الاحتكام إلى ثلاث خاصياتٍ ضمن البعد اللّغوي هي: الخطيّة والتفاضليّة والاعتباطيّة، كلّ ذلك من ناحية لغويّة المصطلح.

أمّا خاصية *الخطيّة*، فإنّ جعل اللُّغة في مُقابِل غيرها مِن الأنظِمة العلاماتيّة أبرز هذه الخاصية الرّاجِعة في الأساس إلى الطّابِع الصّوتيّ لِلدّليل اللُّغويّ الّذي يَقتضي تسلسُلاً زمنيًّا لِوحداته الصّوتيّة وذلِك في هيأتها المَنطوق. أمّا في المَكتوب فيتحوّل ذلِك التّسلسُل إلى تسلسلٍ مَكانيٍّ. وكذلك نظرًا لخاصية *التقطيع المزدوج* للّغة، فمِن شأنها أن تحقّق ما أسماه الوظيفيون *الاقتصاد اللّغويّ*، ويُعدّ أندري مارتيني (André Martinet) أشهر مَن أفصح عن هذه الخاصية وبِشهادة جورج مونان (Georges Mounin) الّذي يعتبِر الطّابِع ذاتَه « الصّفة الّتي يَبدو أنّها تُميِّز نوعيًّا اللُّغات البشريّة عن جميع أنظِمة الإبلاغ الأخرى »[30]. ولتدعيم مدى نسبة هذه الملاحظة إلى أندري مارتيني نفضِّل الاستشهاد بنصٍّ تابعٍ له حصلنا عليه من كتاب *البنويّة والماركسيّة* حيث يزعم أنّه الأب الشرعيّ لها، فيقول: « وبعد هذا [نموذج يلمسلف التحليلي] يوجد النموذج الذي يمكن تسميّتُه التقطيع المزدوج، الذي ترونني مضطرًّا إلى ادّعاء أبوّته، بما أنّنا نجده اليوم معتمدًا في طرفٍ آخر من قبل باحثين تبنّوه من غير التنويه كما يليق بكونهم مدينين لي، هو نموذج أقلّ تناظرًا مقارنةً بنموذج يلمسلف، وربّما يُعدّ أكثر واقعيّة منه»[31]. وبعد هذا تأتي خاصية غاية في الأهميّة وهي « أنّ اللّغة [مِن جهة] نظامٌ من القيّم المحض الّتي لا يحدّد

حقيقتها شيء باستثناء الوضع الّذي تكون عليه عناصر ذلك النّظام في زمن معيّن »[32]، ثمّ إنّ « كلّ شيء في حالة لُغويّةٍ ما إنّما يَقوم على العِلاقات »[33]. ومِن جهة أخرى ـ فإنّ المصطلحات تَستخدِم أصواتًا واضحةَ المعالم لأداء وظائفها. إذ يسمع الإنسان في بعض الحالات هذه المصطلحات، كغيرها مِن الكلمات، متكرّرةً في مواقف معيّنة حيث تكون مصحوبة بظواهر أخرى. « وعلى هذا النّمط [يقول ستيفن أولمان في موضوع الكلمات] نجد أنّ الأصوات " تفّاحة " تسمع مرارًا وتكرارًا وبانتظام مرتبطةً بهذه الفاكهة الخاصّة. وبالتّدريج يكون العنصران ـ الأصوات والمدلول ـ كلاًّ أو وحدة ترابطيّة متكاملة، فإذا تكوّن هذا التّرابط وثبت أصبحت الكلمة ـ جزءًا من الخبرة الكليّة ـ ذات قدرة على أن تقوم مقام هذا المدلول. وكذلك العكس. فإنّ فكرة المدلول تستدعي الكلمة الدّالة عليه بالطّريقة نفسها »[34]. لكن هذا الشيء الذي كان يمكن أن يُكسِب المصطلحات خاصيّتها اللّغويّة المميِّزة ـ باعتبارها تستخدِم أصواتًا واضحة المعالم لأداء وظائفها كما أسلفنا ـ أعقب خيبة أملٍ لأنّ المصطلحات يغلب عليها الطابع الكتابي. والظّاهِر أنّ الباحثين العرب قد قصّروا في شأن رسم المقابل المقترَض (المعرَّب تعريباً جزئيّاً). فوقعوا في الاختلاف ما صعَّب على المتلقِّين مهمّة التعرّف على الصوت التفاضلي لأنّ الحرف لم يعد تفاضليّاً ولا حاسِماً بل ولا وظيفيّاً ولا واضِحا: فعندما يُرسَم اسم عَلَم مشهور في مجال اللِّسانيات مرّة (هِلمسلف) بالهاء، ومرّة أخرى (يِلمسلف) بالياء؛ قد لا نعرف هل يتعلّق الأمر باسم شخصٍ واحِدٍ أم باسميْ شخصيْن مختلفيْن. وهذا كما سنرى أدناه يرجع في الأساس إلى تباين المرجعيات التي يعتمدها كلُّ باحِثٍ في نقله وترجمته وكذا تبايُن اللّغات من حيث ينقلون المعرفة اللِّسانيّة.

أمّا في شأن الاعتباطيّة، فيبدو أنّ المفهوم الذي يدلّ عليه المصطلح يُحيل أكثر إلى الموضوعيّة (Objectivité) والكونيّة (Universalité) في تمثيل الأشياء، في حين تطغى الذاتية (Subjectivities) والخصوصيّة (Partialité) على المدلول الذي تحمله الكلمة وتعلّق به على الأشياء وتعبِّر عن الأحاسيس والأفكار. لهذا يُعتَقَد أنّ الاعتباطيّة تنطبِق على المصطلحات أكثر منها على الكلمات. لكن يأبى برتيل مالمبيرغ (Bertil Malmberg) في تصوّره للنسقيْ المعجمي والمفهومي إلاّ الحكم بأنّ الاعتباطيّة لا تنطبق على المصطلحات سوى نسبيّاً[35]. وإن كانت الاعتباطيّة قد توصَف بالنسبيّة، غير أنّ نسبيّة الاعتباطيّة لا تنفي كليًّا الاعتباطيّة المطلقة فكلمة سبعة عشر تتألّف من سبعة وعشرة فالمدلول هو مجموع الكلمتين، ثمّ إنّ الكلمة المركَّبة تبدو معلّلة بل هي كذلك، لكن كلمة سبعة منفصلةً عن عشرة ليست معلّلة[36].

3. البعد الاجتماعي (التداولي):

اللّغة كما يرى علماء الدراسات الاثنولوجية اللّغوية أداة تستعير من الواقِع تصوّراتها؛ والعالَم الواقعيّ نفسه يتَمَفْصَل حسب تصوّر مستعمليها وتفاوت نظراتهم إليه، وتتكون عبر استخدامها لشبكة تعبير يقوم على تصور خاص للعالم[37]. وتوجد تصوّرات مختلفة للعالم بقدر تواجد اللّغات وتنوّعها. فاللّغة تختزن تجربتنا مع العالم، إذ تصوِّر كيف أدركناه، وكيف أوقعنا الأسماء على المسميات، وكيف صنفناها وبنينا الدلالات، وكيف ربطنا بين الدلالات في شبكات، وكيف ربطنا بين الشبكات الدلالية في أنساق من المفاهيم والتصورات. ولذلك تُعد لغة الأمّ جزءا من كيان الذات، ومكونا من أهم مكونات الهوية، لا يمكن تعويضها بغيرها من اللغات. كما يعتبر المفهوم بناء ذهنيا ممثلا

لموضوع (شيء) فردي، محسوس أو معنوي، فهو يوجد نفسانيا لدى الفرد، مستقلا عن المصطلح (الدليل اللغوي) في حد ذاته، ويسبق نوعا ما التسمية التي يعين بها، على النقيض من المدلول. وهذا قد تأمّل فيه جلُّ اللّسانيين، كلٌّ من الزاوية التي تعنيه، فما جعل دي سوسير يقول باعتباطيّة اللّغة (الدليل اللّغويّ) هو خروجه على فكرة (اللّغة . القائمة بالكلمات) المشار بها إلى الأشياء[38]. كما أدّى هذا بدي سوسير إلى القول بازدواجيّة الدليل اللّغويّ، أي لَه طرفان مُتلازِمان هما (الدّال ⇔ المَدلول) اللّذان يدعو أحدُهما الآخَر. ويُعتبران مُصطلحيْن موضوعيْن لِلإفصاح عن ثُنائية تَقابُلية لها قيمتها المنهجيّة. وتعريفه باعتِبارِه كيّانًا نفسيًّا ناتِج عن رغبة *دي سوسير* في تفادي الاعتِقاد السّائد مِن أنّ اللُّغة قائمة مُشكَّلة مِن أسماء يُقابَل بِها عددٌ مُماثِلٌ مِن الأشياء. وهو تصوُّرٌ خاطئٌ[39] يعكِس بساطةً في التّطرُّق إلى الدّرس اللِّساني يَنبغي تجاوُزُها.

1.3 المجال وسياق الحال:

من بين النظريات اللِّسانيّة التي أولت السياق أهميّة في دراسة اللّغة نظرية السياق التي درس اللِّسانيون من خلالها معنى الكلمة خارج أصل الدلالة، وطبيعة العلاقة بين الدال والمدلول، واهتموا بالدور الذي تؤديه الكلمات في السياق، والطريقة التي تستعمل فيها، ويكون المعنى عندهم هو حصيلة استعمال الكلمة في اللغة من حيث ورودها في سياقات مختلفة. فالباحث المعجمي يلاحظ كل كلمة في سياقها، كما ترد في الحديث أو النص المكتوب، ثم يستخلص من ذلك العامل العام المشترك، ويسجله على أنه المعنى أو المعاني المرتبطة بالكلمة[40]. وهؤلاء اللِّسانيون يركّزون على دور السياقات التي ترد فيها الكلمة، فلا معنى للكلمات خارج مكانها في السياق على الإطلاق.

وهكذا تتطلّب دراسة معاني الكلمات عند أصحاب نظرية السياق تحليلاً للسياقات التي ترد فيها الكلمة، لذا اقترح بعضهم تقسيم السياق إلى أربعة أقسام هي: السياق اللغوي، السياق العاطفي، سياق الموقف، السياق الثقافي[41]. هذا، ويظهر الترابط بين اللّغة والسياق الاجتماعي والثقافي الذي تمارَس فيه مِن خلال تلك المبادرات الرامية إلى إخضاع اللّغة لتعديلاتٍ من أجل البقاء. لهذا عدّ بعض اللِّسانيين أيَّ شكلٍ من ممارسة التدخّل على اللّغات من أجل إحداث تغييرات لازمة عليها نوعاً من التدخّل الذي يمسّ الثقافات حتماً من أجل إيقاع عليها ما يمكِن مِن التغيير[42]. لهذا تلتزم الأمم المهمومة بمستقبل لغاتها بوضع خطط وسياسات لغويّة تسهر على إنمائها بالرصيد اللّغوي الذي يتماشى وسياق الحال المتبدِّل. وفي هذا المضمار يقول برنار بوتييه (Bernard Potier): « كلُّ شيءٍ مرتبِطٌ، في غالب الأحيان، بعددٍ معيَّن ومحدودٍ مِن الوظائف المرشَّحة التي يؤدّيها ذلك الشيء في وسطٍ اجتماعيٍّ ثقافيٍّ ما »[43]، فعلى عمليّة تسميّة هذا الشيء أن تراعي ذلك <u>الارتباط الاجتماعي الثقافي</u>، وإلاّ ستفتقِر التسمية إلى معلِّلات مِن المتوقَّع أن تستثير المفهوم في أذهان المستعمِلين (المتبادِلين والمتواصِلين). ومِن المعروف عن هذا الأخير (برنار بوتييه) شدّة تقديره للبعد الإثني في طرحه لإشكاليات الدلالة[44]. وقد ضرب بوتييه لهذه المقولة مثالَ الجسر (Pont)، حيث يرى أنّ كلَّ المعجميّة . إن لم نقل المصطلحيّة . التي تدور حول هذا الشيء المسمّى *جسراً* ستنبثق عن كيفيات توظيفه والظروف المحيطة لهذا التّوظيف وكذا من المستعملين: فالمهندِس المعماري الذي يرى في الجسر نشاطاً بنائياً سيشتق من التسمية المفعولات الضروريّة لنشاطه التصميمي؛ بينما سيميل السائح، الذي يرى في الجسر مجرّد معبرٍ، إلى التعبير التعميمي؛ وسيضطلع آخرٌ باستعماله مجازاً

مقترِناً بأحد قيوده (وظائفه) فيقول جسر *التواصل*، وآخرٌ مراعياً لنشاطه البيئي مثلاً[45].

كما نتحقّق مِن أهميّة سياق الحال ثقافيّاً واجتماعيّاً وفي المجال الذي يهمّنا ـ وهو مجال اللِّسانيات التي تحوّلت في العالَم العربي إلى خطابٍ لساني ـ عن طريق ارتِباط إنتاج المصطلح (أي وضعه وتوليده توليداً صوريّاً ودلاليّاً معاً)، داخل بيئة مجتمعية، وذلك بإنتاج المعرفة اللِّسانيّة طبعاً، وليس بمجرَّد اجترار أقوالٍ وضعها الغير فقيام هذه الحقيقة يعني سقوط فرضيات العجز اللغوي الذي تُرمى به العربيّة. وكذلك نتحقّق من أهميّة سياق الحال لسانيّاً ولغويّاً (أي من الناحية الفنية البحتة)، حينما نقوم برصد الأزواج المعجميّة (المرادفات) التي يحيل فيها كلُّ زوجٍ على نفس المرجع لكن تختلف دلالة أطرافه باختلاف سياقات استعمالها. وقد مثّل غلبير لذلك بـ (soldat & trouffon) و (élève & potache) ـ في صدد تمييزه بين كلمات المعجم العام والمصطلحات، فوجد أنّ الأولى أميل إلى التفاوت حسب اختلاف سياق الحال الذي ترد فيه لأنّها لا تنفكّ تتبادر إلى أذهان المستعمِلين على شكل أزواج أو مجموعاتٍ أكبر، حيث يقوم الفردُ باختيار اللّفظ المناسب لذلك السياق حسب انتمائه الاجتماعي وثقافته الأثنيّة ومستوى ثقافته العارفة وأحياناً تبعاً لمزاجه وأحواله العاطفيّة فتنشط بذلك باقي الإيحاءات التي ينفرد بها اللّفظ المختار. بينما يذهب إلى عكس ذلك فيما يخصّ مفردات اللّغة العلميّة والتقنيّة حيث تتنوّع المعجميات بتنوّع المجالات ليس على سبيل الاختيار بل يتحكّم في ذلك نوعٌ مِن الجبر[46]. وبينما أخذت المصطلحيات الاجتماعيّة تفنِّد هذه الرؤية شيئاً فشيئاً إلى أن أخذت تحاربها لاحِقاً. ذلك أنّها تقوم على تجريد

المصطلحات ممّا يُعرَف لدى أيٍّ مجتمعٍ مِن تزويد الكلمات العادية بالعناصر الثقافيّة والإيحاءات الفرديّة والاجتماعيّة. فقد انتهت إحدى الدراسات إلى عكس ما ذهب إليه غلبير وهي تتناول المسار الذي عرفه إدخال المفهوم الذي تؤدّيه ثنائيّة (software / hardware) إلى اللّغة الفرنسيّة فوجدت أنّها متأثِّرة أيّما تأثُّر بالثقافة التي ابتُكِر فيها المفهوم وصُنِع فيها المصطلح وهي الثقافة الأمريكيّة الإنجليزيّة. فاقتضى الأمرُ التنازل عن عدّة تسمياتٍ واحدة تلو أخرى إلى أن بلغت التسمية المفضَّلة حدّ الاختصار الذي تمثِّله ثنائية (logiciel / matériel) والاقتصار عليها. وذلك بعدما تمّ إلغاء ثلاثة عشر أزواج أخرى بما فيها زوج (panoplie molle / panoplie dure)[47]. « فثنائيّة (Soft / hard) ـ يقول مارسيل دِري كِدرِي (Marcel Diri–Kidiri) ـ تخضع في حدِّ ذاتها لمصفوفة ثقافيّة متميِّزة »[48]. ثمّ لاحظ أنّ كلّ المقترحات كانت تتّجه نحو تفعيل العناصر الثقافيّة الفرنسيّة معتبِرةً أيضاً العناصِر الثقافيّة الأمريكيّة التي ولّدت التسميّة باللّغة الإنجليزيّة وفيها. هذا بالذّات ما أدّى بكريستيان مارسليسي (Christiane Marcellesi) ـ حينما درست المصطلحيّة التي يستخدمها الأخصائيون في الإعلام الآلي بفرنسا ـ إلى تقديم توصيفٍ للمشهد الاقتصادي الفرنسي في مجال الإعلام الآلي. فوجدت على إثر ذلك أنّ 90% من العتاد المسخَّر في هذا المجال مستورَد من الولايات المتحدة الأمريكيّة: ما أدّاها إلى توسيع دراستها إذ لم تكتف بوصف مصطلحيّة الإعلام الآلي الفرنسيّة بغضِّ الطرف عن علاقات فرنسا الاقتصاديّة والتجاريّة مع العالم ولاسيما أمريكا[49]. لعلّ هذا ما حدا ببعض المختصِّين في رصد التطوّرات اللّغويّة إلى أن يقرّوا بأنّ معجم اللّغة يتجدّد بسرعة أكبر قياساً بنحوها وأصواتها، ولاسيما في حالة فوران الفكر ونضجه وتفعيل النشاط البشري

الاقتصادي. فقد تجدّد ربع معجم اللّغة الفرنسيّة مع ما عرفته مِن تطوّرٍ في مجال الإعلام الآلي الذي شهد بدوره بذور الثورة العارمة خلال فترة (1948 ـ 1960)[50]. ولذا فلا يمكن تحييد سياق الحال حيث يتمّ إنتاج الخطاب ومعه المعنى ولا يمكن تجريدُه بأيِّ حالٍ مِن الأحوال، ذلك أنّه جزءُ لا يتجزأ مِن الممارسة الاجتماعيّة التي يعود إليها فضل تحديد ذلك الخطاب وكلّ ما يقوم عليه كالنص والجنس أو الشّكل الذي يشكِّله[51]. فعلى الرغم من بروز هذا المنحى الاجتماعي عالميّاً فلا يزال بعضُ الباحثين العرب ـ نخصّ بالذكر أولئك الذين يخوضون في البحث المصطلحي من أبوابه الكبيرة أي المنهج والنظريّة والتطبيق ـ يتشبّثون بالضرورات التي ثبّتتها المصطلحيات الكلاسيكيّة وقعَّدتها، سواء بوعيٍ منهم أم بدون وعي: كالتمسّك بأحاديّة الصورة والدلالة، ونبذ الترادف المصطلحي والتعدّد الدلالي (المشترك اللَّفظي) وتحرّي التوحيد المصطلحي والتقييس. بل انعكس هذا الوضع سلباً وبشكلٍ ملحوظ على قضايا المنهج والنظريّة على مستوى التّطبيق المصطلحي العربي. إذ لا يزال هناك مَن يصدح بهذه المبادئ على حساب سنن تطوّر اللّغة تطوّراً طبيعيّاً إلى حدّ أنّ بعضَهم يستنكر عدم تقابل معاجم اللغات ببعضها البعض تقابلاً تناظريّاً مع شبه تعذّر النّسخ الدلالي الذي أصبح مِن أبجديات كلِّ درسٍ لسانيٍّ ينزل إلى واقِع اللّغة التي ينهمك عليها، ومع ما سبق أن أشرنا إليه أعلاه من أنّ اللغات ليست قوائم بمفردات. وقد ورد التأسّف على ذلك التقابل في كتابٍ يحمِل عنواناً يشمل كلَّ مواصفات (مفردات) الكتاب الكامل كما يظهر ـ المَناهج المصطلحيّة: مشكِلاتها التّطبيقيّة ونهج معالجتها. وذلك مِن قبيل ما تصرِّح به في المقتبَس الآتي: « وعلى صعيد التقابل مع اللّغات الأخرى كيف يمكن إقامة تناظر مع اللّغات الأخرى، واللّغة العربيّة نفسها تعاني مِن التعدّد على أكثر مِن

صعيد ؟ من تعدّدٍ في الصيغ والأوزان، وتعدّدٍ في الدلالات. وهذا التعدّد في اللّغة العربيّة يؤثِّر في عمليّة تنظيم وضع المصطلحات في حال اعتِماد مفهومٍ ما. فمثلاً عند اعتماد أساسٍ محدَّدٍ كأساس الوظيفة أو الشّكل، يُلاحَظ أنّ مرادفاتها اللّغويّة تتعدّد، فهناك مصطلحات مترادِفة في مفهومها غير أنّ موادها مختلِفة، نحو (إعلان، إشهار) إذ اعتمد هنا أساس الوظيفة، فلو اعتمد أساس الشكل مثلاً لأصبح المصطلح مِن مشتقات (الحشد أو التجمع) »[52]. فمَن يطالِب المصطلح بأن يتحلّل من حلّته الخارجيّة ويتحرّر من صَدَفَتِه كما يوحي المقتبَس السابق، فلينتظِر أن يدفع مقابلَ ذلك ثمناً ما (المبالغة في التّوليد الصوري مثلاً)*. والحال إنّ المصطلحات تتكاثر اجتماعياً. وهذا يحدث بوحيٍ من العلاقات الترابطيّة الاستِدعائيّة. فاللّغة تختزن تجربتنا مع العالم، تصوِّر كيف أدركناه، وكيف أوقعنا الأسماء على المسميات، وكيف صنفناها وبنينا الدلالات، وكيف ربطنا بين الدلالات في شبكات، وكيف ربطنا بين الشبكات الدلالية في أنساق من المفاهيم والتصورات. ويعزى نجاح هذا التشبيك إلى نَظرة الأفراد إلى العالم الخارجيّ[53]، وهو ما يتماشى أكثر مع تَشكُّل الحقول التَّصوُّريَّة الّتي مِن شأنها أن تُفصِح عن العلاقات الكائنة بين المفاهيم. وقد اهتمّ اللِّسانيون . انطلاقاً مِن رومان ياكوبسون . إثارة مشكِل تفسير الحقائق الجديدة ومقاربة الوقائع غير المألوفة من خلال اللّغة التي تُعنى بترجمتها[54]؛ وذلك على الرغم مِن انتماء مثل هذه القضايا إلى فلسفة اللّغة. ولعلّ هذا ما جعل المهتمّين بقضايا تحليل الخطاب يطلقون مصطلح *الإيحاء الاجتماعي* على المفهوم المطلَق عليه غربياً **(connotation). ولذلك تُعد لغة الأمّ جزءا من كيان الذات، ومكونا من أهم مكونات الهوية، لا يمكن تعويضها بغيرها من اللغات. كما على المترجم أن يستجيب في آنٍ واحِدٍ لمقتضيات الوضع والقاعِدة

وللضرورات البلاغيّة وقوانينها. فالحاجة الملحّة للتجاوب مع الجمهور تدفع حقّاً إلى الوقوف عند الإيحاءات. فالمشكل الذي يقوم بالنسبة للتحليل اللّغوي هو كيفيّة إقامة حدود بين ما هو connotation وما هو dénotation[55]، وهي عند لادميرال من غير الممكن ـ إن لم نقل مِن المستحيل ـ الذهاب مما هو dénotation إلى ما هو connotation[56].

إنّ اللّغة تنسج شبكة علائقيّة داخل *دلاليّة** المصطلح ما يفضي ـ على المدى البعيد ـ إلى علاقاتٍ من نوع المجاز المرسل والاستعارة والتضمين والاتّساع. وتدخل المصطلحات في علاقاتٍ ببعضِها البعض، ما يؤدّي ـ في المدى القريب ـ إلى تكوّن علاقات من جنس الترادف والتعدّد الدلالي[57]. فتستبقي اللّغة من تلك العلاقة الداخليّة ما تستبقيه وتأخذ من الظواهر الأخيرة حسب الحاجة إليها. ثمّ إنّ للسّياق فعاليّة في إكساب المُصطلح مَفهومه، بما أنَّ الوِحدة المُصطلحيّة وثيقةُ الارتِباط بِالمُتصوَّر ارتِباطًا عرفيًّا . الأمر الّذي يُفسِّره التّماسُكُ بين صورة التّعبير وصورة المَضمون في سيّاقٍ مُحدَّد والمَدعو بِالوظيفة السِّيميائيّة بِمفهوم يلمسلف[58] . فَالتَّعرُّف على هذا المُتصوَّر متوقِّفٌ على استِعمال تِلك الوِحدة المُصطلحيّة في مَقاماتٍ ملموسة، قد تُنبِئُ على نَفس الحيِّز الدّلاليّ المَوجوديّ المُمتدّ (Continuum) الّذي كان قبلَ ذلِك غيْر مُتبلوِر (Amorph)[59]. لِهذا فإنّه يتعيَّن على المُصطلح أن يأتيَ في صورةٍ موحَّدةٍ تفاضليةٍ يستدعي تواجدُه كلَّ مرةٍ في السِّياق المَخصّص له تداعي الفكرة التي يُصوِّرها في الذِّهن. لأنّ المُصطلحات الّتي تقدّم بِها المُعجَم المُوحّد ليست مُولَّدة مِن صنع المُؤلِّفين إنّما مُعظمها كان لَها سبق الوجود لا يُحيط بِه إلاّ السّياق الحقيقي أي ما يُحصَّل فيه المَفهوم. فهذه النظرة الاجتماعيّة ـ مقدَّمة هكذا ـ تنطلِق مِن مسلَّمةٍ مؤدّاها أنّ المفهوم سواء ثبت عبر الزمان أم تغيّر،

يكتسي طابعاً يختلِف من مرحلة إلى أخرى. وذلك وفقَ ما يسود في كلِّ مرحلة مِن علاقات آنية أفقيّة تتآزر بحيث يُجنَّد بها في تلك المرحلة. لذا كان على كلّ تحليلٍ لسانيٍّ . في خصوص لغات الاختصاصات . أن يمرَّ من تحليل *سياق الحال* الذي يُستعمَل فيه المصطلح[60]؛ حيث يُراعى **البعد الاجتماعي للمصطلح**. لكن برمجة هذا البعد لا يفلح أصحابها من غير أن يصطدِموا بالمنحى الجوهري الذي سارت عليه المصطلحيات طيلة عقودٍ من القرن العشرين وهو التوحيد المصطلحي. إلاّ أنّ تضييق الخناق على المفهوم المصطلَح عليه باسم التقييس المصطلحي وتوحيده أضحى مِن شأنه أن يلغي ـ إلغاءً بالمفهوم النحوي (Neutraliser) ـ كثيراً من علاقات أفقيّة على درجة عالية من الفائدة داخلَ خاناتها الخاصّة. إذ كان بإمكان الاعتماد على تلك العلاقات لتعليل المصطلح وتوصيله والتعقيب عليه ومواصلة دربه عوض أن يُجمَّد في قوالب نمطيّة حيث تَتَداعى تلك العلاقات المحصِّلة للمفهوم في سياقاته المتنوِّعة وبدلَ أن يُطوَّق في أنساقٍ تدّعي ضمان التواصل العالَمي على طريقة المفردات التي تأتي في العقود الملزِمة وعلى أساس أنّها مواد دالّة بألفاظها وبمعانيها. وهذا من شأنه أن يكثِر مِن البديل المصطلحي الذي قد يقاس على البديل الصوتي (Allophone) بوصغه لا وظيفة له خارج اعتباره تنوّعاً أدائياً.

2.3 المستعمِلون الشركاء:

قد بلغ أمر الاهتمام بالمستعمِل درجةً أصبح فيها معياراً محدِّداً لنمط اللّغة، حتى كادت تمّحي معه الحدودُ بين المعجم العام والمعجم الخاص، إذ يتم بفضلِه اعتبار أيّ معجم بأنّه متخصِّص في ظرفٍ معيَّنٍ وفي سياقٍ ما، وخاصّةً عندما يُستعمَل من قِبل مستعمِلين متخصِّصين. وذلك على الرغم ممّا

يبدو على ذلك المعجم من آيات الاعتياد والبساطة إن لم نقل العمومية بل الابتذال أحياناً. فالمستعمِل إذن هو ممّا يزيد من حدّة المعجم التخصّصيّة[61]: فمِن هذا الوجه، يمكن مسايرة خوان كارلوس ساجر فيما ذهب إليه من أنّ « المصطلح هو تنوّعٌ وظيفي للكلمات العادية »[62]. أي تكتسِب هذه الأخيرة قيمها المفاهيميّة ـ فتصبح بالتالي مصطلحاتٍ ـ بوساطة استعمالات الأخصّائيين لها. وكذلك يُنظَر إلى الخبر (المعلومة) على أنّه لا قيمةَ له في ذاته بل سيكتسِب القيمة إلى جانب غيره من الأخبار والمعلومات وباعتبار مستعمِليها أو *إطار التعامل معها* ـ كما يدعوه رواد نظريّة الإعلام والوجهة السيميائيّة[63]. ولكن هذا التصنيف وفق المستعمِل قد تُبطِله قدرة الفرد على الجمع بين أكثر مِن مستوى وسجلٍ ـ كما يقول بيرنيي (Pergnier): « يوجد في حوزتنا جميعاً أكثرُ مِن إمكانية واحِدة من الاستِعمال اللّغوي: أحدُها سليمٌ رسميٌّ والآخرُ مستأنسٌ والثالثُ سوقيٌّ مبتذلٌ والرابعُ عاميٌّ. ونَعبُر بكلِّ يُسرٍ من أسلوبٍ إلى آخر، وأحياناً في ثنايا الجملة اللّغويّة الواحِدة وأثناء حديث المرء بملء فيه »[64]. فيصبِح بذلك مِن العسير أن يتمّ تمييز العلماء ومعهم المطبِّقين ـ من الأطباء والمهندسين وعلماء النفس ..الخ ـ عن غيرهم من الأفراد، خاصّة إذا كان أولئك لا يلتزمون بعض حدود مهنتهم ولو بحجّة تيسير التواصل بينهم وبين هؤلاء. وذلك بغضِّ الطرف عمّا تتيحه اللّغة من إمكانيات المجاز وألعاب الكلمات. والحال إنّه عندما نضيف إلى ما ذكِر أعلاه حول أهميّة المستعمِل، كون الزاوية الاجتماعيّة للواقِع المحلَّل ـ أو المنظور منها إلى هذا الأخير ـ تتكوّن عبر ما يصوغه الشركاء المستعمِلون من الرؤى ويتناولونه من الأشياء والمفاهيم وما يرافقهم حينَه من التصوّرات؛ فعلينا واجب التّساؤل حول عدد تلك التنوّعات الوظيفيّة التي يرى ساجر أنّها تتجسّد كلّها في شبكة من تسمياتٍ نعرف الآن أنّها من نسج الذهنيات الثقافيّة والأدبيات المنتشِرة والعقليات

المتعارَف عليها اجتماعياً. ومهما يبلغ عددُها رقماً هائلاً فيكفي وضعُها في مجالٍ محدَّدٍ لكي يتمّ استحضار تلك الشبكة فيحصل التواصل بالتالي وبدون مشكِلٍ في التفاهم. هذا ما حصل للغة العربيّة تاريخيّاً ـ ولا يزال بقع ـ مع نضج أدبها وكذا مع ظهور الإسلام الذي أتاح لها *لغة دينيّة* كما يقول محمّد طبي في هذا المقتطف: «والمؤكد أن لغتنا ساعدها الحظ على صياغة وفرة من المصطلحات للتعبير عن الدقيق من جزيئات الأمور الدينية، فتكونت لنا (لغة دين). وكذا في الحقل الأدبي، فقد تشكلت بفضل غزارة الشعر وعطاءات الفكر وممارسة (لغة أدب) »[65]. والمعلوم أنّ المصطلح وضع واستعمال. والاستعمال معيار أساسي للحكم على صلاحية المصطلح. فلا حياة لمصطلحات تقبع بين دفّات المصنفات والمعاجم خارج دائرة الاستعمال. يلخِّص علي القاسمي في هذا الصدد بالقول: « يمكِن تعريف الاستِعمال بأنّه دِراسة المفردات اجتماعياً، ف (سيادتكم) و(حضرتكم) و(أنتم) و(أنت)، مثلاً، لها المعنى نفسه ولكنها ذات قيمة اجتماعية متباينة »[66]. من هنا جاء التّفكير في تهيئة سياساتٍ لغويّة ترسم سبل التدخّل في طريقة اختيار المصطلحات وترسيمها بناءً على التصنيف المطبَّق على المستعمِلين، وكذلك بتقديم الأولويّة لما ينبع عن الاستعمال والشيوع كمناخٍ طبيعيٍّ لنشوء المصطلحات. وذلك للكفّ عن النزعة التقريريّة التّوجيهيّة التي يغلب عليها الاصطناع والتعسّف باسم التعليل وغيره من الذرائع. ولكن طلب الكفّ هذا ـ كما يرى فرانسوا غودان ـ رهينٌ بأداء دراساتٍ مِن شأنها أن تكشِف عن حاجات المستعملين الحقيقيّة فيما يخصّ المصطلحات[67]. « ثمّ إنّ اللُّغة وإن كانت مُهمّتُها الرّئيسيّة هي التّبليغُ فإنّ لَها عملاً آخر كأنّه تابِعٌ ومُلازِمٌ لِلتّبليغ وذلِك هو تحليلُها لِلواقِع الّذي يظهر ويتحقّق بِظهورها وتحقُّقها لأنّ الكلام الّذي هو فِعل المُتكلِّم أي المُبلِّغ إنّما هو تقطيعٌ يَقع على حقيقتَيْن مُختلِفتيْن في وقتٍ واحِد وهما الصّوت الّذي يُرسِله المُتكلِّم والمَعاني (ما حصل

لَه مِن المَعلومات الاختِباريّة) الّتي يُريد إبلاغَها إلى السّامِع »[68]. ويرتبِط بهذا الأمر بقضيّة التصوّر وكذلك بالتمثيل (Représentation) اللّذين تتحدّد عبرهما المفاهيم وتقتسِم عالَم المعرفة بناءً عليها. ذلك أنّ اللّغة ليست مجرّد تشكيل علاماتي لمقاطع صوتية، تكونت كنظامٍ اصطلاحيٍّ توصَف به الأشياءُ مِن حولنا كما يحلو لذلك النّظام فحسب. إنّ كلَّ لغة تعكس نظامًا داخليًّا لبنياتها، يتميّز بتركيب خاصّ ويُستمدّ من مصدريْن: تكوينها الذاتي بقواعدها، والواقع الذي تتعاطى معه بإفرازاته. فهي تضع صورًا منتظمة لهذا الواقِع بأدواتها وحجم لسانها وتبنيه على طريقتها وفقًا لعبقريّتها؛ وهي بالتّالي تستقطب منه العناصر اللاّزمة الخاصّة بها[69]. ثمّ إنّ الوصف الذي يقع قسطٌ منه على حركاتنا وأفعالنا وأحاسيسنا لا يقع بحياد بارد، بل أكثر من ذلك لا تمثِّل اللّغة تلك الأبجدية التي طاب للكنعانيين مثلاً أن يختزلوا بها الكتابة الهيروغليفية منذ أبعد العهود، كما أنّ كلماتها التي تتشكل منها الرموز الأبجدية التي نظنّها مجردة إلى حدٍّ ما، يستحيل أن يتمّ تفكيكها . مهما يكن نوعُه . خارج سياق منشئها ودلالتها، وإن حدث في ظروفٍ تعليميّة وترجميّة فيلاقي أصحابُه مشكلاتٍ ترتبط مباشرة بطبيعة هذا الواقِع اللّغويّ الذي نريد أن نفصح عنه.

4. البعد التواصلي (المعلوماتي):

1.4 التّواصل:

إنّ خلق روابِط بين المصطلحات يساعِد كثيراً على خلق تواصل بين أجزاء الموضوع الواحِد أو الفكرة الواحِدة، ويؤمِّن توصيل المفاهيم أيضاً. وخيرُ ما يتكفّل بذلك اللّفظ. فتكون ثمّة شبكة مصطلحيّة موازية لشبكةٍ أخرى تستوي على العالم الخارجي أو الفكري أو غيرهما. إنّ أوّل مبدأ تعتمده عمليّة التشبيك

هذه، هو أنّ ترتيب ما تحيل عليه المصطلحات لا يسلك دائماً سبيل الخطيّة، لأنّ تقدّم الأفكار في حدِّ ذاته لا يستسلِم لهذه الأخيرة. قد يخضع لتراتبيّة يُتيحها تكوين المصطلح ذاته. ولكن لا يمكن أن يتحقّق وضعُ المصطلحات في شبكاتٍ تواصليّة إلاّ إذا سبقتها دراساتٌ وصفيّة يُتعرَّف من خلالها على القواعِد اللّغويّة التي تتحكّم في نظامها من ناحية تواجدها اللّغوي، وعلى من جهة تواجدها الأنطولوجي. لهذا لا يتوقّف الأمرُ عند دومنيك مانقينو (Dominique Maingueneau) على المَلكة التواصليّة بهالتِها الباهرة، حيث يُقلِّب المَسألة، فيضع مُقدِّماتٍ حيث يذكر المَلَكة اللّغويّة (التحكّم في اللّغة المَعنيّة) وكذا المَلَكَة المَوسوعيّة (الثقافة العارِفة: المَعرِفة حولَ العالَم)[70]. كما وجدنا بيار بورديو (Pierre Bourdieu) يدعو علمَ الاجتماع إلى الاهتمام بتحليل الوقائع التي جرى تسميتها وتصنيفها سابقاً، والتي تحمِل أسماءَ عَلَمٍ وأسماءَ عامّة، وعناوينَ وإشاراتٍ، وأحرفًا بَدْئِيَّةً (للدلالة على مقامات أصحابها). وهو في كتابه الأخير (ماذا يريد المتكلِّم أن يعني؟)[71] يسعى إلى تحليل الأوضاع الاجتماعية وممثلي الجماعات عبر الصيغ اللّغوية التي يتعاطونها، إنّه لا يجد في التسمية حلاًّ لمشكلة المسمّى إن لم ترتبط بالظروف الاجتماعية التي أوحت بها. فهو على عكس البنيويين والنصيّين لا يجد البنية قادِرة على تبرير مدلولها إن لم يتمّ تأويلها على ضوء السياق الاجتماعي الذي يستخدمها (فاللّغة تسمّي العالم بحسب العلاقات والبنى الاجتماعية وتعطيه البعد الكينوني الذي تتضمّنه قدرات اللّغة الترميزيّة). ويبدو أنّ العرب الذين أعطوا للّغة شأوها الأبعد لم يستخدموا طاقاتها الترميزية للتعبير عن علاقاتهم بالعالم من حولهم فحسب بل طوروها من أجل تغيير العالم ذاته[72]. مِن هنا فلا يمكن بذلك ألاّ نتحدّث عن معضِلة مصطلحيّة هي بالفعل معضلة تعرقل دخول الفرد أحادي اللّغة إلى المعرفة والتزوّد ممّا يجري في عالمها من الزيادات والتحسينات والإضافات، ذلك إذا

أساء المصطلح في نقلها وأخفق في التمكين لها؛ والمعضلة نفسها لا تتسامح مع مزدوج اللّغة أو متعدّدها وأحيانًا يكون أكثر هشاشةً وأشدّ عرضةً لسوء الفهم وصعوبات التفاهم، ويرجع السبب إلى كونه أخذ العلم بلغة تكاد مصطلحاتها تستقرّ ثمّ تعالج المفاهيم بمصطلحات في لغة أخرى مما يضطرّه الأمر إلى تفعيل الازدواجيّة اللّغويّة وهذا لأمرٌ مكلِّف لا يقوى عليه الفكر ولا تتضح الرؤية دائمًا بل قد يؤدّي إلى نوعٍ من الانفصام. وقد أسهمت الترجمة في معالجة هذا الموقف.

ونشهد أحياناً لدى مصطلحاتٍ دخلت في اللغة بصورة قسريّة، تصرفاً يحصل فيه كسر الحدود اللغويّة، وعلى الرغم من ذلك تلقى رواجاً إذ تكون قد حظيت بشعبيّة كبيرة كِبر الموضة التي ركبتها: ما يصبح علامةً على أزمة في تلك الهوية اللّغويّة التي لا يُصادَق كثيراً وبسرعة على شاراتِها الخاصّة، بل تشوَّه بحيث لا تتناسب فيها الحقيقة العلميّة المصطلَح عليها مع الواقِع التواصلي اللّغوي بشكله المتوقَّع. إنّ هذه الظاهِرة طبيعيّة إلى حدّ ما. ذلك أنّ ـ حسب النظريّة المعرِفيّة الاجتماعيّة (Le sociocognitivisme) ـ يوجد دائماً نوعٌ من التفاوت بين المعرفة الصرفة (الذهنيّة أو الشاريّة) وبين تمثيلها باللّغة ونقلها إلى الناس دائماً بنفس اللّغة. يرجع التفات كما تفسِّره النظريّة ذاتها إلى الانطباعات الشخصيّة والزوايا التي تتنوّع حتماً عبر الأزمنة والأمكِنة والأشخاص[73]. ويُعدّ المقترضُ المصطلحي آيةَ ذلك التصرّف (غير الطّبيعي). فبعض المصطلحيين يفسِّرون هذا الأخير بفقدان التوازن بين التوليد التأهيلي أو التوليد الترجمي مع التكريس التواصلي في لغةٍ ما. هذه الهشاشة تجعل المفهوم يعمد إلى أن يطفو مهما يكلِّف اللّغةَ المحتضِنة له ثمناً معتبراً. وتفرض هذه الهوية نفسها بوجهيْها الحسن والقبيح، في ظلِّ نقل التكنولوجية كتحدٍّ محوِج إلى

التجنيد المادي والمعنوي، ويشكِّل من جانبه الآخر رهاناً لغويّاً يضع المعرفة المنعزِلة على مشارِف التحسّس والتوعية بحيث لا تمتنِع عن التلقّي الموضوعي والانطباعي معاً.

2.4 الإيصال:

إنّ كلَّ **أداة تواصل** تملك في حالة التواصل *رسالة الإيصال* و*شفرة الإيصال*: هذه إحدى أبجديات نظريّة التواصل[74]، وكذا نظريّة الإعلام[75]. لكن هذين العنصرين يُفرِزان عناصر وظيفيّة أخرى هي مشدودة إليها. المرسِل والمرسَل إليه (الرسالة) والقواعِد الوضعيّة والقناة (الشفرة). فإذا جئنا إلى التمثيل وأدمجناه ضمن هذا المخطَّط، فالمرسل والمرسل إليه بحكم ما تفرض نمطيّة الشفرة يُفترَض إدراكُهما لنفس الوضع التواصلي. ولكن إذا تذكَّرنا أنّ المخطَّط غير تام، إذ ينقص السياق عرفنا بإضافته ضرورةً أم اختياراً أنّه لا بدّ من تواجد خطاب لساني سياقي (ظرفي). فإذا رجعنا إلى الخلف واستدعينا الجملة الصحيحة هناك وهي (افتراض إدراكهما لنفس الوضع التواصلي)، فإنّ هذا الافتراض لا يتحقّق دائماً في نفس السياق، لأنّ السياق غير ثابت (Fluctuant). لهذا يقول رومان ياكوبسون: « هو ما يطلق عليه (المرجع) وذلك في مصطلحيّة مبهمة شيئا ما »[76]. إذ أن الإبهام الذي لامسه ياكوبسون متأتٍّ من علاقة الدليل اللّغوي الإحالية والتي يوحي بها مصطلح المرجع من دون الإشارة إلى تغيّر الأوضاع والظروف والأحوال ذلك التغيّر الذي يوحي به مصطلح السياق. ولأنّه عندما يُتحكَّم في مسألة التمثيل يُصبح بالإمكان التحكّم كذلك في عمليّة الالتقاط والبَنْيَنة والمعالجة. وفي هذا الشأن يجب علينا أن نندِّد بالانسياب الذي ما انفكّ الخطاب اللِّساني العربي يقع فيه، وذلك باسم حسن

توصيل المعلومة اللِّسانية وضرورة تحسين أدوات ذلك التوصيل. ثمّ إنّ « اللّغة جسر ممتدّ بين المتحدِّثين، يتمّ التعبير عبره عن أفكارٍ شخصيّة بأصواتٍ شعبيّة. واللِّسان هو موضوع يملك بنية داخليّة منسجمة يمكن دراسته مستقلاًّ أي بمعزلٍ عن استعماله »[77]. مِن هنا وتبعاً لهذا القول، نتمثّل العناصِر الآتية مقرونة بوظائفها. فنستنتِج على إثر ذلك أنّ الإيصال يتمّ بالأول والتواصل بالآخريْن كما الآتي:

- جسر: يحمل ويُمرّ عليه فكرة الحمولة والعبور.
- أفكار شخصيّة: ويسود فيها التفاوت.
- أصوات بشريّة (شعبيّة): القناة وكذا القواعد التي يمكن توحيدها باتفاق المستعمِلين.

فهكذا يتمّ الإيصال بتدعيم من التعليل وبإيعاز مِن الخدمات والوسائط الميسَّرة له تيسيراً عفويّاً أو مقصوداً. لذا فهو يرتبِط ارتِباطاً عضويّاً بالبحوث التي تُجرى في *تكنولوجية المعلومات والاتِّصال*. فإذا كان المصطلح ذلك « اللَّفظ الذي يُسمّي مفهوماً معيَّناً داخل تخصُّص ما »[78]، وإن كان أهم الطرق الموصلة إلى العلم معرفة مصطلحات أهله[79]، فالإيصال هو ما يعطي حسّاً لغويّاً سليماً في الشفاهي وفي الكِتابي.

5. البعد المعرفي (المَوجودي):

ينطبِق فحوى *الطابع المَوجودي* (Caractère ontologique) على تلك الإمكانية المتاحة للموضوع المحَال عليه مفهوماً كان أم شيئاً ما (إحساس، كيان موجود أو متخيَّل: قابل الإحالة إليه بصورة حقيقيّة ملموسة أو عن طريق

وسائط رمزيّة)، بأن يأخذ استقلاليّته من الناحية اللغويّة بحريّة كاملة بعض الشيء بغضّ النظر عن الوعي المرفق له من حيث تواجده المعجمي. أي منفصِلاً عما رأينا في لسانيّة المصطلح، عملاً بحقيقة أنّ تاريخ المصطلح مُوازٍ لتاريخ الفكر وانطلاقاً من التعليل بكلّ أنواعه (Motivation) مروراً بالتزام السياق اللغوي وضرورة التحيين اللّغوي وصولاً إلى التفريع وفق قواعِد لغويّة دقيقة، على غرار H_2O الذي يتبوّأ فيه المفهومُ مركزاً متقدِّماً بالمقارنة مع التسمية، كما يتجلّى مباشرةً دون عبورٍ لأيّ واجِهة من واجهات اللّفظ. لهذا كانت المختَصَرات أعظم آية على التكريس المصطلحي المَوجودي المنعتِق، كما جاء عند روبير جاليسون (Robert Galisson) في مَعرض حديثه عن عوامل تصيير ما أسماه (Didactologie) علماً قائماً[80]. وهذه مشكِلة عويصة تعترِض اللّغة العربيّة في طريقها إلى مواكبة الرقيّ العلمي وتُفسِّر أدناه بشدّة التّعويل على مبدأ التّعليل اللغوي أو النسبة اللّغويّة.

1.5 المفهوم / الوحدة المفهوميّة:

لقد درست ريتا تيمرمان حدّ « المفهوم » وإمكانات تعريفِه ووصفِه، وهي تحذَر الوقوع فيما وقعت فيه *المصطلحيات التقليديّة* مِن النّظر إلى المفاهيم كلّها بنفس الكيفيّة أي بتطبيق عليها ذات المبادئ والطرائق، مِن دون اعتبار الطريف في الأمر. فاقترحت لذلك، أوّلاً: التحدّث عن (وحدة الفهم) بدل الحديث عن (المفهوم) ـ بل وحدة المعرفة[81] ـ ثانياً: أن تستبدل بالتعريفات التقليديّة مخطَّطات مانحة إمكانية وصف الجوانب الضبابيّة والمرِنة التي تنطوي عليها وحدة الفهم. فوجدت إمكانية عزل نوعين من وحدات الفهم: المفاهيم والكليات. يمكِن تعريف **مفهومٍ** ما بناءً على المبادئ التي شيّدتها المصطلحيات التقليديّة

بما أنّ المفهوم يُستوعَب ضمن بَنْيَنَة (Structuration) تفريعيّة (ب هو نوعٌ متفرِّعٌ من أ) أو بنينة انتمائية (ب ينتمي إلى أ). بينما تظلّ **الكليات** عصية عن التعريف من منظور المصطلحيات التقليدية ومبادئها[82]. وذلك لأنّ الكليات ـ وحسب ما يمكن استنتاجه من تعذّرها على تلكم المصطلحيات ـ تتطلّب وجود مرجعيات كالثقافة على سبيل المثال. **أيّ** ثقافة يجدر تعليمُها ؟ فكان الجواب أنّه إذا جاز التسليم بوجود بنى أو كيانات لفظيّة تكون من جنس العرف اللّغوي يمكن تعليمُها وتعلُّمها؛ فكذلك يجب الانسياق ولو نظرياً وراء الاعتقاد بإمكان الشيء عينه فيما يخصّ الكليات الثقافيّة. حيث أنّ الثقافة، من منظور التعليميات، هي حقل المرجعيات الذي يمكِّن العرف اللّغويّ من أن يستحيل لغةً قائمة: إنّنا هنا إزاءَ الوظيفة الرمزيّة التي تنهض بها هذه المرجعيات التي تُقيم اللّغةَ لغةَ أمّ أو لغة ثانية أو لغة أجنبيّة، وتكيِّف الوظيفة التواصليّة. ثمّ لا بدّ أن تقوم هناك ضرورة اعتبار الوظيفة الرمزيّة، حيث أنّ اللّغة لا تصلح كأداة تبليغٍ فحسب، إذ يستشعر المرء هويّته باختياره تعلّم لغة بدلَ أخرى[83]. وتشمل وحدة الفهم هذه ما يتأسّس عليه أيضاً من الأسس الثقافيّة والاجتماعيّة[84] . وهو ما سنطرقه أدناه في عنصر *التصنيف* . لأنّ المفهوم كما الثقافة يدخل في علاقات مع كلٍّ من: الفرد والمجتمع والاثنية والحضارة. فهذه مقولات تصنيفيّة لا بدّ أن يرزح تحتها المفهوم.

وما نستفيد من هذا التحوّل، وفي هذا الموضِع، هو إمكانيّة تفسير على ضوئه، الرأي الذي يرى أنّ الترجمة ليست عملاً على اللّغة والكلمات بقدر ما هي عمل على المعنى والرسالة (المحتوى)، وقد بلغ هذا الرأي درجة من النسقيّة والانسجام إلى أن صارَ له أنصارٌ، بل تشكّلت حولَه مدرسة هي مدرسة

باريس (Ecole de Paris) أو ما يسمى *نظريّة المعنى* أو *النظريّة التأويليّة*، وهي التي يُمكِن إجمالها في مقولة (فهم ما يريد المتكلِّم قوله)*. وقد صدر كثيرون عن هذه المدرسة في خصوص نظريات الترجمة ونظريّة المصطلح إذ تنظر إلى الترجمة من منظور الآليات الذهنيّة التي تُشغِّلها وتُنتجها وليس من ناحية نتائج الترجمة ذاتها[85]. وتُقاس أهميّة هذا الرأي بالنّظر إلى التفاوت الذي سيحدث عندما تجري معالجة العبارة لغوياً فنحصل على ما هو منطقي ومقبول، لكن ومع ذلك، فلا نتقدَّم في بناء المعنى، لذا فقد حرص بعض المعجميين على تفادي *التعريف الدائري* (La définition circulaire)، أو ما يمكن الإطلاق عليه *شرح الماء بالماء*، وهو الذي تترامى قيودُه في دائرة مغلقة (مفرغة) كأن يقال: « الفراولة ثمرة مِن شجرة الفراولة، وشجرة الفراولة = نبات ينتج الفراولة (Robert Méthodique) » ـ أو كما جاء انتقادُه عند هانري بيجوان (Henri Béjoint) إذ كان في صدد مناقشة بعض معايير التعريف المصطلحي المعجمي[86].

2.5 التعيين:

يتمّ تنظيم العناصِر الاجتماعيّة المتناوّلة أعلاه لكي تُفضي إلى تواجد حقلٍ ما. ويُعتبَر هذا الأخير كمَعلَمة تصنيفيّة للمَعاني[87]، ذلك أنّ هذه الأخيرة، وخلافاً للمقولة المأثورة عن الجاحظ المطبَّقة على مجال الأدب والتي تأذن باعتبار المعاني مَطروحة في الطريق بحيث يتناولها الأدباء كلٌّ وفق تجربته الخاصّة، لا بدَّ وأنها مصنَّفة إلى مقولاتٍ وحسب حقول معيّنة. وهو ما يرجع في كتابات رواد تحليل الخطاب ـ ولاسيما في نظريّة التلفّظ ـ تحت تسمية التيمات[88]. وإذا كان التحليلُ المصطلحيُّ تحليلاً يَمتحُ وحدتَه من المدوّنة

النصية المتخصِّصة، وذلك لما يتناهى إلى النُهى السليمة من عدم قيام المصطلح قياماً مستقلاً لا يتداعى فيه إلاّ ما يحتاج إلى السياق، فذلك لأمرٍ يرتبِط بأكثر من عنصرٍ إذا لم يتحقّق الاطِّراد والانسجام فيها وبينها فلا ريبَ أنّه متّصِلٌ بالناحية الدلاليّة الموجوديّة (Ontologique) التي يشترِك المصطلح في إقامة تجلياتٍ لها. فمن هنا إذا سلّمنا مرّة أخرى بأنّ تلك التجليات ـ ولاسيما إذا انجذبنا إلى المصطلح المركَّب وانطلقنا منه في تحديد خصوصيات المصطلح التركيبيّة ـ فالخاصيات اللّسانية الأخرى كالصرفية والتركيبيّة، وعلى الرغم من مكانة السياق المشار إليه ههنا، قد لا تساهِم كثيراً في تحديده تحديداً متميِّزاً؛ مع العلم أنّ مثل هذا التمييز الذي يتحرّاه بعضُ الدارسين لا يستنِد إلى أساسٍ ابستيمولوجيٍّ سليمٍ: لذا فالقيمة المعلوميّة تظلّ نقطةَ المعتبَر في حسم القيمة النوعيّة للمصطَلح. وإذا رجعنا إلى وحدة التحليل المصطلحي وهي التي قلنا سلفاً إنّها تُمتَحُ مِن المدوَّنة النصيّة، فإنّ الحديث عن معجمٍ خاصٍّ بكلِّ خطابٍ أمرٌ لا ينطوي على معنى ذي بالٍ، وقد نجد في مقابِل ذلك مبرِّراً لتمييز ذلك المعجم الذي يُرادُ به أن يكون خاصاً تمييزاً دلالياً[89]؛ ولكن إذا كان من شأن هذا التمييز أن يسلِّط الأضواء على المفاهيم التي تنقلها أنواعٌ مختلِفة من الخطابات فإنّه يلقي بظلالٍ على مستوى التسميات تجعل تلك الأضواء خافتة. وذلك أنّه يجب أن يكون عالَم تجربتِنا على درجة كبيرة مِن التبسيط والاطِّراد العام ـ أي ما يمكِن تحويلُه بالفهم إلى أبسط العناصِر (وليس البساطة) ـ قبل إرساء ثبت علامي ممكن لسائر تجاربنا للموجودات وعلاقاتها بعضها ببعض، ولابدّ من وضع هذا الثبت قبل التعبير عن أفكارنا. فمكونات اللغة أو العلامات التي هي مياسم التجربة يجب أن ترتبط بمجموعات شاملة وأصناف محددة من التجربة لا بالتجارب المفردة نفسها. ولا يتسنى تبليغ الأفكار إلاّ على هذا النحو لأن التجربة الفردية تقوم

بباطن الوعي الشخصي ويستحيل في الحقيقة تبليغها ويتطلب ذلك انتظامها ضمن أحد الأصناف المتواضع عليها في المجتمع.

خاتمة: وفي خلاصة هذا المقال نرى أنّ الهوية اللّسانيّة الاجتماعيّة لا تتضارب مع كون المقاربة اللِّسانيّة ذات المَنحى الوصفيّ المحض إنّما تعتمد مبدأ المُحَايَثة (Immanence) وتراعي كلَّ ما يوحي بأنّ النظام اللّغوي وفيٌّ لنفسِه ومنغلق على ذاته. وإن كان هذا يظلّ مشروطاً بتطويع السياق الداخلي الذي هو من نسج اللّغة لأغراض الإفادة (الإعلام والتعريف والتعليم). ولهذا كلِّه يظلّ المصطلح ذا أواصِر لغويّة اجتماعيّة لا يُجانِبها مهما يتوغّل في التقنيّة أو تتسارع الأقلام المنضبِطة إلى جرده مِن المكوِّنات الثقافيّة. وكذلك بينما كنّا نتحدّث على صعيد لسانيّة المصطلح عن الموضوع المَدلول عليه، في حال تواجد فجوة بين الدال والمدلول، حيث ينسحِب من خلالها التعليلُ أو يتم تحييده وإلغاؤه ولو مؤقّتاً؛ يصير الأمرُ في موجوديّة المصطلح إلى الموضوع (المحال عليه) وليس (المَدلول عليه). لقد كرّسنا هذا التمييز بين القيدَيْن (المحال عليه / المَدلول عليه) لفائدة الوضوح وليس لغرض التميّز. بطبيعة الحال يصعب قياس المدى بين الطابعين وبين المصطلحين، لأنّ هذين الأخيرين كانا فيما مضى يُستخدمان باعتبار كلٍّ منهما مصطلحاً بَديلاً للآخر (مرادفين أو تنوّعين لذات المفهوم).

هوامش ومراجع:

* لقد علّلت جوليا كريستيفا هذا الرّفض، كما في مقالها: اللّغة: نظريّة التّواصُل (اللّسانيات والتسمية)، ترجمة عزيز توما، كتابات معاصرة، م.8 / ع.31، بيروت، آذار ـ نيسان 1997، (ص138 ـ 140)، ص139.

[1] Béatrice Daille, Repérage et extraction de terminologie pour une approche mixte statistique et linguistique, Revue Traitement automatique des langues (TAL), n° 36, 1995, (101 – 118).

[2] G. Molinié, Sémiostylistique : l'effet de l'art, Ed. PUF, 1998, Paris, p.05.

[3] P. Lerat, Les langues spécialisées, Ed. PUF, Paris, 1995, p.15.

[4] Isabel Desmet, Terminologie, culture et société : éléments pour une théorie variationniste de la terminologie et des langues de spécialité, Revue Les Cahiers du Rifal, n° 26 (Terminologie, culture et société) Rifal, Bruxelles, Décembre 2007, (p.03-13).

[5] Daniel Gouadec, Terminologie : constitution des données, Ed. AFNOR, Paris, 1990, p.03.

[6] I. Desmet, Op. cit., p.08.

[7] Mathieu Guidère, La traduction arabe : méthodes et applications, Ed. Ellipses, Paris, 2005,

[8] سعيد بنكراد، المُصطلح السميائي: الأساس المَعرِفي والبعد التّطبيقي، ضمن قضايا المصطلح، ص157.

[9] J.-C. Sager, A practical course in terminology processing, p.13.

[10] A. Rey, Essays on terminology, Trad. J.-C. Sager, Ed. John Benjamins, Amsterdam, 1995.

* لقد صيغ مصطلح *الفولسانية* باستعمال النحت؛ يُنظَر وروده مثلاً عند: جوليا كريستيفا، اللّغة: نظريّة التّواصُل، ص139.

* وكذلك تسمية *الذّرائعيّة* كما عند: محمّد عناني، المصطلحات الأدبيّة الحديثة، القاهِرة: (د.ت)، الشركة المصريّة العالميّة للنّشر لونجمان، ص76 - 77.

[11] Françoise Armengaud, La pragmatique, 2e éd. PUF, Paris, 1990, p.62.

** يتنوّع الدّرس اللّساني الغربي في الاصطلاح على هذا المجال بتسمية (Pragmalinguistique) أو (Linguistique pragmatique).

[12] فان دايك، النَّص والسِّيَّاق: استِقصاء البحث في الخِطاب الدّلاليِّ والتَّداوليّ، ترجمة عبد القادر قنيني، بيروت: 2000، أفريقية الشرق، ص215.

[13] S. Bolton, Evaluation de la compétence communicative en langue étrangère, Trad. de l'Allemand par Yves Bertrand, CREDIF, ENS de Saint-Cloud, Ed. Hatier, Paris, Juin 1987, p.23.

[14] D. Gouadec, Terminologie et terminotique : outils, modèles et méthodes, Actes de la première université d'automne en terminologie, Rennes II, 21-26 septembre 1992, Ed. La Maison du dictionnaire, Paris, 1993. كما يمكن ذكر أهمّ إصدارٍ في مجال المصطلحيات وهو من تأليف هذا المؤلّف تحت رعاية هذه الجامِعة؛ يُنظَر: D. Gouadec, Terminologie & Phraséologie pour Traduire : le CONCORDANCIER du TRADUCTEUR (TERMINOGUIDE n°3 & TRADUGUIDE n°3), Ed. La Maison du Dictionnaire, Paris, 1997.

15 سعيد شبار، المصطلَح خيار لغوي وسِمَة حضاريّة، سلسلة كِتاب الأمّة، ع.78، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الدوحة، أكتوبر 2000، ولاسيما الفصل الأوّل (في ضرورة العِناية بالمصطلح الحامِل للمضمون تجربة الأمّة التّاريخيّة): ص37 - 72.

* لهذا يُترجم بعضُ الباحِثين مصطلح (Technologies de l'information et de la communication) المختصرة أحرفه في (TIC) بـ*تكنولوجية المعلومات والاتّصال*.

* نِسبةً إلى بيرس (Peirce).

16 Leila Messaoudi, Opacité et transparence dans les technolectes bilingues (français-arabe), Revue Meta, vol. 45, n° 3 (La traduction dans le monde arabe), Septembre 2000, (p. 424-436), p.433.

17 C.-S. Peirce, Ecrits sur le signe, Trad. Gérard Deledalle, Ed. Seuil, Paris, 1978.

18 L. Guilbert, La spécificité du terme scientifique et technique, Revue Langue française, vol.17 n°01 (Les vocabulaires techniques et scientifiques), (p.05-17), p.08.

19 M.-T. Cabré, Theories of Terminology : Their description, prescription and explanation, Terminology, v. 9 n° 2, Ed. John Benjamins, Amsterdam, 2003, (p.163-199), p.183.

20 L. Depecker, Contribution de la terminologie à la linguistique, Revue Langages, n°157, p.06.

21 Christian Baylan & Xavier Mignot, Sémantique du langage, Ed. Nathan, Paris, 1995, p.17.

22 Marie-Thérèse Gaultier & J. Masselin, L'enseignement des langues de spécialité à des étudiants étrangers, Revue Langue française, vol.17, (p.112-123).

23 M.-T. Cabré, La terminologie, 1998.

24 P. Lerat, Les langues spécialisées, p.20.

25 لويك ديبيكر، الرمز بين المدلول والتصور، ضمن المعنى في علم المصطلحات (إشراف هنري بيجوان وفيليب توارون)، ترجمة ريتا خاطر، بيروت: 2009، مركز دراسات الوحدة العربيّة، (ص137 - 190)، ص145.

26 المرجع نفسه، ص145.

27 المرجع نفسه، ص147.

* ورد هذا الاستدراك عند: Loïc Depecker, Entre signe et concept, p.18. وهو يتحدّث عن فضل اللِّسانيات على المصطلحيات.

28 J.-C. Boulanger, Le syntagme terminologique, Revue Terminogramme, n°41.

29 C. Portelance, Fondements linguistiques de la terminologie, Revue Meta, vol.36, n°1, p.66.

30 جورج مونان، مفاتيح الألسنيّة، ترجمة الطّيب البكّوش، تونس: 1981، منشورات الجديد، ص54.

31 A. Martinet, Sciences du langage et sciences humaines (Le modèle linguistique est-il le modèle fondamental des sciences humaines ?), in Structuralisme et marxisme, Ed. Union générale d'édition, Paris, 1970, (87-100), p.89.

[32] فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنيَّة العامَّة، تَرجمة مُحمد الشاوش ومُحمد عجينة بإشراف صالح القرمادي، تونس: 1985، الدَّار العربيَّة لِلكتاب، ص128.

[33] فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنيَّة العامَّة، ص186.

[34] ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللّغة، ترجمة كمال بشر، ط.2، القاهرة: (د.ت)، دار غريب، ص35.

[35] B. Malmberg, Systèmes lexicaux et systèmes conceptuels, in Les langues de spécialité : analyse linguistique et recherche pédagogique (Actes de Stage de Saint-Cloud, 23-30 novembre 1967, Aidela), p.90.

[36] Françoise Gadet, Saussure : une science de la langue, Ed. PUF, Paris, 1987, p.43.

[37] Benjamin Lee Whorf, Linguistique et anthropologie, Trad. de l'Anglais par Claude Carme, 2d éd. Denoël, 1969, p.132.

[38] F. Gadet, Op. cit., p.33-34.

[39] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنيَّة العامَّة، تَرجمة مُحمد الشاوش ومُحمد عجينة، ص109 - 110.

وكذلِك: A. Martinet ,Eléments de linguistique générale, 4éme éd. Armand Colin, Paris, 1996, p.10-11. وأيضًا: جورج مونان، اللِّسانيّات والتّرجمة، ترجمة حسين بن زروق، الجزائر: 2000، ديوان المَطبوعات الجامِعيّة، ص55.

[40] يُنظَر: أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ص72.

[41] نسيم عون، الألسنية: محاضرات في علم الدلالة، دار الفارابي، بيروت، 2005، ص158 - 159.

[42] Claude Hagège, L'Homme de paroles, Ed. Fayard, Paris, 1985, p.204.

[43] B. Potier, Théorie et analyse en linguistique, 2e éd. Hachette, Paris, 1992, p.79.

[44] B. Potier, Sémantique générale, Ed. PUF, Paris, 1992, p.70.

[45] B. Potier, Théorie et analyse en linguistique, p.79-80

[46] L. Guilbert, La spécificité du terme scientifique et technique, Langue française, vol.17, p.06.

[47] M. Diri-Kidiri, Une approche culturelle de la terminologie, Terminologies nouvelles, n° 21, p.28-29.

[48] Ibid., p.29.

[49] C. Marcellesi, Le langage des techniciens de l'informatique : quelques aspects de leur vocabulaire écrit et oral, Langue française, vol.17-n°01, (p.59-71), p.59.

[50] J. Thiele, La formation des mots en français moderne, Traduit et adapté de l'allemand par André Clas, Ed. Presses de l'Université de Montréal, 1987, p.11.

[51] F. Rastier, M. Cavazza et A. Abeille, Sémantique pour l'analyse : de la linguistique à l'informatique, Ed. Masson, Paris, 1995, p.13.

[52] صافية زفنكي، المَناهج المصطلحيّة: مشكِلاتها التّطبيقيّة ونهج معالجتها، دمشق: 2010، منشورات وزارة الثقافة، ص194.

* ذكرنا أدناه وجهاً مِن هذه الملاحظة بالذّات؛ يُنظَر الباب الخامس: 2.1.1.2 التّوليد الصّوري.

[53] P. Lerat, Op. cit., p.48. Voir aussi: G. Mounin, Les problèmes théoriques de la traduction, Ed. Gallimard, Paris, 1963, p.71-73.

54 Igor A. Mel'Čuk, Théorie de langage, théorie de traduction, Meta, vol. 23, n° 4, (p.271-302), p.294.

** يُنظَر مفهوم هذا المصطلح كما يُشرَح عربيّاً: إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي: دراسة تطبيقية (جهاد المحبين لجرجي زيدان نموذجا)، الجزائر: 1999، دار الآفاق، ص224.

55 Catherine Kerbrat-Orecchioni, La connotation, Ed. Presses universitaires de Lyon, 1977, p.13.

56 J.-R. Ladmiral, Traduire : théorèmes pour la traduction, Ed. Gallimard, Paris, 1994, p.168.

* تدلّ لفظة *دلاليّة* هنا على ما تدلّ عليه اللّفظة الفرنسيّة (Sémantisme). هذا، مع العِلم أنّ بعض الدّارسين جعلوها كمقابِل لمصطلح (Sémantique)؛ والحال إنّ المصطلح الشائع كمقابل لهذا الأخير هو *علم الدلالة*. وقد استعمل عبد الرحمن الحاج صالح *دلاليّة* كمقابِل لمصطلح (Sémantique).

57 S. Robert, Variation des représentations linguistiques : des unités à l'énoncé, in Diversités de langues et représentations cognitives, Ed. Ophyrs, Paris, 1997, (p.25-39), p.25.

58 L. Hjelmslev, Op. cit., p.77.

59 Ibid., p.71.

60 Chantal Girardin, *Trader*, aux frontières du néologisme, Terminologies nouvelles n° 14, Rint-ACCTCFB, Bruxelles, Décembre 1995, (p.31-34), p.33.

61 Jean Pruvost, Les Dictionnaires de langue française, Ed. PUF, Paris, 2002, p.66.

62 J.-C. Sager, Pour une approche fonctionnelle de la terminologie, in Le sens en terminologie, Ed. Presses Universitaires de Lyon, 2000, (p.40-60), p.53.

63 Roselyne Ringoot, Discours journalistique : analyser le discours de presse; au prisme de la ligne éditoriale, in Analyse de discours, Ed. Apogée, Rennes (France), 2004, (p.87-115), p.95.

64 M. Pergnier, Les fondements sociolinguistiques de la traduction, PUL, Lille (France), 1993, p.197.

65 محمد طبي، إمكانية التعبير بدقة بالمصطلح المعرب، مجلة اللّسان العربي، ع.41، 1996، (ص83 - 91).

66 علي القاسمي، علم اللّغة وصناعة المعجم، الرّياض: 1975، مطبوعات جامعة الرّياض، ص129.

67 F. Gaudin, La politique linguistique par le trou de la serrure ou les aventures du mot-clé, Revue Terminologies nouvelles, n° 18, Rint-AFCFB, Bruxelles, Juin 1998 (p.53-55), p.54-55.

68 عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللّسان الحديث: تحليل ونقد لأهمّ مَفاهيمه ونتائجه، ص33.

69 جيرار جهَامي، الإشكاليّة اللّغويّة في الفلسفة العربيّة: دراسة تحليليّة نقديّة، ط.1، بيروت: 1994، دار المشرق، ص13.

70 D. Maingueneau, Analyser les textes de communication, Ed. Dunod, Paris, 1998, p.27.

71 P. Bourdieu, Ce que parler veut dire, Ed. Fayard, Paris, p.97-149.

72 مطاع صفدي، استراتيجية التسمية والانبناء للمجهول والانبناء للمغيوب، الفكر العربي المعاصر، ع.69 (العقل، العقلانية والثورة النقدية)، مركز الإنماء القومي، بيروت، كانون الأوّل 1983 / كانون الثاني 1984، (ص04 - 21)، ص04.

73 Rita Temmerman, Une théorie réaliste de la terminologie : Le sociocognitivisme, Revue Terminologies nouvelles, n° 21.

74 R. Jakobson, Essais de linguistique générale : Les Fondations du langage, T.1, p.213.

75 Claude Elwood Shannon, A symbolic analysis of relay and switching circuits, Ed. MIT, 1938.

76 R. Jakobson, Op. cit., p.213.

77 Gérard Sabah, Sens et traitement automatique des langues, in Ingénierie des langues (Dir. Jean-Marie Pierrel), Ed. HERMES Science Publications, Paris, 2000, (p.77-108), p.81.

78 عبد السّلام المسدّي، مقدّمة في علم المصطلح، ضِمن قاموس اللّسانيّات، تونس: 1984، الدّار العربيّة للكتاب، ص10.

79 أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات، تحقيق الشيخ عبد الله دراز، ج.1، ط.2، بيروت: (د.ت) دار المعرفة، ص97.

80 R. Galisson & alii, D'autres voies pour la didactique des langues étrangères, CREDIF, Ed. Hatier, Paris, 1982, (introduction).

81 Manuel Célio Conceição, Concepts et dénominations : reformulations et description lexicographique d'apprentissage, Revue ELA, n°135, juillet-septembre 2004, (p.371-380), p.372.

82 R. Temmerman, Terminology, Theory and Terminography in a Natural Language Processing Environment, Revue française de linguistique appliquée, vol. III-2, Ed. De Werelt, Amsterdam, 1998, (p.29-46).

83 Jean-Pierre Cuq & Isabelle Gruca, Cours de didactique du français langues étrangère et seconde, Ed. PUG, Grenoble, 2005, p.77-88

84 William F. Mackey, Texte, contexte et culture, Revue TTR, vol.1, n°1, Janvier-juin 1988, (p.11-20).

* وقد تزعّمتها امرأتان هما دنيكا سليسكوفيتش (Danica Seleskovitch) وماريان ليدرير (Marianne Lederer)؛ يُنظَر: Florence Herbulot, La Théorie interprétative ou Théorie du sens , Revue Meta, vol. 49, n° 2, p.308.

85 Charles Soh Tatcha, Doublage cinématographique et audiovisuel : équivalence de son, équivalence de sens, Meta, vol. 54, n° 3, Septembre 2009, (p.503-519), p.507.

86 H. Béjoint, La définition en terminographie, in Aspects du vocabulaire (*Dir.* Pierre J. L., Arnaud et Philippe Thoiron), Ed. Presses Universitaires de Lyon, 1993, (p.19-26), p.20.

87 M.-C. L'Homme, La terminologie principes et techniques, Ed. Les presses de l'Université de Montréal, Québec, 2004, p.53.

88 J. Courtes, Analyse sémiotique du discours, Ed. Hachette, Paris, 1991, p.166.

89 D. Maingeneau, Genèses du discours, 2e éd. Mardaga, Bruxelles, 1984, p.86.

آليات التحويل والتفريع عند النحاة العرب الأوائل
في ضوء نظرية تشومسكي اللّغوية

أ. فازية تيقرشة

المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة–

الملخص:

يتناول هذا البحث بعض نقاط الالتقاء بين النحو العربي القديم والنظرية التحويلية التوليدية وهذا بغية الإشارة إلى القيمة العلمية للنصوص التراثية العربية وكتاب سيبويه خاصة كونه أول أثر نحوي. وآليات التحويل والتفريع من بين العمليات الذهنية التي كشفت عنها عبقرية النحاة العرب الأوائل وأكدتها في عصرنا هذا نظرية تشومسكي اللّغوية.

يتبع بعض اللسانيين العرب المحدثين* منهجية كلية في تحليل الكلام، وذلك لاعتمادهم نهج القدماء واستسقائهم من مختلف النظريات اللّسانية الحديثة، فانطلاقا من نظرية النحاة الأوائل وتوظيف أحدث النظريات اللّسانية، بما يناسب اللّغة العربية، يعملون على تحقيق نظرية لغوية عربية حديثة، هذه النظرية التي لا تسع إلى فرض المبادئ اللّسانية على اللّغة العربية بقدر ما تعمل على تحليل اللّغة كنظام كلي، وهذا ما يفرض عليهم التدقيق في الدراسات اللّغوية العربية القديمة مع مسايرة التطور اللّساني. ولا نرمي من هذا القول إلى أنّ اللّغة العربية فضفاضة يمكن أن تتقبل كل النظريات "فاللّغة العربية يمكن

دراستها ضمن إطار نظرية النحو العالمي، ولكن بشرط أن يراعي الباحث المزايا اللّغوية المحددة التي تسمُ اللّغة العربية وحدها" [1] وذلك أنّ لكل اللّغات منطلقا عاما تشترك فيها دون إلغاء للخصوصيات اللّغوية الحاملة للكيان الثقافي والحضاري والديني، وهو الجانب الحساس والجوهري الذي لا يجب خدشه ولا تجاهله في الدراسات اللّغوية** ولا نقصد أيضا أن اللّغة العربية قد ساهمت في تكوين اللّسانيات الحديثة "كاطلاع تشومسكي (Noam Chomsky) على النحو العبري الذي حرّر في القرون الوسطى بعد ظهور كتاب سيبويه"[2] لأن في ذلك دخولا في متاهة تمجيد علم على حساب علم آخر من جهة، ودواعي قيام الدراسات اللّغوية من جهة أخرى، فدواعي قيام الدراسات اللّغوية عند النحاة العرب الأوائل ليست هي نفسها التي قامت عليها الدراسات الحديثة ولا هي الآليات نفسها. فإذا كانت الدراسات اللّغوية العربية عند النحاة العرب الأوائل قد قامت من أجل دواعي دينية، والحفاظ على هذه اللّغة حماية للنص المقدس فإنّ الدراسات المعاصرة تقوم على وصف كل اللّغات للوصول إلى نظام كلي، ففي حين كان النحاة الأوائل يركزون على وصف خصوصيات اللّغة العربية، يعمل الدرس اللّساني الحديث على إلغاء خصوصيات اللّغات كلها وتجريدها لصياغتها صياغة رياضية تجريدية. وهذا لا ينفي أن تؤكد نظرية تشومسكي اللّغوية ما توصل إليه النحاة العرب الأوائل من مفاهيم لسانية وآراء لغوية، بل ليس من الغريب أن نجد في نظرية النحاة الأوائل ونظرية تشومسكي الآليات نفسها في تحليل الكلام، كما سيتجلى لنا ذلك في آليات التحويل والتفريع.

التحويل والإجراء : أحيا تشومسكي مفهوم التحويل وأدخله في النظرية اللّغوية غير أنه لم يجعله الأساس في كل شيء كما هو عند النحاة العرب

الأولين، وذلك لأن إجراء الشيء على الشيء هو عين التحويل بما أن المحول والمحول إليه متكافئان، فالتحويل (مع عكسه) من وجهة نظر المنطق (الرياضي الحديث) تكافؤ غير اندراجي وهو هذا الذي يحصل عليه بالقياس (أما الاندراج فلا يحصل به هذا التكافؤ). ثم إن التحويل عند العرب تحويلان: هذا الذي يبحث به عن تكافؤ البنى (توافق البناء عند العرب) وهو الأهم. وتحويل تفسر به الشواذ عند القياس. وهو السلسلة من التحويلات التي يتوصل بها من الأصل الذي كان ينبغي أن تكون عليه هذه الشواذ إلى الصورة المستعملة التي هي عليه أي بين صيغة مقدرة وبين الصيغ الموجودة بالفعل في الاستعمال[3]. ويقول نهاد الموسى بوجود مصطلح التحويل (Transformation) الذي يستعمل لدى النحاة العرب المُحدثين ويصدرون عن مناهج النحاة الأوائل ومصطلحهم ويستشهد بنص لسعيد الأفغاني، وأحمد الحملاوي[4] وفاته الرجوع إلى كتاب سيبويه الذي استعمل مصطلح [تحويل وحوَّل ومُحَوَّل وتَحَوُّل وتحوَّلَ] في الأصوات في مثل قوله: "وإذا كانت الهمزةُ المتحرّكة بعد ألف لم تُحذَف، لأنّك لو حذفتها ثم فعلتَ بالألف ما فعلتَ بالسواكن التي ذكرتّ لكَ لتحوّلتْ حرفاً غيرَها"[5] والكلم لقول سيبويه: "وإن سميت رجلاً بوَرقاءَ فلم تجعله بالواو والنون وكسَّرته، فعلت به ما فعلتَ بالصّلفاء إذا جمعتَ، وذلك قولك: صلافٍ، وخبراءَ وخبارٍ، وصحراءَ وصحارِ. فوَرْقاءُ تحوُّلُ اسماً كهذه الأسماء"[6]، أما في التركيب النحوي فقد استعمل سيبويه مصطلح (القلب) وذلك في قوله –على سبيل التمثيل–: "وسألت الخليل فقلت: ما منَعَهم أن يقولوا: أحقّاً إنَّك ذاهبٌ على القلب، كأَنَّك قلت: إنَّك ذاهبٌ حقاً، وإنَّك ذاهبٌ الحقَّ [وأَإنَّك منطلقٌ حقاً؟"[7] وفي موضع آخر يقول: "وتقول: ما فيها إلا زيدٌ، وما علمتُ أنَّ فيها إلاَّ زيداً. فإنْ قلبتَه فجعلتَه يَلي أنّ وما في لغة أهل الحجاز قُبح ولم يَجز، لأنَّهما ليسا بفعل فيُحتمل قلبُهما كما لم يَجز فيهما التقديمُ والتأخيرُ"[8] ويستخدم هذا

المصطلح في حديثه عن الأصوات في مثل قوله: "وأما الِّكر فإنهم كانوا يَقْلبونها في مدَّكِرٍ وشِبْهه، فقلبوها هنا، وقلبُها شاذٌّ شبيه بالغلط"[9] والكلم كما ورد في كتاب سيبويه: "إنَّما يريدُ الشائِكَ فقلب. ومثل ذلك أيْنُقٌ إنَّما هو أنْوُقٌ في الأصل، فأبدلوا الياء مكان الواو وقلبوا"[10].

والجدير بالذكر أنّ مصطلحي التحويل والقلب عند سيبويه لم يردا لفظين فارغين من الدلالة، وإنما هما حاملان لمفهوم التحويل كما ورد في النظرية التحويلية التوليدية. ومن هنا يجب قراءة النحو العربي من منظور اللسانيات الحديثة بالبحث عن المعنى أو المفهوم اللساني الحديث في كتب الأوائل وليس ترجمة المصطلح والبحث فيه في كتب الأوائل فالمصطلحات تتغير من عالم إلى آخر كما تختلف عند العالم الواحد، أما المفاهيم والمعاني فهي الغرض والغاية.

الأصل والفرع والبنية العميقة والسطحية: إذا ما نظرنا إلى الأصل والفرع من منظور مناهج الدراسات اللغوية الحديثة فقد ذهب الباحثون المحدثون إلى التقريب بين الأصل والفرع وعملية التحويل ورأوا أنها من آليات التحويل في اللغة العربية، يقول عبده الراجحي ردا على الوصفيين الذين يرون في الأصل والفرع بحثا ميتافيزيقيا لا يعتمد على مبدأ علمي سليم: "غير أن المنهج التحويلي رأى أن قضية الأصلية والفرعية قضية أساسية في فهم (البنية العميقة) وتحولها إلى (بنية السطح). وفي العربية مثلا لا نستطيع أن ننظر إلى الفعل (قال) على أن أصله (قال) وأن الفعل (باع) أصله (باع) مع وجود (يقول) و(يبيع) بل علينا أن نعرف (أصل) الألف فيهما، ولا نستطيع أيضا أن نغفل عن أن الطاء في (اصطبر) و(اضطرب) ليست طاء، وإنما أصلها (تاء)، وليس من العلم أن يقف الدرس الوصفي المحض عند حد وصف الظاهرة (كما

هي) دون أن يجد تفسيرا لها، ومن هذا التفسير البحث عن الأصل"[11]. ويفسر التحويل الظاهرة اللّغوية بردها إلى الأصل في حين أنّ التحليل الوصفي البنوي هو كشف عن وحدات التركيب، وهي عملية تصنيفية بحتة كما هو واضح في هذا الشكل:

تصنيفي

taxinomique

<table dir="rtl">
<tr><th colspan="4">ذهب محمد إلى الجامعة</th></tr>
<tr><td colspan="2">ذهب محمد</td><td colspan="2">إلى الجامعة</td></tr>
<tr><td>ذهب</td><td>محمد</td><td>إلى</td><td>الجامعة</td></tr>
</table>

أما التحويل فيسمح لنا بالوصول إلى البنية الأصلية، والتي من خلالها ننتج جملا جديدة مثل:

≠ ذهب محمد إلى الجامعة ≠

ما ≠ ذهب محمد إلى الجامعة ≠

ما ≠ ذهب محمد إلى الجامعة ≠ أمس

فننتقل من صفات البنية الأصلية إلى صفات البنية التفريعية وهي:

البساطة ≠ التركيب

الإثبات ≠ النفي

التقرير ≠ الإنشاء [أمرية، استفهامية...].

الأمر سيان في اللغة العربية ولاسيما أن التراكيب الفعلية والاسمية تجري على بنيتها العميقة عمليات تحويلية عدة. ينتج من كلتا حالتي التحويل السابقة أصل وفرع. أما الأصل الذي هو منطلق كل تحويل وهو: ما يبنى عليه ولا يُبنى هو على غيره أو ما يفرع عليه الفروع. وقد يقترب منه النحو التحويلي إلا أنه يجعل من البنية الاندراجية المنطلق للتحويلات على حين يجعل العرب الأصل المنطلق منه أبسط الوحدات وأقل ما يتكلم به مفردا والفرق كبير جدّاً، إذ أن مجموعة التحويلات هي التي تولد الوحدات نفسها بإحلالها مواضعها من البنية الجامعة، فالبناء هنا أو التفريع هو العملية التحويلية. ويمكن أن نقول على إثر ما قيل: إن الأصل هو الشيء الثابت المستمر لأنه يوجد في جميع فروعه مع زيادة، ولذلك لا علامة له بالنسبة لفروعه، فهي تحتاج إلى علامة مثل المذكر بالنسبة إلى المؤنث، والمفرد بالنسبة إلى المثنى والجمع، والمبتدأ أو الخبر بالنسبة إلى الجملة التي تحتوي على زوائد عليهما، والمضارع بالنسبة إلى الماضي وغير ذلك، وهكذا نلاحظ أن الوحدات اللغوية والبنى التي تدخل فيها "تولدها عند العرب التحويلات نفسها بل المجموعات من التحويلات هي نفسها بنى بسبب ترتيبها"[12] يتعرض المتكلم في تعبيره إلى ما هو حقيقة وإلى ما هو مجاز في اللغة [و] إدراك الاستعمال المجازي لا يتأتى إلا بالرجوع إلى السياق مع أنه لا يقوم إلا على تحوير معنى كلمة واحدة، فالسياق وحده هو الذي يمكن السامع من المقارنة والربط بين معنى الكلمة المعجمي وما طرأ عليه من تحويل، وهو عمل من دونه يبدو الكلام ضربا من العبث. وقبل أن يستعرض المؤلفون أنواع الاستعمالات المجازية يقدمون نماذج لكيفيات تصور الإنسان لمختلف المفاهيم والربط بينها حسب صور وأشكال مختلفة[13] إلا أن الدراسة النحوية لا تعتني بهذا الجانب من الدراسة، حتى إنّ البنية العميقة عند تشومسكي لا تعني المعنى المجازي وإنما تعني البنية الأصلية لتركيب نحوي،

فقد سقنا في مقام سابق أن التحويلية لا تولي أهمية بالغة للمعنى بقدر ما توليه للبنية السطحية في دراستها إلا أن التحويلات السطحية تتم اعتمادا على فهم المخاطب ووضوح السياق، متناولا إياه من خلال المنهجين التحويلي والنحوي التقليدي، فللغة بنية عميقة وشكل خارجي متمثل في أصوات ورموز تعرف بالبنية السطحية (Surface Structure) وبينها عمليات تحويلية وقوانين إجرائية (Transformation Rules) تعمل على نقل التركيب من العمق إلى السطح في إطار الصحة النحوية التي لا تختلف عما عرفه النحاة الأوائل بالتقدير، وبهذا يلتقي المنهج التحويلي التوليدي مع منهج النحاة الأوائل.

الحذف والرد إلى الأصل: هناك نواسخ المنع والرد إلى الأصل والرجوع إليه، أداة لتأصيل العبارات للوصول إلى بنيتها العميقة "فنقل الاسم من فرع إلى أصل بتَحْلِيَتِهِ بنواسخ التفريع أي نواسخ أسباب المنع، ويُدْرَكُ بِحَسَبِ طبيعة عمله، وهو الرد العكسي من فرع إلى أصل. وفرق بين تأصيل الاسم وبين رده إلى الأصل، فالردّ معاقب للتأصيل لا قائم فيه، ولا مواز له. والدليل على ذلك أن الإضافة –وهي نوع من الرد إلى الأصل– معاقبة للتنوين أو الصّرف الذي هو تأصيل وإذا حضر أحدهما غاب الآخر. وينحدر الرد إلى الأصل أو الإرجاع من قوّة أخرى أعلى منه كامنة في مقولة الاسم بالوضع، وهي قوة الاختصاص***"[14] وهو ما حرر القول فيه ابن جني وعقد له أبوابا وخصه بمصطلح "باب في مراجعة الأصل الأقرب دون الأبعد: هذا موضع قلّما وقع تفصيله. وهو معنى يجب أن ينّبه عليه ويحرَّر القول فيه"[15]. وفي الاستعمال اللّغوي يلجأ المتكلم للحذف في مقام يقتضي الاختصار والإيجاز مراعاة للسامع ومعرفته بموضوع الحديث فعملية الحذف يجب أن تراعى فيها "عدة عناصر تشكل في مجموعها حدثا كلامياً:

أولها: عناصر التركيب الذي يقع فيه الحذف والعلاقة بين العنصر المحذوف والعناصر القائمة تركيبيا ودلاليا.

ثانيها: قدرة المخاطب على إدراك العنصر المحذوف، ومغزى الحذف.

ثالثها: قصد المتكلم في الحذف.

رابعها: الموقف الكلامي (السياق/ المقام) الذي يجيز صحة التركيب الواقع فيه الحذف أو عدم صحته"[16] وهذا ما ذكره سيبويه في حديثه عن منع تقديم التمييز على عامله في نحو: امتلأت ماءً وتفَقَّأتُ شحماً أنّ الفعل "لا يتعدّى إلى مفعول، وإنما هو بمنزلة الانفعال... وإنّما أصلُه امتلأت من الماء، وتفقَّأتُ من الشحم فحُذف هذا استخفافاً..."[17] فكل من (امتلأت ماءً) و(تفقَّأت شحماً) بنيتان سطحيتان لبنيتين عميقتين هما (امتلأت من الماء) و(تفقأت من الشحم). فهناك عناصر لغوية وغير لغوية تتحكم في عملية الحذف التحويلية، ومن ذلك قول سيبويه: "الفِعْل يَجري في الأسماءِ على ثلاثة مجارٍ: فعل مُظْهَرٌ لا يَحْسُنُ إضمارُهُ، وفعل مُضْمَرٌ مستعْمَل إظهارُه، وفِعْلٌ مُضمَرٌ متروكٌ إظهارُه"[18] فالمظهر لا يحسن إظهاره عدم وجود قرينة من أحوال الخطاب تغني عن ذكر الفعل، وأما إذا افتقر إلى الأحوال المصاحبة للّفظ بالفعل تعيّن الذِّكرُ. أما المضمر المستعمل إظهاره فقد عُلِمَ من ظروف الخطاب المقصود بالحذف فجاز الحذف. أمّا ما لا يستعمل إلاّ مُضْمَراً فيرد مع الألفاظ التي تنوب عن اللفظ في قول سيبويه: "وأمَّا الموضعُ لا يستعمَل فيه الفعلُ المتروكُ إظهاره فمِن الباب الذي ذُكِر فيه إيّاك"[19] والحذف يقع في البنية السطحية، وبالمقارنة بين البنيتين السطحية والعميقة نصل إلى العناصر المحذوفة، التي يتضح بها المراد، إلا أن، هناك دواعى تضطر المتكلم إلى حذف عنصر أو أكثر من الكلام اعتمادا على قرائن لفظية، أو حالية تظهر للمتكلم والسامع. وهذا ما

اشتهر بوجود الدليل على المحذوف، وقد التفت ابن جني إلى هذا بقوله: "قد حذفت العرب الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة. وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه. وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته"[20] وقد تكون هذه القرائن لفظية أو مقامية تفهم من الظروف والملابسات المحيطة بالنص. مما يعني أن الحذف يتم في البنية السطحية إلا أن المحذوف موجود في البنية العميقة (التقدير عند النحاة العرب الأوائل)، وهنا أيضا تشابه في حذف العناصر المكررة إجباريا بين نحو الأوائل والنحو التحويلي، فكلاهما قصد الإيجاز والاختصار فعمد إلى الحذف المماثل، إلا أن هناك اختلافا بينهما.

ويبقى أن نشير إلى أن علماء العربية قد سبقوا علماء الدرس اللساني الحديث، وأصحاب المدرسة التحويلية التوليدية في دراسة ظاهرة الحذف، خاصة –وهي ظاهرة مشتركة في اللغات الإنسانية– دراسة عميقة، بل إنه "حين يميل المتكلم إلى حذف العناصر المكررة أو التي يمكن فهمها من السياق. والطريقة التي يقدمها المنهج التحويلي في تفسير ظاهرة الحذف هي التي قدمها النحو العربي"[21] فدرس النحاة الأوائل ظواهر الحذف، ووضعوا لها قواعد مبنية على إدراك الاستعمال العربي وليس على مجرد التقدير المتعسف، يقول سيبويه: "واعلم أنه ليس كل حرف يظهر بعده الفعل يحذف فيه الفعل، ولكنك تضمر بعد ما أضمرت فيه العرب من الحروف والمواضع وتظهر ما أظهروا، وتجري هذه الأشياء التي هي على ما يستخفون بمنزلة ما يحذفون من نفس الكلام ومما هو في الكلام على ما أجروا، فليس كل حرف يحذف منه شيء ويثبت فيه نحو يَكُ ويَكُنْ. ولم أبَلْ وأبَالِ... فقف على هذه الأشياء حيث وقفوا ثم قس بعد"[22]. وعن قواعد حذف المبتدأ والخبر يقول: "هذا بابٌ يكون المبتدأُ فيه مُضمَرًا ويكون المبنيُّ عليه مظهرًا. وذلك أَنك رأيت صورةَ شخصٍ فصار

آيةً لك على معرفة الشخص، فقلت: عبدُ الله ورَبِّي، كأنك قلت: ذاك عبدُ الله، أو: هذا عبدُ الله. أو سمعتَ صوتًا فعرفتَ صاحبَ الصوت فصار آيةً لك على معرفته فقلتَ: زيدٌ ورَبِّي، أو مَسِسْتَ جَسَدًا أو شَمِمْتَ رِيحاً فقلت: زيدٌ، أو المِسْكُ. أو ذُقْتَ طعاماً فقلت: العَسَلُ"[23] وكانت هذه أمثلة من كتاب سيبويه على سبيل التمثيل لا الحصر، ويكاد شرحهم المستفيض لكل ما رأوه من حذف في العربية يوحي "بشيء قريب من فكرة (البنية العميقة) عند التحويليين"[24]. فالحذف لا يكون إلا بدليل بنية معهودة "كما قال: تاللّهِ رجلاً، وسُبْحَان اللّه رجلاً، وإنما أراد: تاللّهِ ما رأيت رجلاً، ولكنه يترك الإظهار استغناءً، لأنّ المخاطَب يعلم أنّ هذا الموضع إنّما يًضمَرُ فيه هذا الفعل، لكثرة استعمالهم إيّاه"[25] أو نمط معروف أو قرينة قائمة أو معنى في السياق "وإنّما حذفوا التاء لأنّهم صار عندهم إظهارُ المؤنث يكفيهم عن ذكرهم التاء، كما كفاهم الجميعُ والاثنانِ حينَ أظهروهم عن الواو والألف"[26] لا يستقيم إلا مع تقدير الحذف انطلاقا من اعتبار يدور حول علل ما استكرهوا عليه، "وليس شيء يُضطَرّون إليه إلا وهم يُحاوِلون به وجهاً"[27]. وأمن اللبس من بين المصطلحات التي ارتبط ذكر الحذف بها، فإذا كان الأصل عند النحاة هو عدم الحذف، فإن أمن اللبس أو الإفادة أصل آخر تتفرع منه حالات حذف "المبتدأ أو الخبر وجوبا وأحيانا جوازا كما يجيزون [النحاة] حذف المستثنى منه والمفاعيل وغيرها، وهذه الحالات ليست خارجة عن الأصل بقدر ما هي فروع لأصل آخر هو (الإفادة) أو (أمن اللبس)"[28] وهنا تلتقي النظرية السياقية مع آليات الحذف والتقدير في أمن اللبس فأول ما تسعى إليه النظرية السياقية من خلال وضعها القرائن السياقية هو أمن اللبس. وهذا تحقيقاً لبنية اللغة الخطابية والإعلامية والإبلاغية، إذ تشترك اللّغات في كونها أداة تبليغ وتخاطب، وهذا ينفي أن

يكون في الكلام ما يدعو إلى لبس أو غموض وهو ما تسعى إليه جميع اللّغات تحقيقاً للفائدة، ومن هنا فأمن اللّبس مظهر من مظاهر التّخفيف في نحو العربيّة، "لأنّه يعطي للمتكلّم الحرّية في صوغ التراكيب والألفاظ، إلا إن اختل المعنى أو دلَّ الإعراب على غير مقصد الكلام دلالة لازمة لا قرينة ترفع لبسها مع التنبيه على أنّ أمن اللَّبس في النّحو العربيّ يتمثّل في المستوى الفصيح المعرب من كلام العرب الذين يستعملون اللّغة استعمالا فنيا مقصودا منه المواءمة بين المعنى والمبنى، وهو يختلف عن أمن اللَّبس في كلام العرب الذين يستعملون اللّغة استعمالا إيصالياً بغية التفاهم وبذلك يرتبط **أمن اللبس** بالموقف الكلامي، ولهذا اهتم به النحاة ووضعوا المسوغات التي تجيز كسر قاعدة الباب العامة أو توجب التّقديم والتّأخير والتّعريف والتنكير والحذف والذّكر والإضمار وغيره "ويضبط العكبريّ مسوغات حذف المبتدأ أو الخبر جوازا بأصل [أمن اللَّبس] فيقول: وإنّما يسوَّغ حذف هذا المبتدأ أو الخبر في موضع يُعلم أنّه مراد من غير لبس"[29] ويشير هنا إلى وجود فرق بين أمن اللّبس على مستوى لغة التحرير وأمن اللّبس في لغة المشافهة، وهو الأمر الذي لا أعتبره قائماً فكليهما فصيح، وهنا يظهر الجانب الاجتماعي من اللغة (اللغة كبنية خطابية أو كحدث إعلامي) وهو ما أشاروا إليه بأن قرائن الأحوال قد تغني عن اللّفظ، فقد روى السيوطي عن ابن يعيش أنه قال: "الحال صفة في المعنى ولذلك اشترط فيها ما يشترط في الصفات من الاشتقاق، فكما أنّ الصفة يعمل فيها عامل الموصوف فكذلك الحال يعمل فيها العامل في صاحب الحال، إلا أن عمله في الحال على سبيل الفضلة لأنها جارية مجرى المفعول، وعمله في الصفة على سبيل الحاجة إليها إذ كانت مبينة للموصوف فجرت مجرى حرف التعريف، وهذا أحد الفروق بين الصفة والحال، وذلك أن الصفة تفرق بين اثنين

مشتركين في اللّفظ والحال زيادة في الفائدة والخبر وإن لم يكن الاسم مشاركاً في لفظه"[30]. فدلالة الحال علّة اجتماعية واضحة في أعمال النّحويين تظهر بوضوح في كتاب سيبويه وما تلاه من مصنفات نحوية، فدلالة الحال "مؤثّر سياقي في التقعيد النحويّ يؤخذ به بعد تحقيق أمن اللبس، ولا سيّما في موقف الحوار والخبر، والاستخبار. ويلاحظ أنّ الاعتداد بدلالة الحال يقلّ مع الزمن فتحلّ قرائن اللّفظ محل قرائن الحال، فعلة حذف الخبر بعد [لولا] طول الكلام بالجواب"[31] أي أن النحاة الأوائل يعتمدون في التعليل على دلالة الحال أما النحاة المتأخرون فيعتمدون على القرائن اللّفظية في تحليل الظواهر النّحوية فالخبر المحذوف بعد لولا الامتناعية بطول الكلام بالجواب، وبذلك فهم يولون أهمية أكبر للقرائن اللّفظية.

الزيادة والتفريع: عنصر تفريع العبارات وتوليدها في النحو العربي هو الزيادة، إذ تتكون الجملة من نواة تتفرع منها تراكيب عدة بزيادة وحدات على يمين النواة ويسارها وقد عرفت هذه الزيادة عند النحاة العرب وتجسدت ووظفت بطريقة منهجية واضحة مؤسسٍ لها علميا عند التحويليين، "وذلك لكون النحويين يتقاربون في الأصول المتمثلة في البنية العميقة عند التحويليين والأصل المقدر عند النحاة التقليديين وكذلك في الفروع، فتحدثوا جميعا عن ظاهرة العامل، والأصلية والفرعية، والحذف بالإضافة إلى ظاهرة الزيادة"[32] ولا نقصد بالزيادة هنا ما ذهبت إليه نادية رمضان مما قد يصطلح عليه في الدراسات اللغوية القديمة بالصّلة والحشو واللّغو عند الكوفيين، أو الزيادة عند البصريين والتأكيد إذا خص الأمر النص القرآني، فالزيادة التي نقصدها هي تلك العملية الإجرائية التي تمكن من تفريع بنى فرعية من بنية عميقة وتقابلها

عملية التحويل عند التحويليين والتقدير عند النحاة الأوائل، وهو قانون يحتكم إليه اللّساني أو اللّغوي للوصول إلى البنية العميقة. أي أنّها عبارة عن عملية تحويل بين البنية العميقة والبنية السطحية "وهذا التقدير ليس مجرد تعليل شكلي لبنية الجملة، بل هو متأصل في المعنى نابع منه يقتضيه اعتبار بنية الجملة محلات إعرابية أي حلقات معنوية متماسكة"[33]. ويحصل الانتقال من أصل إلى فرع بإحدى أدوات تشكيل الفروع كالزيادة "وممّا يزيد في تثبيت مفهوم دخول علامات التفريع، وتمكين القول بأنّه من مظاهر نظَرِ سيبويه النحويِّ، أن الرجل يعتبر العلامات الداّخلة علامات عَرَضِية مفارقة لا لازمة، يدلُّ عليه اعتباره علامات التَّعريف غير مبْنيَّة مع الاسم بناءً لازماً لا يُفارقُه"[34]، ولكنّها تَدخل على الاسم وتخرج كما تدخل مؤَكِّدات الفعل المختصَّة به على الفعل وتخرج. وفي ذلك قول سيبويه: "ولولا أنّ الألف واللام بمنزلة قَدْ وسَوْفَ لكانتا بناءً بُنِيَ عليه الاسمُ لا يفارقه، ولكنَّهما جميعا بمنزلة هَلْ وقَدْ وسَوْفَ، تَدْخُلان للتَّعريف وتخرجان"[35]. فالزيادة علامة عارضة وتكون الزيادة قصد زيادة في المعنى فتكون مرتبطة بالمتكلم أو المخاطب أو سياق الكلام.

التقديم والتأخير وقواعد إعادة الترتيب (Réarrangement Rules):

لكل لغة من اللّغات ترتيبها الخاص بها، فهي من الخصائص الكلية المهمة في اللّغات الإنسانية، "ولكن المهم هو أن نعرف الترتيب في البنية العميقة أولا ثم نبحث عن القوانين التي تحكم تحول هذا الترتيب إلى أنماط مختلفة من الكلام الفعلي على السطح، وكل عناصر الجملة معرضة لتغيير مكانها وإن كان ذلك أكثر ما يكون في ما يسميه العرب (فضلة) كالمفاعيل والحال والظروف وغير ذلك"[36]. أما عن عناية العرب بهذه الظاهرة، فهي من خلال بحثهم في قضية التقديم والتأخير وتأثيرها في ترتيب الجملة من حيث الإعمال أو الإلغاء، ومن

حيث التغيير الدلالي، يقول سيبويه: "وتقول: ما كان فيها أحدٌ خير منك وما كان أحد مثلُك فيها، وليس أحدٌ فيها خيرٌ منك، إذا جعلتَ (فيها) مستقرًّا ولم تَجعلْه على قولك. فيها زيدٌ قائم، أجريتَ الصفة على الاسم. فإن جعلتَه على قولك: فيها زيدٌ قائم [نصبتَ]، تقول: ما كان فيها أحدٌ خيراً منك، وما كان أحدٌ خيرًا منك فيها، إلا أنك إذا أردت الإلغاء فكلّما أخرتَ الذي تلغِيه كان أحسنَ. وإذا أردت أن يكونَ مستقرًّا تكتفِي به، فكلما قدمتَه كان أحسنَ، لأنّه إذا كان عاملاً في شيء قدّمتَه كما تُقَدِّمُ أَظُنُّ وأَحْسِبُ، وإذا أَلغيت أخرتَه كما تؤخِّرهما لأنهما ليسا يعملان شيئا، والتقديمُ هَهنا والتأخير [فيما يكون ظرفًا أو يكون اسمًا في العناية والاهتمام، مثلُه فيما ذكرتُ لك في باب الفاعل والمفعول وجميعُ ما ذكرت لك من التقديم والتأخير] والإلغاء والاستقرارِ عربيٌّ جيّد كثير، فمن ذلك قوله عزّ وجلّ ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ وأهل الجَفَاء من العرب يقولون: ولم يكنْ كُفُؤًا له أَحَدٌ، كأنهم أخّروها حيث كانت غيرَ مستَقَرَّة"[37].

تعتبر الحركات الإعرابية من أدوات التوليد والتفريع في اللغة العربية، فبين البنية والحركات الإعرابية علاقة تلازمية، فعندما تكون النواة (الجملة الأصلية) خالية من الزوائد سواء على يمينها أو يسارها فإن حركات الإعراب أصلية، أما إذا دخلتها زوائد من حروف وعوامل أخرى (كأن وأخواتها/ كان وأخواتها) فإن حركات الإعراب فرعية[38] في هذه الحالة. ومن بين القواعد التحويلية في اللّغة العربية، "وأية حركة تحويلية سواء أكانت إلى يمين الفعل أم يساره هي حركة مسموح بها فقط ضمن نطاق المستوى اللساني المشجر (علاقة الإسناد)"[39] إلا أننا في حالة حصول لبس في البنية التركيبية علينا أن نستغني عن العمليات التحويلية في مثل ضرب موسى عيسى/ ضرب هذا هذا/ لأن الرتبة هي فقط التي تبين الفاعل والمفعول به أو الضارب والمضروب "ولكن لما كانت

الحركات الإعرابية غير مبنية على الكلمات، فإن الحركة التحويلية لهذه الكلمات ليست مسموحة، على الأقل لأن هناك غموضا (التباسا) يكفينا"[40] ومع ذلك يمكن أن نواصل العملية التحويلية بتقييدها ببعض الضوابط التي تستطيع أن تزيل اللّبس الدّلالي وتبينه، وذلك بتوظيف القرائن النحوية أو الدّلالية التي توضح لنا من هو الفاعل ومن هو المفعول به، مما يسمح بالأركان اللّغوية أن تنتقل بشكل حر، وهذا يعني أن التراكيب التي ليست فيها قرينة نحوية أو دلالية لا يمكننا تحريك أركانها، وذلك لأن لها رتبة ثابتة[41]. مثل قولنا: ضرب موسى الطويلُ عيسى/ وضربت هذا هذه. فالفاعل في الصيغة الأولى هو موسى لأننا أسندنا صفة (طويل) إليه وعليه ظهرت العلامة الإعرابية. وأما الصيغة الثانية فالفاعل يتمثل في هذه للقرينة النحوية المتمثلة في تاء التأنيث المتصلة بالفعل. فالتقديم والتأخير عبارة عن عمليات تحويلية.

كانت آليات التحويل والتفريع الشيء القليل الذي أحياه تشومسكي مقارنة بالزخم الكبير المكبوت في التراث اللّغوي العربي في انتظار نظريات جديدة ننبهر بها وبعدها نرجع إلى التراث اللّغوي العربي علّنا نجد ما يشفي غليلنا فيه، ثم نقول ليتنا نقبنا واكتشفنا قبل أن ننبهر ونتبع.

الهوامش:

*- أمثال عبد الرحمن الحاج صالح ونهاد الموسى.

[1]- مازن الوعر، نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللّغة العربية، ط 1. دمشق: 1987. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ص 14.

**- لأنّ هذا الجانب قد يوظف في دراسات أخرى كعلم الاجتماع، وهو مظهر من مظاهر خدمة العلوم الإنسانية فيما بينها.

[2]- عبد الرّحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية، د ط. الجزائر: 2007، موفم للنشر، ج2، ص 37.

[3]- المرجع نفسه، ص 43.

[4]- نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللّغوي الحديث، د ط. بيروت: 1980، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 60.

[5]- سيبويه، أبو بشر عَمرو بن عثمان بن قَنْبَر، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ط 2. بيروت: 1988، دار الكتب العلمية، مكتبة الخانجي، ج 3، ص 546. ينظر أيضا ج 4، ص364.

[6]- سيبويه، الكتاب، ج 3، ص 398، 399.

[7]- سيبويه، الكتاب، ج 3، ص 135.

[8]- سيبويه، الكتاب، ج 2، ص 317.

[9]- سيبويه، الكتاب، ج 4، ص 477.

[10]- سيبويه، الكتاب، ج 3، ص 466.

[11]- عبده الراجحي، النّحو العربي والدّرس الحديث بحث في المنهج، د ط. بيروت: 1986، دار النهضة العربية، ص 144. ينظر أيضا:داود عبده، أبحاث في اللغة العربية، بيروت: 1973، مكتبة لبنان، ص 9 إلى 20. وأحمد سليمان ياقوت، في علم اللغة التقابلي، الإسكندرية: 1986، دار المعرفة الجامعية، ص 13، 110. ومحمود سليمان ياقوت، العلامة في النحو العربي، الإسكندرية: 1991، دار المعرفة الجامعية، ص 15، 16.

[12]- الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية، ج 2، ص 43.

[13]- عبد القادر المهيري، نظرات في التراث اللّغوي العربي، ط1. لبنان: 1993، دار الغرب الإسلامي، ص 201.

***- يقصد هنا بقوله "الرد إلى الأصل" مثل قولنا: كتابُ زيدٍ. ويقصد بالتأصيل مثل قولنا: كتابٌ [متمكن أمكن].

14- عبد الرحمن بودرع، الأساس المعرفي للغويات العربية: بحث في بعض المقدمات الكلامية والأصولية للنّحو العربيّ في اتجاه وضع أساس إبستمولوجي للّغويات العربيّة، ط 1. المغرب: 2000، منشورات نادي الكتاب لكلية الآداب بتطوان ص 139.

15- ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط 3. القاهرة: 1987، الهيئة المصرية للكتاب، ج 2، من ص 344 إلى ص347.

16- ممدوح عبد الرحمن، من أصول التحويل في نحو العربية، د ط. الإسكندرية: 1999، دار المعرفة الجامعية، ص 146، 147.

17-سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 205.

18- سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 296.

19- سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 297.

20- ابن جني، الخصائص، ج 2، ص 362.

21- عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص 149.

22- سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 134.

23- سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 279.

24- عبد الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص 152.

25- سيبويه، الكتاب، ج 2، ص 293، 294. ينظر أيضا: ج 2، ص 162، 163.

26- سيبويه، الكتاب، ج 2، ص 38.

27- سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 32.

28- حسن خميس الملخ، نظرية الأصل والفرع في النحو العربي، ط 1. عمان: 2001، دار الشروق للنشر والتوزيع، ص 79.

29- حسن خميس الملخ، نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، ط 1. عمان: 2000، دار الشروق، ص 130، 131.

30- السيوطي عبد الرحمن جلال الدين، الأشباه والنظائر، د ط. بيروت: د ت، دار الكتب العلمية، مجل1، ص 301.

31- حسن خميس الملخ، نظرية التعليل في النحو العربي، ص 133.

[32]- نادية رمضان النجار، أبحاث نحوية ولغوية، ط 1. الإسكندرية: 2006، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ج 1، ص 153.

[33]- عبد القادر المهيري، من الكلمة إلى الجملة بحث في منهج النحاة، د ط. تونس: 1988، مؤسسات عبد الكريم عبد الله للنشر والتوزيع، ص 191.

[34]- عبد الرّحمن بودرع، الأساس المعرفي للغويات العربية، ص 148.

[35]- سيبويه، الكتاب، ج 3، ص 325.

[36]- عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص 154.

[37]- سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 55، 56.

[38]- عبد الرحمن بودرع، الأساس المعرفي للغويات العربية، ص 135.

[39]- مازن الوعر، نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية، ص 107.

[40]- المرجع نفسه، ص 111.

[41]- المرجع نفسه، ص 112، 113.

دور مراكز القياس حول واقع

اللغة العربية ومدى تأثرها باللهجات والعاميات

الدكتور فهد سالم خليل الراشد

باحث لغوي – دولة الكويت

المنظمة العربية للتربية والثقافة

والعلوم إدارة الثقافة

مقدمة

في هذه المقدمة سوف نتكلم عن العموميات قبل أن ندخل في صلب الموضوع؛ فنحن بحاجة إلى مراكز قياس ترسم لنا طريقا معبدة لمستقبل لا يقبل الشك، مستقبل واضح المعالم لا يقبل الرياء أو النفاق أو الإطراء أو التلميع أو التدليس؛ نحن بحاجة إلى مشاريع جديدة وعصرية ومفيدة، نحن بحاجة إلى بحوث ودراسات جريئة؛ إن الذي يجعلنا نحترم عمل بعض المنظمات العربية كونها لم تعتمد على الدراسات النظرية فقط ؛ إنما نزلت إلى أرض الواقع وأجرت عدة دراسات ميدانية على شرائح متنوعة المشارب؛ ومتعددة الاتجاهات من المجتمع العربي من خلال مراكز قياسها .وهنا جاز لنا أن نتدخل لنقول : إن الساحة العالمية والعربية المعاصرة تعج بالدراسات والبحوث والمقالات

العلمية وغير العلمية؛ حتى أصبحت نسخة طبق الأصل، تكرار وحشو وهذا يسرق من ذاك تحت مسمى الاقتباس أو التناص وهلم جرا .والسؤال الذي يطرح نفسه اليوم وفي عصرنا هذا : ما الجديد الذي سوف نقدمه إذا ما قمنا بأي بحث أو أجرينا أية دراسة، أو كتبنا أي مقال لإنشاء مشروع ما؟ في نظري وفي هذا الزخم الكبير من الدراسات والبحوث والمقالات لو أتى الباحث بفكرة واحدة جديدة سوف أعتبرها إنجازا نثمنه ونقدره له، ولكن هيهات هيهات ترى الجديد إلا في صفوة الصفوة ونخبة منتقاة نقبت وبحثت وسهرت الليالي بأناة حتى جاءت بما هو جديد.

أسباب نجاح أو فشل المشروع

1- اختيار المشروع : من السهل جدا أن تجد مشروعا، ومن السهل جدا القيام به وتنفيذه وإنجازه، ولكن من الصعب جدا جدا أن تختار نوعية المشروع الذي يتوافق مع الوضع الاقتصادي ويتواءم مع الحالة الاجتماعية والاستقرار الأمني. فنجاح أو فشل المشروع مرهون بمدى حاجة الناس له أو حاجة الدول له؛ لذا جاءت مراكز القياس لتكون رديفة لإنجاز أي مشروع أو موجهة له فهي التي تقوّم المشروع وهي التي تقيّم المشروع بعمل مواز مع خطوات إنجاز المشروع؛ مذ كان فكرة إلى دخوله حيز التنفيذ، ثم متابعته لقياس مدى نجاحه. إذن مراكز القياس إن جاز لنا تسميتها فهي لجنة متابعة المشروع . والمحافظة على اللغة العربية وتطويرها وتيسيرها وإحيائها مشروع ليس دولة فحسب، بل هو مشروع أمة؛ إذ لا بد من مراكز قياس في كل دولة لهذا المشروع القومي، فلا يعقل أن يترك سدى، أو بيد عقليات محدودة، وإمكانات ضئيلة، وتمويل شحيح.

2- الاهتمام بصاحب المشروع : لم يعد الآن فكرة صاحب المشروع فردا واحدا، اليوم المشروع أصبح فكرة جماعية مختصّة، وفكرة دولة بمؤسساتها، وفكرة منظمات عربية بإداراتها وإداراتها كل لا يتجزأ، ومنظومة مكملة لبعضها، فمن الخطأ بمكان قصر النشاطات والمشروعات على إدارة معينة من الإدارات أو احتكارها من قبل أشخاص معنيين؛ إذن الاهتمام بصاحب المشروع مطلب مستحق ولا بد أن تتضافر الجهود لمساندة صاحب المشروع سواء بتبادل الخبراء والمستشارين أو الأموال اللازمة، أو الأيدي العاملة .. وهكذا .

3- المدة الزمنية : نحن العرب متهمون بأننا لا نحترم الوقت أو لا نعير اهتماما للوقت حتى في مواعيدنا الشخصية (لعل من المؤلم أن تسمع شخصا إذا واعدته يقول لك وعدا إنجليزيا لأن ديننا الحنيف حرص كل الحرص على احترام الوقت والالتزام بالمواعيد)؛ فما بالك بمشاريع عملاقة خصصت لها ميزانية كبيرة .

لذا ؛ عندما أقف عند جزئية الزمن ليس اعتباطا ولا عرضا؛ بل لأنني أدرك تمام الإدراك أهمية هذه الجزئية وتأثيرها في تقدمنا وحضارتنا ورقينا – على الأقل – في ردم الفجوة الرقمية بيننا وبين الغرب المتقدم علينا بعشرات السنين في جميع المجالات .

إن عجلة الزمن تؤرق كل مفكر أو مثقف لأنه يحمل هموم أمته العربية على عاتقه، ويأمل أن يرى لها مستقبلا زاخرا في خضم المتغيرات والمستجدات العصرية؛ فهو لا يريد أن يتغنى بالماضي التليد، إنما يريد أن ينجز بالحاضر ويفخر بالمستقبل .

إذن الزمن عامل مهم جدا؛ فمن الماضي نستلهم الحاضر، ومن الحاضر نبني المستقبل، وتحديد المدة الزمنية لإنجاز مشاريعنا ينعكس إيجابا على حياتنا اليومية وتعاملاتنا مع الآخرين .

4- **البيئة** : أو المكان سمها ما شئت : المهم أن نجد بيئة خصبة وملائمة لاحتضان الدراسات والبحوث، وأعني بالبيئة الخصبة تلك البيئة التي توفر مناخا هادئا للباحث العالم بعيدا عن ملهيات الحياة ومشاغلها ومشكلاتها ، وهذا معمول في (أميركا ؛ فالباحث العالم لا ينجز معاملاته اليومية ولا يسدد فواتير الكهرباء والماء ولا يشغل نفسه بتوصيل الأولاد إلى المدارس لأن الدولة وفرت له من يقوم نيابة عنه بجميع هذه الأعمال وفرغته للبحث العلمي الذي سوف تستفيد منه الدولة بلا شك).

أما البيئة الملائمة : هي تلك البيئة التي تتوفر فيها آليات التنفيذ، والحديث عن الآليات يطول ولا مجال لبسطه ههنا ، ولكن على سبيل المثال لا أقيم مصنعا على أرض نفطية، فمدخول النفط أكثر بكثير مما يدره عليّ المصنع؛ ولكن من الممكن أن أعمل مصنعا خارج القطر وبعمالة رخيصة الأجر ومتوفرة .

5 – **اختيار الخبراء** : المصطلح يدل على أن هناك خبرة؛ والخبرة لا تتأتى إلا بعد طول تبصر وقراءة وبحث إضافة إلى الفراسة والحدس، إن صح القول فإن الخبير هو المستشار أو قل هو المستشرف (والاستشراف ليس علما قائما بذاته، بل هو مصطلح يسبق أي علم كمصطلح الاستراتيجية – مثلا – فهناك الاستراتيجية الحربية والتربوية والاقتصادية ...وهلم جرا).

لذا ؛ نرى أن المستشرف هو مصطلح يسبق كل العلوم؛ على سبيل المثال ؛ الاستشراف التربوي الاستشراف الاقتصادي الاستشراف الاجتماعي ... وهكذا .

لو أردنا أن نعرّف المستشرف؛ فمن هو المستشرف ؟! وما مؤهلاته ؟ وماذا لديه من خبرة ؛ وماذا قرأ ؟ وماذا أنجز ؟ وماذا اخترع وابتكر ؟ وماذا ألف ؟ وماذا صنع ؟ فلا يعقل أن نأتي برجل أو امرأة لم يتجاوزا الثلاثين من عمرهما ثم نطلق على كل واحد منهما مسمى خبير ! أين الخبرة في هذا العمر القصير؟ ! إذن المستشرف هو ذاك الخبير الذي أفنى معظم عمره بدقة البحث والتحري.

وللأسف – ففي يومنا هذا – اختلط الحابل بالنابل ، كما يقال ؛ فلم نعد نفرق بين الباحث المدقق والقارئ المتذوق . ولم نعد نعرف الإداري من الفني من المتخصص من المختص .

ولعل هذه الازدواجية ، أو هذه الفوضى العصرية عندنا هي سبب رئيس في عرقلة مشاريعنا؛ لأننا لا نعرف من أين نستقى المعلومة ؟ وكيف ننهل من المعرفة؟ وكيف نستفيد من الفكرة ونوظفها في إطارها الصحيح؟ ، كل من هب ودب أصبح خبيرا. وجاز له أن يستشرف للمستقبل في جميع الميادين، فإذا لم نتريث قليلا ونرجع إلى الوراء لنصلح هذا الخلل، ثم ننظم صفوفنا من جديد، ونرتب أفكارنا، ونضع الأمور في نصابها والمسميات في موضعها الصحيح، وبعد ذلك ننطلق من قاعدة واضحة وصلبة القوائم وفق ضوابط ومعايير ومقاييس دولية وعلمية بحتة كي يتسنى لنا المضي قدما في إنجاز مشاريعنا والاستفادة منها، وإلا فسوف نظل نتخبط ولن نخرج من المربع الأول ولن نتجاوز نقطة الصفر إلى الأبد .

5- ميزانية المشروع : لكل مشروع شقان؛ شق إداري ، وشق فني تقني. وميزانية المشروع تجمع الاثنين معا، فالشق الإداري معني بميزانية المشروع ككل لا يتجزأ، وهناك لجنة مراقبة تتابع إنجاز المشروع وفق الميزانية المخصصة له، وقد لا تنظر إلى جودة المشروع ومدى الاستفادة منه؛ إذ بعض المشاريع المهم فيها أن تنجز وتدون كنشاط للمنظمة أو الوزارة و الإدارة، ولكن الشق الفني التقني يحرص كل الحرص على جودة المشروع؛ لذا فهو يحرص على استقطاب أفضل الخبراء والمستشارين، وأفضل الأيدي العاملة، حتى لو كانت التكلفة كبيرة، وحتى لا نقع أسرى ميزانية ضعيفة، وتأتي مشاريعنا هشة ومهلهلة، بحجة الرخص، منذ البادية نعد ميزانية مفصلة ومجزأة على المشروع، ونعتمد على مراكز القياس في مدى الاستفادة من هذا المشروع.

دور مراكز القياس التربوية العلمية

النظر والمتابعة في :

- تشكيل لجنة استشارية من الدول العربية الأعضاء في جامعة الدول العربية والمنظمات العربية والإسلامية المتخصصة، وتضم في عضويتها مختصين في اللغة العربية لعرض أي مشروع خاص باللغة العربية عليهم ومن ثم إجازته.

- بلورة الفكرة، والإلمام بجميع زوايا المنظومة التعليمية في الوطن العربي – لا سيما –الأنساق (الوطنية والقومية والدولية) التي تربط المتعلم بذاته وهويته، من ثم الانفتاح على الآخر .

- كل خطة يجب أن تكون منسجمة مع الواقع، ويجب أن تكون واضحة المعالم، وواضحة المصطلحات، تتحلى بالأمانة العلمية لجهود الآخرين، كما

ينبغي أن تكون مرنة تربويا أكثر منها علميا، فالعملية التربوية تسبق العملية العلمية .

- تعتمد على الدراسات الميدانية، وتبتعد عن الفلسفة التعليمية، ترصد الظواهر السلبية للمنظومة التعليمية في الوطن العربي، التي نقرأ عنها يوميا في الصحف من مثل (اعتصام المعلمين نتيجة إطالة اليوم الدراسي، إضراب المعلمين عن العمل نتيجة ضعف الرواتب وقلة الحوافز وانعدام الكادر الوظيفي، ضرب المعلمات لتلاميذ الصفوف الابتدائية ...) .

واقع اللغة العربية ومدى تأثرها باللهجات والعاميات

مدخل :

تباينت الآراء حول وضع اللغة العربية في وقتنا الراهن بين متفائل ومتشائم وبينَ بينَ، ولا أظن أن هناك إجابة منصفة تشخّص الوضع الحالي للغة العربية؛ فكل الإجابات لا تعدو كونها وجهات نظر ووجهات النظر ليس من الضرورة الأخذ بها كاملة أو كليّة ولكن يجب أن تحترم وتقدّر وتوضع في الحسبان؛ فنحن لا نلزم أحدا بها، كما قلنا في بداية حديثنا بأن الآراء قد تتباين من شخص لآخر وما يراه البعض بتدني مستوى اللغة العربية في الوقت الحالي، قد لا أراه أنا؛ فأنا أرى أن اللغة العربية تعيش في أزهى عصورها، ومن يزعم أن اللغة العربية أوشكت على الاندثار؛ فهذا زعم لا صحة له على الإطلاق وهو مردود على صاحبه. وسوف أدلل على ذلك بالآتي:

أولا : نحن – ولله الحمد – لدينا أكثر من مجمع لغوي، كما أن هناك أكثر من معهد للمخطوطات ومراكز للترجمة والتعريب[1]، ناهيك عن هذا الكم الكبير من التأليف في شتى أقسام العلوم الإنسانية والعلوم العلمية، وللغويات

مكانة كبيرة في هذا الميدان، أضف إلى ذلك توفر المكتبات المركزية والوطنية وانتشار المكتبات التجارية التي تزخر بالكتب لا أقول كلها قيّمة؛ فلا شك هناك السمين وهناك الغث ولكن مجملا السمين يطغى على الغث، كما لعبت الملتقيات والندوات الدولية والوطنية دورا بارزا في تنشيط اللغة العربية بين الفينة والأخرى.

ثانيا : إن جمال اللغة العربية يكمن في توفيرها مساحة كبيرة للكاتب بإيجاد أكثر من كلمة وأكثر من تعبير وأكثر من مصطلح، ما يعني أن اللغة العربية مترادفاتها كثيرة وزواياها منفرجة؛ فهي لغة مباشرة طرية طيعة سهلة وهي لغة موحية، وليست كاللغات الأخرى التي تكاد تكون زواياها قائمة وتفتقر إلى كثير من المرونة. فسيبويهِ لم يكن سيبويهِ إلا باللغة العربية، والكسائيُّ لم يكن الكسائيَّ إلا باللغة العربية؛ فاللغة العربية ليست حكرا على العرب، بل أكثر من دافع ونافح عنها من غير العرب وأكثر من تألق وأبدع بها من غير العرب.

ثالثا : للذين يزعمون بأن اللغة العربية في طريقها إلى الاندثار ! أقول لهم كيف تندثر اللغة العربية وهي لغة القرآن الكريم؟! فهل هجرنا القرآن الكريم – لا سمح الله – حتى نهجر اللغة العربية ؟ ومن منظور الحديث الشريف (اختلاف أمتي رحمة)، نجد الاختلاف في الآراء أو الاستعمالات يتيح للغة العربية التوسع والتشعب وعدم تموقعها في ثالثة الأثافي.؛ لذا عندما نجد بعض الاختلافات في المجامع اللغوية العربية فهذا يعني أن مدّها لم ولن ينحسر أبدا .

أمثلة على ذلك :

* هناك من يرى أن لفظة (**ملحوظة**) أصح من لفظة (**ملاحظة**)، وهذا رأي صرفي في بنية الكلمة.

* هناك من أجاز استعمال لفظة (**الرئيسية**)، والأفضل استعمال لفظة (**الرئيسة**) .

* البعض يفضل استخدام لفظة (**الآتية**) على لفظة (**التالية**) .

* بعض المجامع أجازت رسم (**الشؤون**) هكذا (**الشئون**) ورسم (**المسؤول**) هكذا (**المسئول**) ورسم (**مئة**) هكذا (**مائة**) خلافا للقاعدة.

* حتى التراكيب نالها شيء من الاختلاف في كيفية الاستعمال نجد من يستخدم (**سيما**)[2] دون (**لا**)، علما بأن علماء النحو اعتبروا من يحذف (**لا**) من المولدين، وثعلب أحد علماء الطبقة الرابعة للمدرسة اللغوية الكوفية رفض حتى حذف الواو واعتبرها تركيبا واحدا (**ولاسيما**)، على أننا لا ننظر إلى هذا الاختلاف من منظور ضيق ونعتبره سلبيا؛ بل على العكس تماما ؛ فسيبويه زعيم الطبقة السادسة في المدرسة البصرية النحوية قد اختلف مع زعيم الطبقة الثانية للمدرسة الكوفية النحوية وأحد القراء السبعة للقرآن الكريم وهو الكسائي، اختلف معه في الرفع والنصب عندما قال (كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو هي أو فإذا هو إياها)[3]؛ فسيبويه يصرّ على أن النطق السليم فإذا هو هي بالرفع، والكسائي اعتنق المرونة وقال العرب ترفع وتنصب، أي أن هناك من القبائل العربية من يرفع (فإذا هو هي) وهناك من القبائل العربية من ينصب (فإذا هو إياها) وهذا الاختلاف في اللهجات من مكونات اللغة العربية الأم، ويصب بلا شك في ثرائها.

* في الجزائر وتونس وليبيا يستعملون لفظة (**غدوة**) وهي منحوتة من (**غداة**)[4] ظرف زمان منصوب، ولا أظنها مستخدمة في بعض الدول العربية، ونحن في الكويت نقول (باچر) أي باكر بقلب االكاف جيم، وفي مصر يقولون (بكرة) من الإبكار.

* في تونس وليبيا تستخدم لفظة (**توا**)[5] وهي حال منصوبة وقد لا تستخدم في بعض الأقطار العربية. نحن نقول في الكويت (تو الناس) و (توك جاي) أو (توك ياي) بقلب الجيم ياء وهي في لغة بني تميم.

* (**متربص**) يشيع استعمال لفظة متربص في العالم المغاربي للذي يلتحق بدور تدريبية، تستعمل بشكل واسع في تونس والجزائر بحكم إقامتي في الأولى وترددي على الثانية؛ فشرعت أبحث عن المعنى اللغوي لهذه الكلمة – لاسيما – أنها جاءت في القرآن بمعنيين فقد جاءت بمعنى الانتظار في قاله تعالى:" للذين يؤلون نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم"[6] وفي قوله تعالى:" والمطلقات يتربصن بأنفسهن "[7]، أي يحملن أنفسهن على الصبر والانتظار[8]، وجاءت بمعنى الانتظار مع إضمار الشر في قوله تعالى:" الذين يتربصون بكم "[9]، أي ينتظرون بكم الدوائر والفرص للانتقام[10] ،ولعل استعمالها في العالم المغاربي على المعنى الأول في القرآن الكريم، فيتربص تطلق على من يتدرب أو يتكون والمتربص أو المتكون لا شك أنه يترقب شهادة تتيح له العمل بها. ما لحظته في استعمالات علماء تلمسان الأوائل فقد جاء في كتاب البستان لابن مريم في ترجمة سيدي محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبدالرحمان القرشي التلمساني الشهير بالمقري:" .. قال لنا ما أراده، فكتبناه وجعلنا ندبر حيلة، وصار الشيخ ينظر في الهواء، فسبقنا

بفضل ذهنه، فقال: تقولون أو نقول؟ فسألناه **التربص** علينا "[11]، أي الانتظار والتمهل. وجاء في المصباح:" ربص (تربصت الأمر تربصا انتظرته، وتربصت الأمر بفلان توقعت نزوله"[12].

* ومنذ عهد قريب كنت في زيارة وديّة لمعالي الأستاذ الدكتور محمد العربي ولد خليفة رئيس المجلس الأعلى للغة العربية في الجزائر[13] وكعادتنا تجاذبنا أطراف الحديث عن اللغة العربية التي كانت دائما وأبدا محل اهتمامه فلفت نظري إلى كلمة (**بالزاف**) التي تستخدم في الجزائر وأيضا في المغرب وتعني كثيرا، وقال إنها جاءت من الكلمة العربية الفصيحة (**جزاف**)، ونحن في الكويت نقول (وايد) ولعلها مأخوذة من (واجد) وقلبت الجيم ياء وهذا القلب موجود في لغة بني تميم. وعادة كلمة جزاف تصاحب التهم؛ فنقول " لا ترم التهم جزافا " وأظن أن جزافا أي بلا دليل وما دامت بلا دليل فطبيعي جدا تكثر التهم.

* كما الاستعمالات في بعض الدول لم تقتصر على حفظ مفردات اللغة بل حفظت لنا بعض المعاني، ففي تونس نجد كلمة (**مأوى**) تطلق على موقف أو مواقف السيارات، والمأوى يختص بالكائن الحي حماية وكسوة وشربا ومأكلا، ولعل الاستعمال التونسي حفظ لنا المعنى الأول من معانيها وهو (الحماية)، فمأوى السيارات يعني حمايتها، وهذا الترتيب في المعنى أجده مناسبا ، فالإنسان يطلب الحماية أولا وقبل كل شيء لا بد من توفير الأمن والأمان، وتحضرني قراءة في كتاب البستان لابن مريم ، فقد جاء في ترجمة سيدي إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنبي المطماطي، قال: دخلت مكة وطفت بالبيت ذكر قوله تعالى " ومن دخله كان آمنا "[14]، فقلت في نفسي

تعارضت الأقوال واختلفت المذاهب في معنى الآمن فصرت أكرر وأقول آمنا آمنا آمنا مماذا؛ فسمعت هاتفا خلف ظهري يصوت آمنا من النار يا إبراهيم ثلاث مرات أو مرتين "[15].

* وفي تونس أيضا يطلقون على الشارع (**نهج**)، والنهج هو الطريقة المتبعة، وكانت تطلق على طريقة العلماء ومدارسهم الفكرية، ولعل تونس حفظت لنا أيضا معنى الإتباع في هذا الاستعمال .

* وفي مصر يقول (**إيه دا**) بمعنى: ما هذا ؟ بصيغة السؤال، و (دا) هي اسم الإشار (هذا)، ومعروف لدينا أن الهاء ليست من اسم الإشارة إنما هي حرف للتنبيه مبني على الفتح لا محل لها من الإعراب، واسم الإشار هو (ذا)، وقلبت الذال إلى دال، وفي الجزائر البعض يقول (هكدا) أي (هكذا) وفي السعودية يقولون (داحين) أي (ذا الحين)، وهذا وارد في القرآن الكريم في قوله تعالى:" وادكر بعد أمة "[16]، أي تذكر بعد فترة من الزمن، وأيضا في قوله تعالى:" فهل من مدكر"[17]، أي فهل من متعظ متذكر.

* وفي الجزائر يقولون (**هيـّا**)، ونحن في الكويت لا نستعمل (هيّا) غير أنا درسنا ذلك في الكتب المدرسية على أنها لفظة عربية فصيحة، وجاء" عن عمرو بن الشرّيد عن أبيه قال: ردِفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال: هل معك من شعر أميّة بن أبي الصلت شيء ؟ قلت: نعم. قال: هيّه؛ فأنشدته بيتا. فقال: هيّه؛ ثم أنشدته بيتا. فقال: هيّه؛ حتى أنشدته مئة بيت"[18]

وقس على ذلك الكثير وهذا ما اردده دائما وأبدا بأن اللهجات حافظت لنا على كثير من مفردات اللغة العربية إذن الاختلاف قد يثري اللغة العربية، لذا يجب أن ننظر إليه من منظور إيجابي .

رأي المختصّين

ترى الأستاذة جميلة راجا[19] أن : " اللغة لم تكن وسيلة للتفاهم والتواصل فحسب؛ بل كانت إلى جانب ذلك المعبر الصادق عن قيم الأمة العربية وحضارتها، والحافظ على تراثها وكيانها ، مما جعلها تسمو إلى أعلى المراتب وتخرج من محليتها الضيقة إلى عالمية واسعة، وبذلك لم تكن تعاني الإهمال والقصور من أبنائها ومن غير أبنائها ممن دخلوا في الإسلام وأرادوا فهم تعاليمه. وبقيت العربية الفصحى تعيش على هذه الحال لعهد طويل إلى أن وجدت نفسها اليوم أمام تحديات وعوامل جديدة تحاول طمسها والنيل منها أو بالأحرى محو أي أثر لها في حياة الناطقين بها وغيرهم ممن ينضوون تحت إمرة الإسلام. وبذلك أصبحت لغة غريبة في أوطانها ومضطهدة في ديارها، حين أخذ أهلها بديلا وهو العاميات واللغات الأجنبية كالفرنسية والإنجليزية " .

لقد ارتكز قلق الأستاذة جميلة راجا على أمرين اثنين؛ الأول : الخوف على اللغة العربية الفصحى من العاميات المتداولة – قد يلتبس على البعض فلا يفرق بين العامية واللهجة؛ فالعامية لغة فصيحة ولكنها ليست الأفصح؛ وهذا ما يجعلني أستشهد بكلام جميل للأستاذ عبد اللطيف أحمد الشويرف[20]

حيث يقول: " كل كاتب يحرص على أن يكون أسلوبه على أعلى درجة ممكنة من الحسن والبلاغة والسلاسة والجاذبية، فهو لذلك يتخير من الألفاظ أفصحها، ومن الصيغ أبلغها ومن الصور أجملها، ومن طرق الصناعة أسرعها نفاذا إلى القلوب وأقربها وصولا إلى المعقول، ولا يرضى بالحد الأدنى من الصحة والقدر المتواضع من القبول. فأنا لا أُخطّئُ – مثلا – من يقول: " أساتذة وطلبة الجامعة متعاونون"، لأن مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد أجاز هذا العبير وصحّحه، ولكني لا أستعمله، ولا أنصح باستعماله، و لا أعدل عن التركيب الفصيح وهو أن يقال: " أساتذة الجامعة وطلابها متعاونون ". و لا أُخطئُ من يقول " كلا الرجليْن مدرسان "، لأن علماء النحو الثقات قالوا بجواز ذلك، ولكني لا أحيد عن الوجه الأفصح و الأكثر، وهو أن يقال: " كلا الرجليْن مدرسٌ ". ولا أُخطّئُ " الغير " بالألف واللام بعد أن أجازها مجمع اللغة العربية بالقاهرة ومنحها شهادة الصحة، ولكن في نفسي منها شيئا يصدني عنها، فأنا لا أطيق ولا يطاوعني قلمي على رسمها. ولا أُخطئُ من يقول: " هذا الثوب أبيض من ذاك " حيث أجاز هذا التعبير مجمع القاهرة اللغوي مستندا إلى رأي الكوفيين، ولكني لا أتجاوز الأسلوب الأفصح والأشهر وهو أن يقال: " هذا الثوب أحسن بياضا من ذاك ". وهكذا يكون شأننا في التعبير والكتابة كشأن الطالب النجيب المجتهد: لا يكتفي في النجاح بدرجة " مقبول "، وتتطلع همّته إلى أن يكون نجاحه بدرجة " ممتاز " أو " جيد جدا "، أما اللهجة فتلك الكلمات المنحوتة، وتلك الجملة المطعمة بلغات أخرى غير عربية، ولكنها مع الوقت عربت، وبعضها أسند إلى الضمائر العربية – ومن ناحية أخرى لعلنا لا نوافق الأستاذة جميلة راجا في التركيز على اللغة القديمة، فنحن لا نريد أن نخاطب الطالب بلغة خشبية قديمة تعلو إدراك الطالب.

أما الأمر الآخر الذي انتاب الأستاذة جميلة بالقلق هو الخوف على اللغة العربية من استخدام اللغة الإنجليزية باعتبارها من أولى اللغات الحية لا سيما في المشرق العربي، واللغة الفرنسية باعتبارها سائدة في المغرب العربي الكبير، أما الحديث عن تأثر العربية الفصحى بالعاميات فسوف يأتي الحديث عنه، ولكن دعونا نسمع رأي **الدكتور علي فهمي خشيم**[21] حول مدى تأثر اللغة العربية باللغات الأجنبية حيث يقول : " شخصيا أرى أن اللغة العربية اليوم أفضل من أوائل القرن 19 ، فمثلا المجتمع التونسي كان يتكلم 80 % منه الفرنسية وفي ليبيا كانت كل جملة تحمل كلمة إيطالية لكن اليوم الأمور تغيرت واللغة العربية بدأت تستعيد مجدها وسلطتها؛ فالصورة التي تعطى على العربية غير صحيحة. وإن تحدثنا اليوم على غزو اللغة الإنجليزية فهذا الأمر طبيعي جدا فمن قبل طغت الإيطالية وإن عدنا إلى الوراء نجد طغيان اليونانية ثم جاءت العربية وهي اللغة السائدة واللغة هنا تتبع قوة أهلها. أنا أقول إن اللغة العربية بخير، وما يهمنا ليست الندوات وإنما لغة الناس.. التلفزة والإذاعة والصحافة والشارع واللافتات كلها مجالات لا بد أن نركز عليها " .

هذا رأي الدكتور علي فهمي خشيم لعله كان متفائلا كثيرا وأنا معه في هذا التفاؤل، ولكن لا يعني هذا أن نركن على هذا التفاؤل ونترك اللغات تغزو لغتنا متذرعين بقوتها ومجدها التليد؛ إذ لا بد أن نتعامل مع الواقع بموضوعية، وقد وجدت هذه الموضوعية عند **الدكتور صالح بلعيد**[22] حيث يقول : " يجب أن ندرك بأن أمام اللغة العربية تحديات وصراعات قاسية تقتضي منها قبول بعض التعديل؛ فلا مناص من مدارسنا ومجامعنا من مجارة الوضع العولمي المعاصر؛ فكل يوضع أمام مسؤوليته للقيام بالدور المنوط به، للوصول إلى بناء أو تطوير لغة عربية فصيحة ومعاصرة للتعليم والتواصل الإعلامي

والثقافي المنطوق، تهم في تطوير الفكر في حاضره دون أن تفصله عن ماضيه وتراثه".

لذا ينبغي الاعتماد على اللغة الوسيطة سريعة الفهم، وذلك من خلال تناول نصوص ومقالات حديثة واستخدام طريقة تدريس تتواءم وظروف المنطقة التي تشكل خشبة مسرح سياسي واقتصادي ؛ فنحن بحاجة إلى طالب متكلم مبدع، يفهم ما يحفظ ، لا نريده يردد ما يقوله الأستاذ ويلقنه في الفصل .

ولم يبتعد كثيرا **الدكتور محمود السيد**[23] عن ذلك حيث يقول : " للغة العربية أبعاد متعددة فهي ذات بعد ديني لأنها لغة القرآن الكريم وبعد قومي لأنها الموحدة بين أبناء الأمة، وبعد حضاري لإسهامها في بناء الحضارات، وبعد أبداعي إذ أن أبناء اللغة يبدعون بها ويتمثلون المعارف ويدركونها أكثر ما يتمثلون المعارف باللغات الأخرى ... لكن اليوم هذه اللغة أصبحت في مواجهة مع عصر العولمة . إذ أن لغة الأقوياء تهيمن على نطاق الساحة الدولية وهي اللغة الإنجليزية التي تروم محو الذاتيات الثقافية للشعوب والمجتمعات الأمر الذي يؤدي إلى طمس الهويات، إذ لا هوية دون لغة. ومن هنا كان لزاما علينا أن نبحث عن الأسباب المؤدية إلى تدني مستوى اللغة العربية في العملية التعليمية ووضع خطة لمعالجة هذه التحديات ".

في رأي الشخصي المعالجة تكون بالاعتماد على دراسات تربوية حديثة ومعاصرة تتجه نحو الاعتماد بل والتركيز على الكيف، وإعمال عقل الطالب، وانتقاء موضوعات حيوية تفعل دور الطالب في الصف، وتبتعد كل البعد عن الكم، وتكديس المواد والموضوعات على الطالب. كي يتسنى للطالب الإبداع والابتكار ، وأيضا لإتاحة الفرصة أمام المعلم لمزيد من البذل والعطاء في

عـرض مادتـه الدراسـية، وطـرح أفكـاره التربويـة. آن الأوان أن نـتخلص مـن البحـوث والدراسـات النظريـة التـي لا تغنـي ولا تسـمن مـن جـوع، آن الأوان أن نبتعد عن (القص واللصق)، والاقتباس من الإنترنت، آن الأوان أن نتخلص من التكرار والدراسات القديمة العديمة الفائدة.

أما بالنسبة إلى العملية التعليمية التي أشار إليها الدكتور محمود السيد، فالحديث عن العملية التعليمية يطول ويطول، وسوف يجرنا إلى آليات وتقنيات ووسائل والأهم من هذا كله هو " محور العملية التعليمية " ألا وهو (المعلم)[24] وقبل أن نتناول دور المعلم ، لنسمع رأي **الدكتور عز الدين البوشيخي**[25] في العملية التعليمية حيث يقول : " سنقف عند مظاهر تعليم اللغة العربية في مرحلة التعليم الابتدائي ومرحلة الثانوي ومرحلة التعليم الجامعي؛ لنبين مدى الحاجة إلى ضرورة استثمار اللسانيات في مجال تعليم اللغة العربية خاصة. فـي مرحلـة التعلـيم الابتـدائي يلاحـظ أن الطفـل يعلـم اللغـة العربيـة دون أن تخصص لها الوسائل التعليمية ولا المناهج والتقنيات التي يتم تخصصها لتعليم اللغة الفرنسية بوصفها اللغة الأجنبية الأولى، واللغة الإنجليزية بوصفها اللغة الأجنبية الثانية في المغرب ".

وبعد أن استعرض عدة نماذج رصدها من الميدان خلص بالآتي : " إن الطفل المغربي – كأي طفل عربي – لا يستفيد من أي معجم لغوي عربي[26] يناسب سنه ويتوافق مع حاجاته اللغوية مبني بطريقة تراعى فيها مستجدات البحث المعجمي، مثلما عليه الأمر في معاجم اللغة الفرنسية ومعاجم اللغة الإنجليزية، ففي الوقت الذي لا يسمع اللغة العربية الفصحى من أبويه وأقاربه، ولا يتواصل بها في محيطه، ولا يستفيد في تعلمها من مناهج وتقنيات حديثة، ولا توفر له معاجم تستجيب لمتطلبات مرحلته اللغوية، نجد الدواج واللهجات

تحيط به من كل جانب، وتقرب إليه اللغات الأجنبية بأحدث الوسائل والمناهج، ولا يمكن أن ينجم عن وضع كهذا إلا ضعف في تعلم اللغة العربية يبدأ منذ المراحل الأولى ". وهنا ينبغي الاطلاع على آخر المستجدات التربوية والاستفادة من تجارب الآخرين في بعض الدول فالعملية التربوية التعليمية لا تقتصر على تجربة الدولة، بل تجربة المختصين في المجال التربوي) .

وفي هذا الصدد يقول **الدكتور محمود كامل الناقة**[27] : " نحن اليوم نعيش في عشوائية لغوية بالرغم من توفر آلاف البحوث والدراسات العلمية التي أنتجت طرقا حديثة ومناهج جديدة في التدريس. للغة العربية جمالها وجلالتها لكن كيف يمكن أن ننفذ النتائج التي تصل إليها الدراسات من طرق ومناهج تدريس حديثة؛ بحيث يدخل المعلم فصله ولديه منظومة وليس لكل معلم منظومة خاصة به . والإرادة هنا تكمن في البشر فإذا ما أردنا أن نعيد للغتنا كيانها فالحلول متوفرة إذ ينبغي علينا أن نوظف ما نعرفه ونطبق ما هو موجود في بطون الندوات والدراسات دون ذلك سوف نبقى نردد هذا الكلام . فلا بد من إعداد معلم اللغة العربية إعدادا جيدا والقرار هنا هو قرار سياسي ، بالعصا والسكين يجب أن تعلموا لغتكم ...لا تنقصكم المعرفة وإنما القرار السياسي[28]".

إذن يجب الاعتناء بقطاع البحوث التربوية والمناهج؛ فهذا القطاع يحتاج إلى باحث أكاديمي وليس أي باحث، إنما باحث مخضرم وله عدة دراسات معاصرة وبحوث ليست مصنوعة بأيدي الغير، التي استشرت في الميادين التربوية والأكاديمية من أجل ترقية علمية ، إنما بحوث ذات شقين ، شقها الأول ميداني تجريبي ، وشقها الآخر نظري استنتاجي، كما أن تطوير المناهج ليس قائما على حذف موضوعات واستبدالها بموضوعات أخرى بذات الطريقة

المملة وذات الحشو والنقل من كتب التراث وذات المؤلفين المأجورين للتكسب والمنفعة الشخصية من خارج أسوار وزارة التربية. إذن لابد من استقطاب الباحثين والمفكرين المبدعين، واحتضان دراساتهم والاهتمام ببحوثهم، والإسهام في إبراز إبداعاتهم .

كما أن الأمر المهم الذي أشار إليه الدكتور محمود الناقة ، هو إعداد معلم اللغة العربية فلنسمع رأي **الدكتور أمين بدر علي الكخن**[29] حيث يقول: " كثير من المدارس[30] العربية تعتمد النظرية السلوكية في التدريس ومن مرتكزات هذه النظرية أن المعلم هو محور العملية التعليمية ومصدر المعرفة وأن الطالب متلق للمعرفة، فهذه المدارس تستخدم الوسائل والأساليب القديمة في التدريس. ومن أسباب ضعف مناهج التعليم في بعض المدارس أيضا النقص في كفاءات معلمي اللغة العربية غير المتمكنين من تخصصهم وضعف مؤهلاتهم التربوية وفقدانهم للمهارات التكنولوجية ، واعتماد هذه المدارس على اختبارات التحصيل (القلم والورقة) أي التركيز على تحصيل المعرفة والمناهج غير أننا في الأردن نحاول اليوم أن نوجه التعليم نحو الاقتصاد المعرفي وعلى استخدام استراتيجيات الوصف الذهني والاستقصاء " .

اعتبر الدكتور علي الكخن أن المعلم هو محور العملية التربوية، ونحن نتفق معه جملة وتفصيلا، وأشار إلى أمرين أيضا ؛ الأول : توجيه التعليم نحو الاقتصاد المعرفي واستخدام استراتيجيات الوصف الذهني والاستقصاء ، ولعل المهم في هذين الأمرين هو الأول وهو توجيه التعليم نحو الاقتصاد المعرفي من خلال الاعتماد على التكنولوجيا الحديثة والوصول إلى المعلومة بأسرع الطرق وبأسهل الوسائل.

مراعاة وضع المجتمعات العربية فقد ركبت صهوة الحضارة، وانصهرت في بوتقة المدنية بسرعة متناهية انعكست على لغته اليومية؛ فأصبحت لغة ذات إيقاع سريع (وهذا ما يختلط على بعض المعلمين ؛ فيعتقدون أن الطالب متقاعس عن واجباته الدراسية وثقيل الفهم، علما بأن الطالب اليوم قد اقتحم مجال الإنترنت والأجهزة النقالة الحديثة والكمبيوتر وبرامجه المتجددة يوميا؛ فأصبح سريع الفهم قد يجد في طرح المعلم لمادته الروتينية شيئا من الملل؛ فلا يستطيع هضمها .

وتحمّل **الأستاذة جميلة راجا** معلم اللغة العربية تبعات العملية التعليمية ومخرجاتها حيث تقول : " المدرس الذي يتهاون في حق اللغة التي يعلمها سيؤثر تأثيرا جسيما في إفقاد تلك اللغة قيمتها العلمية لدى المتعلمين؛ وبالتالي تصبح العامية هي أداة تعبيرهم وتواصلهم مع الغير، وهنا يصلح ذكر المثل المشهور " العلم في الصغر كالنقش في الحجر " ؛ فبعد أن يتعلم التلميذ اللهجة العامية في صغره ويتعود على سماعها والتحدث بها؛ فلا داعي للبحث عن سبل تعليمية العربية الفصحى، لأنه " إذا كانت العامية تأخذ على المدرس وعلى الطالب منافذ الطريق ويكون الحوار والكلام بها ؛ فإن من غير الممكن أن تولد معجزة تجعل هؤلاء الأطفال بعد إكمال التعليم العام أو حتى بعد التخرج من الجامعة ومن أقسام اللغة العربية يقلعون عما عهدوه في كل سنين دراستهم وتلقوه في مناهج تعليمهم " ؛ فالطالب عند تخرجه تجده عاجزا عجزا كبيرا عن كتابة خطاب بسيط بلغة عربية فصيحة وسليمة. وأضف إلى أنه من المؤلم حقا أن ترى بعض الأساتذة في بعض الأقسام الجامعية – والمعاهد المتخصصة لا يخاطبون طلبتهم ولا يناقشون الرسائل العلمية إلا بالعامية وهذا لا محالة سيؤثر تأثيرا كبيرا في إضعاف المستوى اللغوي للطلبة " .

والأستاذ فارس طباش[31] يشير إلى النشأة والبيئة التي تؤثر في الفرد منذ ولادته ؛ فيقول : " إن كل من العامية والفصحى توظف في مجالات مختلفة إذ يجد الفرد بأنه يتعامل منذ ولادته مع عامية تتميز ككل العاميات العربية باختلافاتها اللهجية الكثيرة حيث نجد (لهجة الشرق – بهجة الجنوب – لهجة الشمال ..) وهي التي يتعامل بها الفرد في بيته وداخل المنزل والشارع في البداية، قبل بلوغ سن التمدرس. وذلك لمدة ست سنوات لدى الغالبية ، فعند دخوله المدرسة يتعامل مع مستوى آخر يتمثل في الفصحى التي توظف كلغة أساسية في الأطوار الأساسية تستبدل في الجامعات بلغات أخرى سيما في بعض التخصصات ".

نستنتج مما فات أن العملية التعليمية للغة العربية تعتمد على عدة أمور منها :

1- **الفهم الشامل :** تفعيل الصف وجدانيا، بحيث يشكل المعلم مجموعات متعددة صغيرة؛ وعلى رأس كل مجموعة من الطلاب الضعاف أحد الطلاب الفائقين يقودها ويبث فيها روح الحماسة والمناقشة، وعلى المعلم أن يقوم بتغيير وضع مقاعد الجلوس من باب كسر التقليد؛ كي لا يشعر الطالب بالملل .

2- **الثروة اللغوية :** هذه الحصة يجب أن تعطى في مكتبة المدرسة، ليطلع الطالب على المعاجم العربية؛ وتبدأ المجموعات باستخراج معاني المفردات وتوظيفها في جمل مفيدة، ويطلع عليها معلم المادة ليفاضل بينها من حيث السبك والصياغة وسياقها في الجملة.

3- **التـذوق الفنـي** : لا يمكـن إذكـاء هـذا الجانـب الحسـاس جـدا لـدى الطالب ما لم يقرأ القصص الأدبية؛ لذا أوصي بقصة ملازمة لكل مرحلة تقرر على الطلاب بمتابعة معلم المادة .

4- **السـلامة اللغويـة** : وهي من الأمور التي نعاني منها بسبب طريقة تدريسها التقليدية التي تعتمد على القواعد الجافة؛ لذا أرى أن نعتمد على " نحو النص " أو ما يسمى بـ " النحو الوظيفي " من خلال تفعيل النص المتناول لدى قراءة الطالب له، ومعالجة بعض القضايا النحوية والصرفية.

5- **الوقفـة العلاجيـة** : طريقة صائبة جدا إذا أجيد تناولها؛ لذا أرى أن يكون هناك نص يختاره المعلم ويوزعه على الطلاب من بداية الدراسة، ويبدأ في كل الحصة معالجة هذا النص بالتدرج، وبمتابعة الطلاب، على ألا يزيد وقت المعالجة أكثر من عشر دقائق، وتقوم المعالجة على طريقة الإعراب الحرفي الدقيق لجميع الطلبة، وعلى المعلم أن يترك للطالب استنباط القاعدة بإعمال عقله وتفكيره.

6- **التلخـيص** : من المهارات المفيدة، أرى إن كان الموضوع المتناول موضعا نثريا؛ فيجب تكليف الطلاب بتلخيصه، وإن كان نصا شعريا؛ فيجب على الطلاب نثره أدبيا.

7- **التعبيـر** : وهو من المهارات الكتابية التي تحتاجها المنطقة العربية بحكم الظروف المحيطة بها، وهذه المهارات تحتاج إلى طالب يقرأ ويطلع، ويكوّن ثروة لغوية تسعفه وقت الكتابة؛ لذا أرى أن يقوم المعلم بتخصيص كراس صغير خاص للتعبير، يحاور فيه الطالب على طريقة المساجلة الكلامية في نقد الموضوع المتناول، كما أتمنى أن نبتعد عن الموضوعات المستهلكة، وألا نستخف بعقول طلابنا، بل يجب أن تحترم هذه العقول من خلال الطرح

المناسب، إذن يجب على المعلم أن يختار للطالب موضوعات تتوافق مع الوضع المعاش .

8- **المكتبة المدرسية** : لا بد من تفعيل دور المكتبة المدرسية، فهي عصب الحياة العلمية، والتفعيل يكون بإقامة حلقات نقاشية لأحد الدروس المقررة، والتجانس بين الأقسام العلمية في هذه الدروس، كما أن المكتبة هي النواة الحقيقية للطلاب الفائقين، فمن خلالها يتم إنشاء مجلات علمية ونشرات أدبية لتنمية مهارات الطلاب.

أما الأستاذ أحمد الحسين حسن[32] فيقول : " اللغة العربية تتأثر بما يجري في المجتمع من تطورات اقتصادية واجتماعية وهو ما ساهم بشكل كبير في تراجع مستوى التعليم في الآونة الأخيرة حتى أن القيمة المهنية التي كانت تحظى بها من قبل تراجعت؛ وهذا الأمر انسحب على الطالب الذي أصبح ينفر من التوجه إلى دراسة اللغة العربية؛ إلا إذا ما أوصدت الأبواب في وجهه فالطالب المتفوق لا يدرس اللغة العربية وللأسف هذا ما فرضه سوق الشغل اليوم؛ فالإدارة العربية اليوم أصبحت تشترط اللغة الإنجليزية من أجل فتح أبواب الشغل، علينا أن نتوقف عند هذه الأخطار المحدقة بلغتنا ونجد لها حلا خاصة وأن العربية اليوم أصبحت تعاني من الازدواجية، كذلك مشكلة النطق واللفظ ويعود ذلك إلى عدم تلقيه تعليما جيدا؛ فلا بد من توفير قواميس نطق لفظي. إلا أن هذه المشكلات التي تعاني منها اللغة العربية لن تحطّ من قيمتها فهي لغة البيان والحضارة وأنا ضد من يدعي عجزها .

نستطيع أن نستنتج من هذا الحديث الأمور الآتية :

1- إفساح المجال للدماء الشابة، كي تتمّم ما انتهى إليه الآخرون (بعض التربويين ليس لديهم شيء – ولو كان يسيرا – ليقدموه للتعليم، لقد أضحت قدراتهم وإمكاناتهم ضحلة – إن لم تكن معدومة – ولا تتواءم مع ما نحن عليه من تقدم حضاري سريع، ولا توفي سوق العمل وفقا للمدنية التي نعيشها، فهذه سنة الكون لا مجال للمكابرة؛ فلم يعد للخبرة معنى في خضم المتغيرات اليومية، كما أن الأنظمة التربوية التي يتشبث بها هؤلاء أبيدت منذ زمن، ولم تعد مجدية اليوم) .

2- احتواء كل سنة صفوة الصفوة من الفائقين في جميع المدارس العربية يقدمونهم للمنظمات العربية المتخصصة للاعتناء بهم وتعليمهم في أرقى الدول بالتخصصات النادرة ليصبحوا بعد ذلك علماء هذه الأمة .

3- منح الإجازة السنوية؛ بما أن التعليم عملية شاقة ينهك فيها المعلم وتسلبه صحته يجب أن يعطى إجازة آخر السنة مجزية لمدة ثلاثة شهور تبدأ من 1 / 6 وتنتهي 13 / 8 ، لتجديد نشاطه وتحفيزه وترغيبه في المهنة .

4- عدم تضييق الخناق على من يتقدم لهذه المهنة ، لذا يجب اتخاذ العقلانية والعدالة والبعد عن الأهواء الشخصية والتوصيات الرخيصة لإقصاء المعلم حسب إيدلوجيات ومذاهب وتيارات ، أو بحسب طبقية وفئوية .

5- احترام آدمية الطالب (ظاهرة حمل العصا التي استشرت في المدارس وأصبح منظرها مقززا بيد المعلم وهو يركض وراء الطلاب هنا وهناك؛ دونما احترام لآدمية الطالب، الابتعاد عن الألفاظ البذيئة والجارحة للسمع والحياء التي لا يسمعها الطالب إلا في المدرسة وعلى لسان بعض المعلمين

الذين نتوسم بهم خير معلم ومؤدب، الابتعاد عن لهجة الوعيد والتهديد وكأننا أسرى نظام قمعي) .

6- النأي بالمؤسسة التربوي (المدرسة) عن الوصاية الحزبية التي يمارسها بعض مدراء المدارس؛ فأكثر المدارس مسيّسة ومجيرة حزبيا وطائفيا من مدراء المدارس ليزجوا بالطالب في متاهات الانتخابات الجامعية وهو مسلوب الإرادة .

7- الابتعاد عن الطرق التقليدية في التعليم؛ فهناك من المعلمين يقوم بحشو السبورة مرتين وثلاث مرات في الحصة الواحدة دونما أن يشرح كلمة واحدة، أو يفعل الصف بالمشاركة الوجدانية.

8- يجب على المعلم أن يثقف نفسه، لأنه أمام طالب مطلع، وإن لم يكن متعلما، كما يجب ترك مساحة من الحرية وإبداء الرأي للطالب وعدم الاستخفاف بمعلوماته أو تفكيره.

تأثير لغة الصحافة والإعلام على اللغة العربية الفصحى

نبدأ مع **الأستاذة نصيرة زيد المال**[33] حيث تقول : " لقد اعتبر الباحثون في العصر الحديث أن لغة الصحافة ساهمت بشكل كبير في تطوير اللغة العربية والارتقاء بها للتعبير عن الأغراض اليومية والحضارية للإنسان العربي؛ بل استطاعت أن تتخطى حواجز الزمان والمكان التي وضعها فقهاء العربية القدامى، وذلك بوضع العديد من المفردات والمصطلحات " .

ويثني على هذا الكلام **الدكتور صالح بلعيد** قائلا : " لغة الصحافة في عمومها هي فصحى العوام والدهماء من الناس؛ وهي في زماننا أقرب إلى لغة

التخاطب، لغة المجتمع والاتصال اليومي .. ويُعرف عن لغة الصحافة أن لها خرجات عن المألوف يعني خرجات عن الفروع، وليس عن الأصول؛ فلا يعني أن الصحافة تهدم ما تبنيه المدرسة بقدر ما هي تتسامح في بعض الفروع وهي في الحقيقة تنشد المستوى الفصيح " [34] .

هذا فيما يخص لغة الصحافة ومدى تأثيرها على العربية الفصحى، أما فيما يخص لغة الإعلام ومدى تأثيرها على العربية الفصحى؛ فترى **الأستاذة نصيرة زيد المال** أن التطور الحضاري " أدى إلى ظهور لغة من نوع جديد غير اللغة الأدبية بمستواها التذوقي الجمالي، وغير لغة العلم، فوقع تداخل بين اللغتين الفصيحة والعامية، تولدت عنه لغة ثالثة هجينة .. التي صارت لغة الإعلام المعتمدة : وهي منزلة بين المنزلتين؛ فلا هي اللغة الفصيحة في قواعدها ومقاييسها وأبنيتها وأصولها، ولا هي لغة عامية لا تلتزم قيودا ولا تخضع لقياس ولا تسري عليها أحكام "[35]

وتحمل **الأستاذة جميلة راجا** الإعلام تدهور اللغة العربية قائلة : " وعلى هذا تكون الوسائل الإعلامية قد تحملت قسطا كبيرا في تدهور وضع العربية الفصحى؛ فهي بصفة عامة " لم تعمل على التطور اللغوي المفيد لما لها من تأثير على الجمهور، فراحت تدعو أو توظف العاميات بلا خجل، وفتحت المجال أمام الحصص الترفيهية؛ فهل تساءلنا عن نسبة المسلسلات العامية من الفصيحة، ونسبة الحصص الثقافية المـذاعة بالفصحى ، ونسبة الحديث بالدراجة عن الحديث بالفصحى في الأخبار واللقاءات العلمية والحصص الترفيهية"؛ فالأمر الواضح هنا هو أن العامية تحتل المكانة الأولى عند تقديم البرامج سواء في الإذاعة أم في التلفاز ، وتستأثر بأطول الأوقات " [36]

الخاتمة

طرق علاج للمحافظة على اللغة العربية الفصحى لدى المختصين

نبدأ **بالدكتور علي فهمي خشيم** حيث يقول : " إذا أردنا فعلا أن نحافظ على اللغة مستوى اللغة العربية لا بد من الضغط الشديد والتعليمات القوية وسياسة الدولة العنيفة لتحد من هذا الزحف العنيف للهجات. لأن صراع اللهجات هو أخطر ما يهاجم اللغة العربية وهو ما يجب أن نعلّمه لأولادنا هذا إلى جانب التركيز على اللغة العربية المبسطة التي يفهمها الجميع بعيدا عن التعقيدات اللغوية " .

الدكتور أمين بدر علي الكخن : " أما من ناحية وسائل الإعلام فما زالت برامج التلفزات الموجهة للأطفال في بعض الدول العربية لا تستخدم اللغة العربية الفصحى هذا إلى جانب الإعلانات التي تكثر فيها الأخطاء اللغوية وتركز على اللغات الأجنبية ".

الدكتور محمود السيد : " إذا عرفنا المسببات أمكن بكل سهولة أن نجد الحلول لتجاوز العوائق وعلى سبيل المثال لا بد من تبني مناهج وأسس علمية مدروسة و أن تكون المادة الإعلامية متسمة بالحيوية إلى جانب خلق طرق تفاعل ومشاركة. ومن أهم الحلول تنقية البيئة الملوثة إعلاميا، وبالتالي إذا ما وقفنا على أصل الداء فمن البديهي أن نجد الدواء ".

وأخيرا نختم برأي **الدكتور صالح بلعيد** الذي استعرض عدة حلول منها :

1- العمل الدائم من أجل ترشيد جريان نهر الألفاظ الجديدة المستعملة في الحياة اليومية .

2- إجراء دراسات عن اللهجات المحلية وأصولها وتوظيفها في حياة الناس .

3- تحويل الخطابات التي بالعامية إلى العربية الفصحى بقدر الإمكان في الصحف .

4- إيجاد الصيغ المناسبة لتصحيح كل ضروب الاستخدامات للألفاظ العامية ذات الأصول العربية .

5- أسوة بتجارب أمم أخرى يجب تشجيع يجب تشجيع عملية إنتاج المسلسلات التي ترمي إلى تطويع اللهجات وتقريب بعضها من بعض، على أن يتم ذلك انطلاقا من مبدأ أن اللهجات واقع منحرف لا بد من تقويمه " .

المصادر :

1- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المؤلف: العلامة أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم، المحقق: الشيخ محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية ، الجزائر، 1908

2-تصحيحات لغوية، كتاب من تأليف الدكتور عبداللطيف احمد الشويرف، الدار العربية للكتاب، 1997 .

3- تعريف الخلف برجال السلف، المؤلف: الشيخ أبو القاسم محمد الحفناوي، تقديم: أ.د محمد رؤوف القاسمي الحسني، الأنيس ، سلسلة العلوم الإنسانية، 1991

4-الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وأحكام القرآن، المؤلف: الإمام أبو عبد الله القرطبي، دار الكتب العلمية – بيروت، 1413 = 1993

5-جريدة الشروق التونسية، الجمعة الموافق 12 / 6 / 2009 .

6-دور الصحافة في ترقية اللغة العربية، مداخلة للدكتور صالح بلعيد، جامعة تيزي وزو، الجزائر، يوم دراسي بعنوان " اللغة العربية في الصحافة المكتوبة " للمجلس الأعلى للغة العربية، بالجزائر 23 / 3 / 2010 .

7 - الصحافة المكتوبة ودورها في التنمية اللغوية، مداخلة للأستاذة نصيرة زيد المال، جامعة تيزي وزو، الجزائر، يوم دراسي بعنوان " اللغة العربية في الصحافة المكتوبة " للمجلس الأعلى للغة العربية، بالجزائر 23 / 3 / 2010 .

8 العامية والفصحى وإشكالية التأثير في الرسالة الإعلامية، مداخلة للأستاذ فراس طباش، جامعة الجزائر، يوم دراسي بعنوان " اللغة العربية في

الصحافة المكتوبة " للمجلس الأعلى للغة العربية، بالجزائر 23 / 3 / 2010 .

9-اللغة العربية اليوم بين العاميات واللغات الأجنبية، واقع وتحدي " للأستاذة جميلة راجا، من كتاب " العربية الراهن والمأمول، إصدار المجلس الأعلى للغة العربية، 2009 ، الجزائر الطبعة الأولى .

10- المعجم الوسيط في الإعراب ، د. نايف معروف و د. مصطفى الجوزو، دار النفائس، الطبعة الثانية .

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، المؤلف: للإمام ابن هشام الأنصاري، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ، بيروت، 1991

11- مكانة التفكير المستقبلي في المناهج التعليمية في المدارس والجامعات العربية، التوجيه والتقنيات، ندوة دولية " العمل الاستشرافي العربي ، الواقع والتحديات " المنظمة

12- نحو مقاربة وظيفية تواصلية لتعليم اللغة العربية، دراسة للدكتور عز الدين البوشيخي، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، المغرب، اجتماع لجنة الخبراء والمختصين لدراسة أسباب ومسببات تدني مستوى تعليم اللغة العربية في الوطن العربي الذي احتضنته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في تونس العاصمة من 10 حتى 14 يونيو 2009 .

13- هداية البيان في تفسير القرآن، راشد عبد الله الفرحان، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، (1430 هـ = 2000 م).

الهوامش :

---

[1] – فاز مؤخرا في بجائزة ابن خلدون سنغور وهي من أهم الجوائز التي أنشأتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في عهد معالي الأستاذ الدكتور المنجي بوسنينة، فاز التونسيان الدكتور عبدالقادر المهيري والدكتور حمادي صمود عن تعريبهما "المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة " تأليف جون نارس شيفرا وأروالد دوكورو" مما يدل على أن اللغة العربية غنية في مفرداتها، حيث استطاع الباحثان التونسيان الفائزان إيجاد مفردات عربية ومصطلحات لكلمات هذا المعجم .

[2] – انظر المعجم الوسيط في الإعراب، ص 169.

[3] – انظر المسألة الزنبورية في كتاب مغني اللبيب لابن هشام ، 1 / 103 وما بعدها .

[4] – انظر المعجم الوسيط في الإعراب ص 210 . نقول " انطلق المسافرون غداةً " .

[5] – المصدر نفسه ص 107 . نقول " ذهبَ الحاجُّ إلى مكة تواً " .

[6] – سورة البقرة، آية 226 .

[7] – سورة البقرة، آية 228 .

[8] – انظر: كتاب هداية البيان في تفسير القرآن، للمفسر الكويتي الشيخ راشد عبدالله الفرحان، 1 / 95 .

[9] – سورة النساء، آية 141 .

[10] – هداية البيان 1 / 238 .

[11] – البستان ص 158، وتعريف الخلف 2 / 354 .

[12] – معجم المصباح المنير ص 82، ربص.

[13] – كان هذا في يوم الثلاثاء الموافق 28 ديسمبر 2011 .

[14] – سورة آل عمران، آية 97 .

[15] – البستان لابن مريم ص 67 .

[16] – سورة يوسف، آية 45 .

[17] – سورة القمر آية 15و17و22و32و40و51 .

[18] – انظر: كتاب " الجامع لأحكام القرآن للإمام "،(أبو عبدالله القرطبي)، تفسير سورة الشعراء الآيات:227،226،225،224– 13 / 153 وما بعدها.

[19] – الأستاذة جميلة راجا من جامعة تيزي وزو بالجزائر، دراسة بعنوان " اللغة العربية اليوم بين العاميات واللغات الأجنبية – واقع وتحدي ، من كتاب : العربية الراهن والمأمول، إصدار المجلس الأعلى للغة العربية ، 2009 ، الجزائر، الطبعة الأولى (1430 هـ – 2009) ، ص 269 .

[20] – انظر : تصحيحات لغوية للأستاذ / عبداللطيف أحمد الشويرف، الدار العربية للكتاب، 1997 .ص 18 .

[21] – الدكتور علي فهمي خشيم ، رئيس مجمع اللغة العربية (ليبيا)، تصريح له في جريدة الشروق التونسية، الجمعة 12 / 6 / 2009 ، ص 24 . أجرت المقابلة الصحافية / نجوى الحيدري .

[22] – الدكتور صالح بلعيد أستاذ في جامعة تيزي وزو بالجزائر، من مداخلة له بعنوان " دور الصحافة في ترقية اللغة العربية " ص 8 ، يوم دراسي للمجلس الأعلى للغة العربية بعنوان " اللغة العربية في الصحافة المكتوبة، الجزائر 23 / 3 / 2010 .

[23] – الدكتور محمود السيد وزير ثقافة سابق ورئيس لجنة التمكين للغة العربية (سوريا) ؛ تصريح له لجريدة الشروق التونسية الجمعة 12 / 6 / 2009 ص 24 . أجرت المقابلة الصحافية / نجوى الحيدري .

[24] – حين تضغط الإدارة المدرسية على المعلم وتتعامل معه بأسلوب التهديد والوعيد – خاصة – في مسألة الحضور والانصراف يفترض أن مثل هذه الأمور في الجانب المدرسي نسبية حيث إن الغاية من المعلم، أنه يدخل حصته ويؤدي واجبه تجاه درسه بأمانة، أما عن

كونه تأخر عن موعد العمل الرسمي وليس لديه حصص أولى – مثلا – أرى أن تكون هناك مرونة في هذا الجانب كي لا ينعكس اضطهاد المعلم على الطالب سلبا، وهذا معمول به في الجمهورية السورية الشقيقة وقد نجحت في قوة تعليمها لأنها احترمت معلميها.

25 – الدكتور عز الدين البوشيخي من جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب، مكناس، المغرب، مداخلة بعنوان " نحو مقاربة وظيفية تواصلية لتعليم اللغة العربية، اجتماع لجنة الخبراء والمختصين لدراسة أسباب ومسببات تدني مستوى تعليم اللغة العربية في الوطن العربي الذي احتضنته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في تونس العاصمة من 10 حتى 14 يونيو 2009 .

26 – علما بأن مركز التعريب في المغرب ، وهو المعني بالمعاجم والقواميس والترجمة والتعريب .

27 – الدكتور محمود كامل الناقة أستاذ المناهج وطرق التدريس (مصر) . انظر جريدة الشروق التونسية ، الجمعة 12 / 6 / 2009 ، ص 24 ، أجرت المقابلة الصحافية / نجوى الحيدري .

28 – القرار السياسي الذي أشار إليه الدكتور محمود الناقة، ليس محل حديثنا؛ فلكل دولة ثقافة وطنية وثقافة قومية وثقافة عالمية أو دولية خاصة بها، والدول اتفقت على إنشاء منظمات عربية متخصصة ، ومراكز عربية متخصصة للقيام بهذا الجانب؛ فكون بعض هذه المنظمات متقاعسة أو متفاعلة هنا يأتي دور مراكز القياس وأهميتها .

29 – الدكتور أمين بدر علي الكخن، أستاذ مناهج اللغة العربية، الأردن . انظر جريدة الشروق التونسية ، الجمعة 12 / 6 / 2009 ، ص 24 ، أجرت المقابلة الصحافية / نجوى الحيدري .

30 – الإدارة المدرسية هي المحور الأساسي في إدارة الدفة التربوية، وهي المنسق ما بين الطلبة والأساتذة وأولياء الأمور، وعندما نطلق عليها قيادة، لا نعني بذلك أنها قيادة عسكرية؛ فمن الخطأ بمكان أن تحوّل المدرسة إلى ثكنة عسكرية – خاصة – وأننا نتعامل مع سن

حرجة للطلبة (أي لا نرهق الطالب بكثرة الممنوعات والمحرمات ومعاملته على أنه سجين)، ولكن لا نشك للحظة أن القيادة التربوية من سماتها الحزم والانضباط بالمفهوم التربوي، وليس بالمفهوم العسكري .

31 – الأستاذ فراس طباش ، جامعة الجزائر من مداخلة له بعنوان " العامية والفصحى وإشكالية التأثير في الرسالة الإعلامية " ص 3 . يوم دراسي للمجلس الأعلى للغة العربية بعنوان " اللغة العربية في الصحافة المكتوبة، الجزائر 23 / 3 / 2010 .

32 – الأستاذ أحمد الحسين حسن ، مشرف على إعلام رئاسة مجلس الوزراء في سوريا ، انظر جريدة الشروق التونسية ، الجمعة 12 / 6 / 2009 ، ص 24 ، أجرت المقابلة الصحافية / نجوى الحيدري .

33 – الأستاذة نصيرة زيد المال من جامعة تيزي وزو بالجزائر من مداخلة لها بعنوان " الصحافة المكتوبة ودورها في التنمية اللغوية " يوم دراسي للمجلس الأعلى للغة العربية بعنوان " اللغة العربية في الصحافة المكتوبة، الجزائر 23 / 3 / 2010 . ص 6 .

34 – اليوم الدراسي ص 4 و 5 .

35 – اليوم الدراسي ص 7 .

36 – كتاب اللغة العربية الراهن والمأمول الصادر عن المجلس الأعلى للغة العربية 2009 ،ص 272،

مصطلح التنغيم في التراث اللساني العربي

د. جيلالي بن يشو

جامعة مستغانم- الجزائر

مقدمة: اللغة مجموعة من الأصوات المتناسقة، والمنتظمة في تراكيب لغويّة، يحمل كلّ تركيب منها، خصائص ودلالات مرتبطة في سيّاقات لغويّة ، وفق تنوّعات صوتيّة منتظمة.[1]

لقد حظيت الفونيمات فوق التّركيبيّة "بإهتمام العلماء والباحثين للوقوف على تحديدها، ومعرفة خواصّها النّطقيّة والسّمعيّة، ومن ثمّة الوقوف على قيمها ووظائفها اللّغويّة."[2] فقد بحثوا في مدى إسهامها في الكشف عن القواعد الصّوتيّة والصّرفيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة، والتّعرف على القواعد الّتي تحكمها في اللّغة، وما يطرأ عليها من تغييرات وتحويلات تستوجبها قواعد السّيّاق اللّغويّ.

تتمثّل التّنوّعات الصّوتيّة في ظواهر صوتيّة، مثل: المقطع، والنّبر، والتّنغيم، "وتسمى أيضا الوحدات الثّانويّة."[3] .

التّنغيم ظاهرة صوتيّة موجودة في اللّغة العربية، تنبه إليها اللغويون العرب النحاة والصرفيون، وأهل القراءات، فرصدوا مظاهرها وأوجهها المختلفة، نحاول في هذه الورقة معالجة مصطلحات التنعيم في التراث اللساني العربي.

التنغيم: المصطلح والماهية.

تذكر المعاجم العربيّة القديمة في متونها مادّة " **نغم** "الّتي يرجع مصطلح التّنغيم إليها.فقد ورد في الصّحاح قوله: "النَّغْم، الكلام الخفيّ، تقول منه: نَغَمَ، يَنْغَمُ، ويَنْغِمُ، نَغْمًا. وسكت فلان فما نَغَمَ بحرف، وما تَنَغَّمَ مثله، وفلان حسن النَّغْمَةِ، إذا كان حسن الصّوت في القراءة"[4]، ويضيف إليه صاحب القاموس المحيط: النَّغْمُ، الكلام الخفيّ[5].

ولم يخرج **ابن منظور** عن هذا المعنى، فقال: "النّغمة: جرس الكلمة، وحسن الصّوت في القراءة وغيرها، والنَّغَمُ: الكلام الخفيّ، والنّغمة: الكلام الحسن، ومكث فلان فما نَغَمَ بحرف، وما تَنَغَّمَ بمثله."[6]

تتّفق المعاجم العربيّة القديمة على معنى واحد لمادّة – **نَغَمَ** – وهو الكلام الخفيّ، وحسن الصّوت في القراءة، وجرس الكلمة، ولا تزيد المعاجم العربيّة الحديثة على هذا سوى عبارة. النَّغْمَةُ: صوت مُوَقَّعٌ[7].

استخدمت أغلب المعاجم الأجنبيّة مصطلح التّنغيم بمعنى "التّشكيل اللّحنيّ للجملة أو للعبارة"[8]، أمّا معاجم المصطلحات المختصّة المؤلّفة بالعربيّة، فقد وضعت المصطلح مترجما عن إحدى اللّغتين الإنجليزيّة أو الفرنسيّة، أو بكلتيهما **Intonation**، ثمّ حدّدت وظيفة المصطلح أكثر من تحديد تعريفه وطبيعته.

يعرّف صاحب المعجم المفصّل التّنغيم بقوله: "نوع من موسيقى الكلام، وبواسطته يتسنى للدّارس أن يعرف كثيرا من خصائص الكلام كالتّفريق بين الجملة المثبتة والإستفهاميّة، ولاسيّما إذا لم توجد صيغ نحويّة خاصّة تقوم بهذا التّفريق كتعبير التّعجب والإستفهام."[9]

ينظر هذا التّعريف إلى التّنغيم من النّاحية الوظيفيّة، بحيث يفرّق بين الجمل من النّاحية النّحويّة فقط.

يرى رشاد الحمزاويّ أنّ "التّنغيم هو المصطلح الصّوتيّ الدّال على الاِرتفاع (الصّعود)، والاِنخفاض (الهبوط) في درجة الجهر في الكلام"[10]، ويحدّد في هذا التّعريف أحد مكوّنات التّنغيم الأساسيّة المتمثّلة في درجة الجهر المتراوحة بين الاِرتفاع والانخفاض.

لقد نُقل مصطلح "التّنغيم" عن اللّغات الأخرى، وبالرّغم من أنّ الكثير من اللّغويين؛ أجمعوا على هذه التّرجمة إلاّ أنّ هناك ترجمات أخرى له[11]، وهذا يؤدّي إلى تعدّد المصطلحات اللّسانيّة لمفهوم واحد، وقد يشكّل ذلك صعوبة على الباحثين.

يعدّ إبراهيم أنيس أوّل من أدخل مصطلح التّنغيم في الدّراسات اللّغويّة الحديثة، وسمّاه " **موسيقى الكلام** "، حيث ذكر "أنّ الإنسان حين ينطق بلغته لا يتّبع درجة صوتيّة واحدة في النّطق بجميع الأصوات، فالأصوات الّتي يتكوّن منها المقطع الواحد، تختلف في درجة الصّوت[12]. وكذلك الكلمات، قد تختلف فيها، ويمكن أن نسمّي نظام توالي درجات الصّوت بالنّغمة الموسيقيّة."[13]

فقد تحدّث عن تنويع الأداء على مستوى الكلمة، ويعني به درجات الصّوت في الكلمة الواحدة، وتنوّع درجة الصّوت في المقاطع المتتابعة في الكلام هو الّذي ينوّع النّظام النّغميّ، أي يجعل النّغمات أنواعا مختلفة. ويرى أنّ اِختلاف نغمات الكلام شيء طبيعيّ في اللّغة الّتي لا بدّ أن تحتوي على "موسيقى النّغمات " تتألّف منه ألفاظها.[14]

وتعتبر دراسة تمّام حسّان للتّنغيم من المحاولات الأولى الّتي توجّهت نحو دراسة هذه الظّاهرة في العربيّة. حيث يرى أنّ التّنغيم هو "اِرتفاع الصّوت، واِنخفاضه أثناء الكلام"[15]، "فهو الإطار الصّوتيّ الّذي تُقال به الجملة في السيّاق."[16]

يعرّف تمّام حسّان التّنغيم على مستويين: مستوى نطقيّ ويتجلّى في اِرتفاع الصّوت واِنخفاضه عند المتكلّم، و مستوى وظيفيّ أيّ ما يؤدّيه تنغيم الجملة في السّياق.

و يجعل التّنغيم " من القرائن اللّفظيّة في السّيّاق، منطلقا من أنّ " الجمل العربيّة تقع في صيّغ وموازين تنغيميّة هي هياكل من الأنساق النّغميّة ذات أشكال محدّدة، فالهيكل التّنغيميّ الّذي تأتي به الجملة الاستفهاميّة، وجملة العرض غير الهيكل التّنغيميّ لجملة الإثبات، وهنّ يختلفن من حيث التّنغيم عن الجملة المؤكّدة."[17]

ويقول في موضع آخر:" إنّ الكلام لا يجري على طبيعة صوتيّة واحدة؛ بل يرتفع الصّوت عند مقاطع الكلام أكثر ممّا يرتفع عند غيره، وذلك ما يعرف باِسم التّنغيم."[18]

يُفْهَمُ من كلامه أنّ كلّ كلمة، أو جملة يُنْطَقُ بها لابدّ أن تشتمل على درجات مختلفة من درجة الصّوت، ما بين عالية، ومنخفضة، ومستوية، ومنحدرة؛ تتناسق وتتناغم لتؤدّي الكلمة، أو الجملة، فاِختلاف درجة الصّوت في الكلمة، وتباينها من مقطع إلى مقطع آخر قاعدة عامّة تخضع لها جميع اللّغات، إذ إنّه من المستحيل أن نجد لغة تستعمل نغمة واحدة في الكلمة، أوفي الجملة، وتجعلها سائدة، وقد أشار علماء الأصوات إلى أنواع النّغمات بين هابطة إلى أسفل، وصاعدة إلى أعلى، وثابتة مستوية.

كما اِلتفت تمّام حسّان إلى علاقة التّنغيم بالبنى التّركيبيّة، والبنى الدّلاليّة، أي علاقة التّنغيم بتشكّل الدّلالة في السّيّاق، وأشار إلى أنّ وظيفة التّنغيم النّحويّة تشمل " تحديد الإثبات، والنّفي في جملة لم تستعمل فيها أداة الاِستفهام، فقد تقول لمن يكلّمك ولا تراه: "**أنت محمّد**" ، مقرّرا ذلك أو مستفهما عنه، وتختلف طريقة رفع الصّوت، وخفضه في الإثبات عنها في الاِستفهام، ولكن كلّ شيء – فيما عدا التّنغيم – يبقى في المثال على ما هو عليه؛ ترتيب الكلمات في الجملة، والبناء في الكلمة الأولى، والإعراب على الثّانية، وحركة الإعراب، وحركة البناء، والنّبر الثّانويّ على الهمزة، والأوليّ على الخاء، كلّ ذلك يبقى لا يصلح أساسا للتّفريق بين الإثبات والاِستفهام، ولكنّ التّنغيم هو ناحية الخلاف الوحيدة بينهما."[19]

يتبيّن لنا من هذا القول أنّ القواعد النّحويّة مثل البناء والإعراب، والظّاهرة الصّوتيّة المتمثّلة في النّبر غير قادرة على تحديد نوع الجملة الخالية من أداة اِستفهام، أهي إثبات أم اِستفهام في حين أنّ التّنغيم هو الوسيلة الأهمّ الّتي تساعد على تحديد نوع الجملة، ودلك برفع الصّوت إذا أراد المتكلّم أن يستفهم، وخفضه إذا أراد أن يثبت.

ومن الوظائف الدّلاليّة النّحويّة الّتي تحدّث عنها تمّام حسّان؛ والّتي ترتبط اِرتباطا وثيقا بالتّنغيم، الوظيفة التّأثريّة، يقول: " وللنّغمة دلالة وظيفيّة على معاني الجمل تتضّح في صلاحيّة الجمل التّأثريّة المختصرة، نحو: **لا! نعم! يا سلام ! اللّه !** لأنْ تُقَالَ بنغمات متعدّدة، ويتغيّر معناها النّحويّ والدّلاليّ مع كلّ نغمة بين الاِستفهام، والتّوكيد، والإثبات لمعان مثل: الحزن، والفرح، والشّكّ، والتّأنيب، والاِعتراض، والتّحقير، حيث تكون النّغمة هي العنصر الوحيد الّذي تسبّب عنه تباين هذه المعاني، لأنّ هذه الجملة لم تتعرّض لتغيّر في بنيتها؛ لم

يُضَفْ إليها، أو يُسْتَخْرَجْ منها شيء، ولم يتغيّر فيها إلاّ التّنغيم، وما قد يصاحبه في تغيّرات الملامح، وأعضاء الجسم ممّا يعتبر من القرائن الحاليّة."[20]

نستخلص من هذا الكلام أنّ التّنغيم يفيد في معرفة أنواع المباني التّركيبيّة، ودلالتها من اِستفهاميّة وتقريريّة وتعجبيّة، وما تحمله من مقاصد مثل: الفرح والحزن والاِزدراء والسّخريّة والاِستهزاء، وهذه التّراكيب لا تختلف في بنائها رغم اِختلاف دلالتها ومقاصدها، وإنّما يتغيّر فيها التّنغيم، وما يمكن أن يصحبه من قرائن حالية.

يفرّق أحمد مختار بين النّغمة، والتّنغيم[21]، بحيث يرى أنّ التّنغيم هو الّذي يغيّر الجملة من خبر إلى اِستفهام إلى توكيد إلى اِنفعال إلى تعجّب في شكل الكلمات المكوّنة.

ويميّز بين صنفين من اللّغات: اللّغات النّغميّة، واللّغات غير النّغميّة[22]، وذلك من خلال ما تؤدّيه درجة الصّوت من دور في تميّز المعنى الأساسيّ للكلمة أو الجملة.

وقد أجرى في كتابه " **اللّغة واِختلاف الجنسين** " مقارنة بين جنس المذكّر والمؤنّث في حسن الصّوت، ورأى أنّ البنات يتفوّقن على الأولاد في اِستخدام الخصائص الصّوتيّة فوق التّركيبيّة كالتنغيم والنّغمة والنّبر، قال: "وقد أجريت دراسة على الأطفال في الصّفوف الثّالث والرّابع والخامس، طُلِبَ منهم أن يحكوا قصّة، وتبيّن أنّ البنات كنّ أفضل في اِستخدام الملامح التّنغيميّة من الأولاد الّذين وصلوا في إلقائهم إلى حدّ الرّتابة والإملال."[23]

لقد لاحظ في اِختباراته أنّ المرأة تستخدم التّنغيم، وتنوّع في نطقه أكثر من الرّجل، خصوصا التّنغيمات المنخفضة، " وهي نماذج تحبّ المرأة أن

تستعملها كثيرا"[24]، وهذا لا يعني أنّها منعدمة عند الرّجال، وإنّما تتواجد عندهم بنسبة أقلّ من النّساء.

يرى عبد السّلام المسديّ أنّ التّنغيم في العربيّة له وظائف نحويّة، لأنّه يفرّق بين أسلوب وآخر من أساليب التّركيب[25].

وتعدّ دراسة سلمان العانيّ "**التّشكيل الصّوتيّ في اللّغة العربيّة – فونولوجيّا العربيّة–**" من أهمّ الدّراسات الّتي تناولت التّشكيل الصّوتيّ في العربيّة[26]، وتأتي هذه الأهميّة من اِعتماد الباحث في الوصول إلى النّتائج الأساسيّة في دراسته على وسائل البحث الأكوستيكيّ والفيزيولوجيّ.

كما تعرّض لمسألتي الوقف **Stop**، ودرجة الصّوت **Hauteur** وعلاقتهما بالتّنغيم، فعلى صعيد الوقف؛ رأى سلمان العانيّ أنّ سلاسل الأصوات في اللّغة العربيّة نوعان من الوقف:

- نهائيّ :Final ويرمز له بـ |↑| عندما يكون التّنغيم صاعدا، وآخر يرمز له |↓| عندما يكون التّنغيم هابطا.
- غير نهائيّ: ويرمز له بـ |→|[27].

ويحدّد كيفيّة إدراك الوقف قائلا: " يسهل إدراك الوقف الأخير؛ لأنّه يدلّ على نهاية التّعبير، وهو عامّة يشخّص بعدّة صفات نهائيّة للنّمط المنغّم، ويحدّد هذه الصّفات نوع التّعبير، فمثلا يظهر الوقف الأخير للجملة الخبريّة **Phrase déclarative** في تسجيلات الحزمة الضّيّقة على شكل اِنزلاق متّجه إلى الأسفل."[28]

بيّن العانيّ أنّ الوقف النّهائيّ يسهل تحديده لأنّه يدلّ على نهاية الكلام، ويظهر في الجملة الخبريّة – مثلا – بتنغيم منخفض.

يميز **سعد مصلوح** في دراسته لظاهرة التّنغيم بين مجموعتين أساسيتين من اللّغات؛ اللّغات النّغميّة **Tone Languages** ، واللّغات التّنغيميّة **Intonation Languages** وتتميّز" مجموعة اللّغات النّغميّة بِإتّباعها نظاما من النّغمات، يستخدم على مستوى الكلمة؛ بحيث يختلف المعنى المعجميّ للكلمة نفسها باِختلاف النّغمات الّتي تُنْطق بها."[29] ويعطي مثالا على ذلك من اللّغة الصّينيّة[30]، وأمّا اللّغات التّنغيميّة فهي الّتي يعمل فيها التّنغيم على مستوى الجملة، وليس على مستوى الكلمة.

ثمّ يتحدّث عن وظيفتين للتّنغيم؛ الأولى نحويّة **Grammatical Function**؛ "إذ تستقلّ وحدها بالتّمييز بين التّركيبين التّقريريّ والاِستفهاميّ دون إضافة أيّ أدوات، أو أسماء تفيد الاِستفهام."[31]

يشير **سعد مصلوح** إلى التّراكيب الخالية من أدوات الاِستفهام، وإمكانيّة اِعتبارها تقريرا أو اِستفهاما يعود إلى التّنغيم، وبذلك تصبح له (أيّ التّنغيم) وظيفة نحويّة.

ثمّ يضيف فيقول: " وكثيرا ما يقوم التّنغيم في هذه اللّغات لا بتمييز التّقرير من الاِستفهام فحسب؛ بل بتحديد المراد من السّؤال، فأنت إذا قلت لصديقك : "تزوّج زيد بفتاة جميلة"، فردّ عليك متسائلا: من؟ اِختلف المراد من سؤاله باِختلاف النّغمة الّتي ينطق بها السّؤال، فإن نطقه بنغمة صاعدة كان مراده السّؤال عن الفاعل، وإن كان نطقه بنغمة هابطة كان مراده مزيدا من المعلومات عن العروس"[32]، أيّ أنّ التّنغيم هو الّذي يحدّد المعنى في الجمل الاِستفهاميّة المحذوفة الأداة.

والوظيفة الثّانية الّتي يقوم بها التّنغيم – حسب ما يرى مصلوح – هي الوظيفة الاِنفعاليّة **Emotional Lunction**، وربطها بالوظيفة النّحويّة،

يقول: "وقديما صنّف أسلافنا الإستفهام إلى إنكاريّ، وتوبيخيّ، وتقريريّ، وغير ذلك من أنواع الإستفهام[33]، والّذي لاشكّ فيه أنّ التّنغيم يقوم بدور هامّ في التّمييز بين هذه الأنواع جميعا؛ إذ إنّ الأنماط والتّنوّعات التّنغيميّة تختلف باختلافها على نحو دال."[34]

أمّا **رضوان القضماويّ** فيعرّف التّنغيم قائلا:" هو متابعات مطردة لمقاطع متعدّدة في الكلمة، تتميّز بألوان صوتيّة تنتج عن الاختلاف في تناسب تردّد ذبذبات جرس الصّوت الأساسيّ **Fréquence** ، وقوّة الصّوت **Tembre**، وكثافته **Intensive**، وطوله،"[35] وهي الخواص الّتي تتكوّن منها الصّيغة الصّوتيّة للكلام، وفيها يتشكّل التّنغيم.

وانطلاقا من هذه المكوّنات للتّنغيم يحدّد القضماويّ خمسة نماذج له في العربيّة:

- **التّموج التّنغيميّ الأوّل:** هو الّذي نصادفه في الجمل التّقريريّة، ويتألّف من مقاطع ذات تردّد مستوٍ تنتهي بمقطع هابط.
- **التّموج التّنغيميّ الثّاني:** ونصادفه في جمل استفهاميّة تحتوي على أداة استفهام، ويتألّف من مقاطع ذات تردّد مستوٍ، وفي الكلمة مركز السّؤال، يصبح تردّد المقطع المنبور صاعدا؛ يليه مقطع هابط.
- **التّموج التّنغيميّ الثّالث:** ونصادفه في سؤال لا يحتوي على أداة استفهام، ويتألّف من صعود في المقطع المنبور يسبقه انخفاض.
- **التّموج التّنغيميّ الرّابع:** ونصادفه عند الاستدراك، أو الاعتراض، ويتألّف من تردّد المقطع الهابط–الصّاعد.
- **التّموج التّنغيميّ الخامس:** ونصادفه عند التّعجب، ويتألّف من مقطع منبور صاعد–هابط[36].

تمثّل هذه التّموجات التّنغيميّة أنواع النّغمات، ونجدها خمسة أنواع عند القضماويّ، بينما قد تزيد أو تنقص عند غيره من الباحثين اللّغويين، فهي – مثلا – ستة أنواع عند تمّام حسّان[37]، ونوعان فقط عند كمال بشر[38]: نغمة هابطة، ونغمة صاعدة.

لقد تعرّضت أكثر الدّراسات الصّوتيّة الحديثة إلى التّنغيم، و الكثير منها آثر عرض تجارب أخرى سابقة كاِعتماد دراسة تمّام حسان أو عمر مختار أو سعد مصلوح دون إضافة جديد، وهو ما نجده عند – مثلا – غازي طليمات[39]؛ ففي حديثه عن التّنغيم أورد ما جاء من آراء وأقوال عند تمّام حسّان.

يربط كمال بشر تعريفه للتّنغيم –كصوت– بينه وبين الموسيقى كفنّ من خلال ما تكسوهما من ألوان وتنوّعات، فكما تتنوّع نغمات الموسيقى لتشكّل قطعة موسيقيّة معيّنة، تتنوّع أيضا نغمات الكلام وتختلف في درجاتها المتمثّلة في الاِنخفاض والاِرتفاع؛ لتنتج كلاما يكسوه نسيج موسيقيّ متكامل المبنى والمعنى.يقول:

"التّنغيم موسيقى الكلام، فالكلام عند إلقائه تكسوه ألوان موسيقيّة لا تختلف عن الموسيقى، وتظهر موسيقى الكلام في صورة اِرتفاعات واِنخفاضات وتنوّعات صوتيّة."[40]

وإذا كان إبراهيم أنيس قد اِعتبر ظاهرة التّنغيم أمرا طبيعيّا في اللّغة، فإنّ كمال بشر قد جعلها قمّة الظّواهر الصّوتيّة الّتي تكسو المنطوق، "وتتخلّل عناصره المكوّنة له، وتكسبه تلوينا موسيقيّا معيّنا حسب مبناه ومعناه، وحسب مقاصده التّعبيريّة، وفقا لسيّاق الحال أو المقام".[41]

مصطلح التنغيم في التراث اللساني العربي:

أشار اللّغويون العرب القدامى لظاهرة التنغيم؛ فـ" قدامى العرب وإن لم يربطوا ظاهرة التّنغيم بتفسير قضاياهم اللّغويّة، وهم وإن تاه عنهم تسجيل قواعد لها، فإنّ ذلك لم يمنع من وجود خطرات ذكّيّة لمّاحة تعطي إحساسا عميقا بأنّ رفض الظّاهرة تماما أمر غير وارد، وإن لم يكن لها حاكم من القواعد".[42] عدم تقعيد القدامى لظاهرة التّنغيم عائد إلى أنّهم لم يكونوا يقيّدون الكثير من الصّفات النّطقيّة بالكتابة.

ومن إشارات علماء اللّغة العرب إلى هذه الظاهرة الصوتية ؛ ما ورد في تعليقهم على قول الشّاعر جرير بن عطيّة الخطفيّ[43]:

أَقِلّي اللَّوْمَ عَاذل وَالعتَابَا   وَقُولِي إِنْ أَصَبتُ لَقَدْ أَصَابَا

يُروى : والعتابن، حيث مدّ الشّاعر الألف للتّرنّم والتّنغيم، فقد جاء " المقطع مفتوحا؛ فجعل النّغمة صاعدة للدّلالة على اِستمرار تأثّره من العتاب واللّوم"[44]، وما ذلك إلاّ تنغيم في المفهوم اللّسانيّ الحديث.

خصّص **سيبويه**(ت 180هـ) في كتابه بابا تحت عنوان – **وجوه القوافيّ في الإنشاد**– يقول فيه: "**أمّا إذا ترنّموا فإنّهم يلحقون الألف، والياء، والواو ما ينوّن، و ما لا ينوّن لأنّهم أرادوا مدّ الصّوت.**"[45]

ويعرض سيبويه شواهد تمثّل حالات **التّرنّم** في إنشاد الشّعر بمدّ الألف، أو الواو، أو الياء وهذه الشّواهد جميعا تعتمد على التّنغيم في هيكله المعبّر عن الحالة النّفسيّة للشّاعر، أو المنشد للشّعر[46].

وإنشاد الشّعر **بالتّرنّم** " يقتضي أن يطيل الشّاعر الحركة القصيرة، فتصبح طويلة مفتوحة، ممّا يمكّن الشّاعر من جعل المقطع صاعدا للدّلالة على مواصلة الموقف النّفسيّ الّذي يعايشه الشّاعر."[47]

يمكن اِعتبار مصطلح **التّرنّم** عند سيبويه هو التّنغيم عند المحدثين لما فيه من إطالة للصّوت أثناء الإنشاد للدّلالة على حالة الشّاعر النّفسيّة.

ومن آثار التّنغيم في الكلام للدّلالة على المعاني المختلفة ممّا ورد عن العلماء العرب؛ ما جاء في البيّان والتّبيين:" والصّوت هو آلة اللّفظ، والجوهر الّذي يقوم به التّقطيع، و به يوجد التّأليف، ولن تكون حركات اللّسان لفظا، ولا كلاما إلاّ بالتّقطيع، وحسن البيّان باللّسان مع الّذي يكون من الإشارة من الدّلّ، والشّكل، والتّفتّل."[48]

يبدو أنّ **الجاحظ (ت 255هـ)** يقصد هنا بالدّلّ، والشّكل، والتّفتّل التّنغيم الصّوتيّ الّذي يصاحب الحركات أثناء الكلام.

إنّ إشارة الجاحظ دليل على " أهميّة التّنغيم في السّياقات التّنظيميّة للمتكلّم، وهي –بعد ذلك – اِلتفاتة واضحة إلى الجرس الصّوتيّ الّذي يرافق الحركة أثناء تأديّة الفعل الكلاميّ"[49]، ما يلفت الاِنتباه أنّ الجاحظ عرف التّنغيم في دراسته، وقد جعله يرافق الكلام أثناء عمليّة التّواصل.

يوظّف المبرّد(**285هـ**) التّنغيم للتّعبير عن المعاني النّحويّة من خلال الإطار الصّوتيّ الّذي نضعها فيه وأشار إلى دور المتكلّم في تحديد معنى الجملة، فالجملة الاِستفهاميّة قد تخرج عن معناها ، وتحمل معان أخرى كالتّوبيخ والإنكار[50].

وروى اِبن جنيّ(**ت 392هـ**) في كتابه الخصائص قوله:" فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو، واِبن أبي إسحاق، ويونس، وعيسى بن عمرو، والخليل،

وسيبويه، وأبو الحسن، وأبو زيد، وخلف الأحمر، والأصمعيّ، ومن الطّبقة والوقت من علماء البلدين، وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها، وتقصد له من أغراضها، ألا تستفيد بتلك المشاهدة! وذلك الحضور ما لا تؤدّيه الحكايات، ولا تضبطه الرّوايات، فتضطرّ إلى قصود العرب، وغوامض ما في أنفسها؛ حتّى لو حلف حالف منهم على غرض دلّته عليه إشارة لا عبارة؛ لكان عند نفسه، وعند جميع من يحضر حاله صادقا فيه، غير متّهم الرّأي والنّحيزة والعقل، فهذا حديث من غاب فلم ينقل إلينا، وكأنّه حاضر معنا مناج لنا."[51]

إنّ ما ذكره اِبن جنيّ من حال للمتكلّم، والصّوت المصاحب له أثناء الكلام، لا يخرج عن كون ذلك تنغيما يساعد على فهم المعنى في السّيّاق؛ أدركه هو وغاب عن سابقيه.

ويرى اِبن جنيّ في كتابه المحتسب أنّ طول الصّوت وقصره؛ يفرّق بين المعاني عند فقد القرينة، مدعّما رأيه بقصّة أوردها قائلا: " وعلى ذكر طول الأصوات وقصرها لقوّة المعاني المعبّر بها عنها وضعفها، ما يحكى أنّ رجلا ضرب اِبنا له، فقالت له أمّه: لا تضربه، ليس هو اِبنك. فرافعها إلى القاضي؛ قال: هذا اِبني عندي، و هذه أمّه تذكر أنّه ليس منّي. فقالت المرأة: ليس الأمر على ما ذكره، وإنّما أخذ يضرب اِبنه فقلت له: لا تضربه، ليس هو اِبنَك؟ ومدّت فتحة النّون جدا. فقال الرّجل: واللّه ما كان فيه هذا الطّويل الطّويل."[52]

فمدّ فتحة النّون، هو الّذي أخلص كلام المرأة ليكون اِستفهاما توبيخيّا، وخلّصها من تهمة زوجها[53]. وقول الرّجل:" الطّويل، الطّويل " ما هو إلاّ التّنغيم في اِصطلاحنا الحديث،لأنّ المرأة غيّرت من نغمتها الصّوتيّة، فتغيّر معها معنى الجملة، وهو الأمر الّذي أدركه الزّوج.

يقول اِبن جنيّ : "والمعنى الجامع بين التّذكّر، والنّدبة قوّة الحاجة إلى إطالة الصّوت في الموضعين."[54]

إنّ المطل ظاهرة صوتيّة دلاليّة خاصّة بالحركات القصيرة والطّويلة، وتمطل الحركات (الألف ، الواو ، الياء) للدّلالة على النّدبة والتّذكّر.

ويقول أيضاً: "ويدلُّ على أنّ العرب لمّا أرادت مطلهنّ للنّدبة، وإطالة الصّوت بهنّ في الوقف، وعلمت أنّ السّكون عليهنّ ينتقصهنّ، ولا يفي بهنّ أتبعتهنّ الهاء في الوقف توفيةً لهنّ، وتطاولاً إلى إطالتهنّ، وذلك قولك: وازيداه، واجعفراه، ولا بدّ من الهاء في الوقف، فإنْ وصلت أسقطتها، وقام التّابع غيرها في إطالة الصّوت مقامها، وذلك قولك :وازيدا، واعمرا."[55]

نجد في كلام اِبن جنيّ قوله : المطل وإطالة الصّوت والوقف، وكلّها مصطلحات تحمل معنى التّنغيم في الدّرس الصّوتيّ الحديث.

وتحدّث اِبن جنيّ عن الدّلالة من المدّ الإنكاريّ؛ حين تحدّث عن هذه المدّة أألف هي أم ماذا؟ يقول: " إنّ أخلق الأحوال بها أن تكون ألفاً من موضعين، أحدهما: أنّ الإنكار مضاهٍ للنّدبة، وذلك أنّه موضع أريد فيه معنى الإنكار والتّعجب، فمُطِلَ الصّوتُ به، وجُعِلَ ذلك أمارة لتناكره، كما جاءت مدّة النّدبة إظهاراً للتّفجّع، وإيذاناً بتناكر الخطب الفاجع، والحدث الواقع.

فكما أنّ مُدّة النّدبة ألف، فكذلك ينبغي أن تكون مدّة الإنكار ألفاً، والآخر أنّ الغرض في الموضعين جميعاً إنّما هو مطل الصّوت، ومدّه، وتراخيه، والإبعاد فيه لمعنى الحادث هناك، وإذا كان الأمر كذلك فالألف أحقُّ به دون أختيها؛ لأنّها أمدّهن صوتاً، فأما مجيئها تارة واواً، وأخرى ياءً فثانٍ لحالها، وعن ضرورة دعت إلى ذلك؛ لوقوع الضّمة والكسرة قبلها، ولولا ذلك لما كانت ألفاً أبداً."[56]

لقد ربط اِبن جنيّ بين مطل الصّوت، وبين دلالته على النّدبة إظهاراً للتّفجع في حروف المدّ.

وأدرك اِبن جنيّ شيئا من التّنغيم في الدّلالة على المعاني، وذكر أنّ الصّفة قد تحذف أحيانا، ويدلّ عليها الحال، فقال: " وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سير عليه ليل، وهم يريدون: ليل طويل، وكأنّ هذا إنّما حذفت فيه الصّفة لِما دلّ من الحال على موضعها، وذلك أنّك تحسّ في كلام القائل لذلك من التّطويح، والتّطريح،[57] والتّفخيم،[58] والتّعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك، وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأمّلته، وذلك أنْ تكون في مدح إنسان والثّناء عليه، فتقول: كان والله رجلاً! فتزيد في قوّة اللّفظ بـ (الله) هذه الكلمة، وتتمكّن في تمطيط اللاّم، وإطالة الصّوت بها وعليها؛ أي رجلاً فاضلاً، أو شجاعاً، أو كريما، أو نحو ذلك، وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنساناً، إذ تمكّن الصّوت بإنسان وتفخّمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك، وكذلك إن ذممته ووصفته بالضّيق؛ قلت: سألناه وكان إنساناً! وتزوي وجهك وتقطّبهُ، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً، أو لَحِزاً، أومبخلاً، أو نحو ذلك."[59]

لا يعني اِبن جنيّ بكلّ هذه الصّفات إلاّ ما يعنيه المحدثون بالتّنغيم الّذي يؤدّي وظيفة نحويّة ودلاليّة في الجملة.

لقد اِتّضح لإبراهيم خليل أنّ اِبن جنيّ في عبارته (**التّطويح، والتّطريح، والتّفخيم، والتّعظيم**) يمكن أن يُشار عنده لها إلى مصطلحيْ النّبر والتّنغيم، بما تتفتّق به معاني ألفاظ العبارة من دلالات لغويّة،[60] فقال :" وتشير ألفاظ التّطويح، والتّطريح، والتّفخيم، والتّعظيم من خلال معانيها اللّغويّة إلى رفع الصّوت واِنخفاضه والذّهاب به كلّ مذهب، وهي على هذا إشارة إلى النّبر، وليس النّبر غير عمليّة عضويّة، يقصد فيها اِرتفاع الصّوت المنبور، واِنخفاضه، كما أنّ تمطيط الكلام، وزويّ الوجه وتقطيبه مظهر من المظاهر الّتي تستند عليها ظاهرة التّنغيم."[61]

إنّ اِستخدام اِبن جنيّ مصطلحات **التّطويح**، و**التّطريح**، و**التّفخيم**، و**التّعظيم**، و**مطل الصّوت** لا تخرج عن كونها وسائل تنغيميّة؛ تساعد على فهم المعنى في السّيّاق، أي أنّ اِبن جنيّ وظّف الدّلالة اللّفظيّة الّتي تعادل الدّلالة الصّوتيّة في فهمنا المعاصر للدّلالة على المعنى المقصود، وقد اِستخدم اِبن جنيّ هذه المصطلحات غير مرّة في خصائصه.[62]

إنّ ذكر اِبن جنيّ لهذه المصطلحات دلالة على تنغيم الجملة، أو طريقة نطقها عائد إلى أنّ كثيرا من الصّفات النّطقيّة لا يمكن تقييدها بالكتابة، وقد يكون هذا ما دفعه – مع ما عُرِفَ عليه من دقّة الملاحظة – إلى الحديث عن إدراك سيّاق الحال وأهميّته، وأهميّة رؤيّة وجه العربيّ، وجملة حاله حين يتحدّث[63]، إذن فرواية كلام المتكلّم مجرّدا من ذلك كلّه قد يُذْهِبُ من مقصوده الكثير.

ويذهب عبد الكريم مجاهد في ثنايا حديثه عن الدّلالة الصّوتيّة، والصّرفيّة عند اِبن جنيّ إلى أنّه قد أدرك هذا الجانب، وبذلك يُظْهِر فضل اِبن جنيّ بجلاء ووضوح، ويثبت أنّه قد طرق باب هذه الموضوعات الّتي تعتبر من منجزات علم اللّغة الحديث، وبذلك تحفظ له أصالته ومساهمته[64]، ويرى أنّ التّنغيم ظاهرة موجودة في اللّغة، ثمّ جاءت اللّسانيّات الحديثة لتوصّفها، والدّليل على ذلك أنّ الحديث عمّا يسمّى حديثا (بالتّنغيم) الّذي جعل عبد الكريم مجاهد اِبن جنيّ مساهماً فيه موجود عنده، ولاسيّما لدى سيبويه ولدى الفلاسفة.

ومن المصطلحات الّتي اِستخدمها النّحاة في ثنايا حديثهم عن بعض القضايا النّحويّة، والّتي تندرج في إطار التّنغيم مصطلح **مدّ الصّوت** في قول **اِبن يعيش (ت 643هـ):**" اِعلم أنّ المندوب مدعوّ، ولذلك ذكر مع فصول

النّداء لكنّه على سبيل التّفجّع، فأنت تدعوه وإن كنت تعلم أنّه لا يستجيب، كما تدعو المستغاث به وإن كان بحيث لا يسمع كأنّك تعدّه حاضرا، وأكثر ما يقع في كلام النّساء لضعف اِحتمالهنّ وقلّة صبرهنّ، وكما كان مدعوا بحيث لا يسمع؛ أتوا في أوّله بيا، أو وا لمدّ الصّوت، ولمّا كان يسلك في النّدبة والنّوح مذهب التّطريب زادوا الألف آخرا للتّرنّم." [65]

نلاحظ في نصّ اِبن يعيش اِستخدامه مصطلحات: **تطريب** و **مدّ الصّوت** و **التّرنّم** وكلّها تحمل دلالة التّنغيم في مفهوم اللّسانيّات الحديثة.

ويقول في حرف النّدبة:" وأمّا وا فمختصّ به النّدبة لأنّ النّدبة تفجّع وحزن، والمراد رفع الصّوت و**مدّه** لإسماع جميع الحاضرين." [66]

اِستطاع **الفارابيّ(ت: 339هـ)** بحسّه المرهف، وإدراكه لدقائق علم الموسيقى، بما فيها موسيقى الكلام، أن يقدّم فهماً لهذا المصطلح لا يقلّ دقّة عن الفهم الحديث، "ففي معرض حديثه عن الأشياء الّتي من شأنها أن يكون بها الإقناع في الخطاب،"[67] يقول :" ومنها أن تكون كيفيّة القول والصّوت والنّغمة الخارجة مع القول؛ يخيّل الأمر الّذي فيه القول، مثل أن يخبر الإنسان عن نفسه بمصائب نالته، ويجعل صوته صوت خاشع، وأن يخاطب إنسانا فيتوعده، فيجعل صوته صوت مستطيل غضبان."[68]

يشير الفارابيّ في كلامه إلى إمكانيّة إدراك الحالة الّتي يكون عليها الإنسان من خلال جعل صوته يتناسب مع اِنفعالاته، فهو يخفضه إذا أراد أن يظهر لنا ما ناله من مصائب، ويطيله في حالتي الوعيد أو الغضب.

وعَرْضُ الفارابيّ لوظائف التّنغيم؛ يدلّ على إدراك دقيق لهذا الجانب، فقد جعله ممّا يكسب الإنسان اِنفعالات النّفس مثل الرّضا، والسّخط ، والنّقمة،

والقساوة، والخوف، والحزن، والأسف، وما شابه ذلك، وقد ربط بين الاِنفعال ونوع النّغمة، إذ قال: "ومن فصول النّغم الفصول الّتي تصير دالّة على اِنفعالات النّفس، والاِنفعالات عوارض النّفس، مثل الرّحمة، والقساوة، والحزن، والخوف، والطّرب، والغضب، واللّذة، والأذى وأشباه هذه، فإنّ الإنسان له عند كلّ واحد من هذه الاِنفعالات نغمة تدلّ بواحد منها على عارض من عوارض نفسه، وهذه إذا استُعْمِلَتْ خيّلت إلى السّامع تلك الأشياء الّتي هي دالّة عليها."[69]

نجد الفارابيّ يربط التّنغيم باِنفعالات النّفس الإنسانيّة المتعدّدة، وكلّ اِنفعال له نغمته الخاصّة، ويمكن للسّامع إدراك ذلك.

أمّا ابن سينا فقد صاغ قولا لا يخرج عن مفهوم المعاصرين للتّنغيم في أدقّ الدّراسات، وذلك عندما قال :" وأمّا القول فإنّه يحتاج تارة إلى أن يرفع به الصّوت، وتارة إلى أن يُخفض به الصّوت، وتارة إلى أن يخلط فيه هذه الأمور"[70]، فهذا التّعريف مماثل لتعريف المحدثين المتمثّل في رفع الصّوت وخفضه.

وقد تحدّث – أيضا – عن قضيّة الزّينة في الكلام، فبيّن أنّ الكلام " يزدوج تركيبه من الحروف، وممّا يقترن به من نغمة ونبرة"[71]، يتبيّن لنا من هذا القول أنّ ما يزيّن الكلام، ويجعل له وقعا موسيقيّا هو اِقتران الصّوت بالنّغم والنّبر.

وفي كتاب أسباب حدوث الحروف يوضّح اِزدواج الحدث الكلاميّ من النّاحية الصّوتيّة، إذ هو متكوّن من نفس التّموّج منضافا إليها حال التّموّج، وهذه هي الّتي تخصّ تنبير الأجزاء، وصنع أجراسها بالنّغم المخصوص، يقول :" أمّا نفس التّموّج فإنّه يفعل الصّوت، أمّا حال التّموّج في نفسه من جهة اِتّصال أجزائه، وتماسها، أو بسطها، ونحتها فيفعل الحدّة والثّقل، أمّا الحدّة

فيفعلها الأولان، وأمّا الثّقل فيفعله الثّانيان"[72]، يقصد اِبن سينا بالحدّة والثّقل درجة الصّوت، وهي خاصيّة من خصائص التّنغيم.

وتحدّث أيضا عن مكوّنات النّغمة، فقال :" ومن أحوال النّغم: النّبرات، وهي في النّغم مديّة." و يقول : " واِعلم أنّ اِختلاف النّغم عند محاكاة المحاكي، إنّما يكون من وجوه ثلاثة : الحدّة، والثّقل، والنّبرات."[73]

ذكر اِبن سينا في القولين العوامل الأساسيّة المكوّنة للتّنغيم المتمثّلة في النّبر الّذي يعرف بقوّة الضّغط، والحدّة والثّقل اللّذان يعرفان بالدّرجة، واِختلاف نبر الصّوت مع درجته يشكّلان نوع النّغمة عند المتكلّم.

وأدرك دلالة الألفاظ ونغمتها، ودلالة ذلك على الاِنفعال عندما جعل الصّنف المستعمل في النّغم مثل تثقيلها، وتحديدها، وتوسيطها، وإجهارها، والمخافتة بها مناسبة مع الاِنفعال والأخلاق ، فإنّ الغضب تتبعث منه نغمة بحال، والخوف تتبعث منه نغمة بحال أخرى، واِنفعال ثالث تتبعث منه نغمة بحال ثالثة.[74]

تصدر عن المتكلّم أنواع من النّغمات تختلف باِختلاف الحالة النّفسيّة والاِنفعاليّة الّتي يكون عليها، فتؤدّى كلّ حالة بنغمة معيّنة تدلّ على معنى معيّن.

هذا الفهم من قبل الفلاسفة لأثر اِرتفاع الصّوت واِنخفاضه، أو لربط نغم الصّوت بما يناسب المعنى، هو إدراك دقيق لمفهوم التّنغيم يوازي فهمنا الحالي له، وينمّ عن إدراك واع لهذا الجانب.

أمّا وظائف التّنغيم عند إخوان الصّفا فلا تختلف كثيراً عمّا بينّه الفارابيّ، فالأنغام والألحان منها ما يرقّق القلوب، ومنها ما يشجّع في الحروب، ومنها ما يشفي من الأمراض، "وكانوا يستعملون عند الدّعاء والتّسبيح ألحاناً من

الموسيقى، وتسمّى (المحزن)، وهي الّتي ترقّق القلوب إذا سمعت، وتبكي العيون، وتكسب النّفوس النّدامة على سالف الذّنوب."[75]

خاتمة:

عالج اللغويون العرب القدامى ظاهرة التنغيم، غير أنّ جزئياتها جاءت موزعة على أبواب متفرقة، وبتسميات متفرقة منها ،طول الصّوت، ومطل الحركات والمدّ والتّطريح والتّفخيم والتّرنّم، وكلّها مصطلحات تحمل معنى التّنغيم عند المحدثين، واِستخدم علماء التّجويد عبارة رفع الصّوت وخفضه، واللّحن الخفيّ، وتطويل الصّوت، كما أدرك الفلاسفة العرب دلالة التّنغيم عندما تحدّثوا عن اِنفعالات النّفس المتنوّعة؛ والّتي تعرف من خلال الأداء الصّوتيّ.

كان للتّنغيم عند القدامى العرب مجالا لدراسة التّراكيب و الأساليب، وذلك في تركيب الجملة عند تعبيرها عن أكثر من حالة نفسيّة، وفي أسلوب البيان عند تعبيره عن المعنى بصور متعدّدة، وهما جزءان مهمّان في علم المعاني والبيان نحوا وبلاغة، وهذه العلوم أشبعها أجدادنا بحثا حتّى وإن لم يذكر فيها مصطلح التّنغيم.

مكتبة البحث:

1- الأصوات اللّغويّة، د: إبراهيم أنيس، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصريّة، ط4، ب ت.

2- الأصوات اللّغويّة، د: عبد القادر عبد الجليل، عمّان، دار الصّفاء للنّشر والتّوزيع، ط1، 1998م.

3- الأصوات ووظائفها، محمد منصف القماطيّ، د ب، منشورات جامعة الفاتح، د ط، 1986م.

4- البيان والتّبيين، أبو عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق، د: عبد السّلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجيّ، ط3، 1984م.

5- التّشكيل الصّوتيّ في اللّغة العربيّة، فونولوجيّا العربيّة، د: سلمان حسن العاني، ترجمة د: ياسر الملاّح، مراجعة، د: محمد محمود الغالي، جدّة النّادي الأدبيّ الثّقافيّ، ط1، 1403هـ- 1983م.

6- التّفكير اللّسانيّ في الحضارة العربيّة، عبد السّلام المسديّ، تونس، ليبيا، الدّار العربيّة للكتاب، ب ط، 1981م.

7- الخصائص، ابن جنيّ أبو الفتح عثمان، تحقيق: محمد علي النجّار، بيروت، عالم الكتب ،ب ط، 1983م.

8- دراسة السّمع والكلام، صوتيّات اللّغة من الإنتاج إلى الإدراك، د: سعد مصلوح، القاهرة، عالم الكتب، ب ط، 1420هـ - 2000م.

9- دراسة الصّوت اللّغويّ، د: أحمد عمر مختار، القاهرة، عالم الكتب، ب ط، 1974م.

10- الدّراسات الصّوتيّة عند العلماء العرب، والدّرس الصّوتيّ الحديث، د: حسام البهنساويّ، مصر، مكتبة زهراء الشّرق للنّشر، ط1، 2005م.

11- رسالة أسباب حدوث الحروف، الشّيخ الرّئيس أبو علي الحسين بن عبد اللّه بن سينا، تحقيق، محمد حسّان الطّيّان، ويحيى مير العلم، تقديم ومراجعة، د: شاكر الفحّام، دمشق، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة، ط1، 1403هـ - 1983م.

12- سرّ صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جنيّ، تحقيق: مصطفى السّقا وأصحابه، القاهرة، البانيّ الحلبيّ، 1954م.

13- شرح ديوان جرير، تأليف، محمد إسماعيل عبد اللّه الصّاويّ، بيروت، دار الأندلس، للطّباعة والنّشر، د ط، د ت.

14- شرح المفصّل ، اِبن يعيش موفّق الدّين، بيروت، مكتبة عالم الكتب، القاهرة، مكتبة المتنبيّ، د ط، د ت.

15- اللّغة واِختلاف الجنسين، د: أحمد عمر مختار، القاهرة، عالم الكتب، ط1، 1416هـ - 1996م

16- الصّوت اللّغويّ في القرآن الكريم، محمد علي حسين الصّغير، بيروت، دار المؤرّخ العربيّ، ط1، 2000م.

17- علم الأصوات، د: حسام البهنساويّ، مصر، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، ط1، 1425هـ-2004م.

18- علم الأصوات، د: كمال بشر، القاهرة، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ب ط، 2000م.

19- علم اللّغة العامّ – الأصوات – د: كمال بشر، مصر، دار المعارف، ط2، 1971م.

20- علم اللّغة- مقدّمة للقارئ العربيّ- د: محمود السّعران، القاهرة، دار الفكر العربيّ، ط2، 1994م.

21- في البحث الصّوتيّ عند العرب، د: خليل إبراهيم العطيّة، بغداد، دار الجاحظ، ب ط، 1983م.

22- في الخطابة، الفارابيّ، تحقيق، د: محمد سليم سالم، مصر، الهيئة المصريّة للكتاب، ب ط، 1976م.

23 القاموس المحيط، محيّ الدّين محمد بن يعقوب الفيروزباديّ، مؤسّسة الرّسالة، ط2، 1407-1987م.

24- الكامل في اللّغة والأدب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، تحقيق د: زكيّ مبارك، مصر، مطبعة الحلبيّ وشركاه، ب ط، 1356هـ - 1937م.

25- الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق: عبد السّلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجيّ، ط2، 1982م.

26- لسان العرب، الإمام أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم بن منظور، بيروت، دار صادر للطّباعة والنّشر، ط1، 2000م.

27- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، د: تمّام حسّان، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط2، 1979م.

28- مدخل إلى علم اللّغة -المجالات والاتّجاهات- د: محمود فهميّ حجازيّ، القاهرة، الدّار المصريّة السّعوديّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2006م.

29- المدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث اللّغويّ، رمضان عبد التّواب، القاهرة، مكتبة الخانجيّ، ط2، 1985م.

30- المصطلح الصّوتيّ في الدّراسات العربيّة، د: عبد العزيز الصّيغ، بيروت، دار الفكر المعاصر، دمشق، دار الفكر، ط1، 1421هـ - 2000م.

31- المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، تحقيق، د: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، ط1، 1388هـ - 1985م

32- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وزملاؤه، إشراف: عبد السّلام هارون، مصر، مجمع اللّغة العربيّة، دار إحياء التّراث العربيّ،

33- المعجم المفصّل في علم اللّغة - الألسنيّات- د: محمد التّونجيّ، وأ: راجي الأحمر، مراجعة، د: إميل يعقوب، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1993م.

34-المصطلحات اللّغويّة الحديثة في اللّغة العربيّة، د: محمد رشاد الحمزاويّ، تونس، الدّار التّونسيّة للنّشر، الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، ط1، 1987م.

35-مناهج البحث في اللّغة، د: تمّام حسّان، الدّار البيضاء، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع، 1407هـ- 1986م.

36- من وظائف الصّوت اللّغويّ، محاولة لفهم صرفيّ ونحويّ ودلاليّ، د: أحمد كشك، القاهرة، مطبعة المدينة، ط2، 1997م.

37- الموسيقى الكبير، الفيلسوف أبو نصر محمد بن محمد بن طرحان الفارابيّ، تحقيق: غطّاس عبد الملك خشبة، القاهرة، دار الكتاب العربيّ للطّباعة والنّشر، ب ط، ب ت.

38-دور التّنغيم في تحديد معنى الجملة العربيّة، د: سامي عوض، وأ عادل علي نعامة، مجلة جامعة تشرين للدّراسات والبحوث العلميّة، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانيّة، المجلّد 28، العدد: 01، 2006م.

39- الدّلالة الصّوتيّة والدّلالة الصّرفيّة عند اِبن جنيّ، أ: عبد الكريم مجاهد، مجلّة عالم الفكر، العدد(26)، آذار، 1982م، السّنة الرّابعة.

الإحالات :

[1]- علم اللّسانيّات الحديثة، عبد القادر عبد الجليل، عمّان، درا صفاء للنّشر والتّوزيع، ط1، 1422هـ-2002م، ص: 346.

[2]- علم الأصوات، كمال بشر، ص: 501 وما بعدها.

[3]- علم اللّسانيّات، عبد القدر عبد الجليل، ص: 346.

[4]- الصّحاح في اللّغة والعلوم، الجوهريّ، تقديم العلامة الشّيخ عبد الله العلايّ، إعداد وتصنيف: نديم مرعشليّ، وأسامة مرعشليّ، بيروت، دار الحضارة العربيّة، المجلّد الثّاني، مادّة: نغم، ص: 191.

[5]- ينظر: القاموس المحيط، محيّ الدّين محمد بن يعقوب الفيروزباديّ، مؤسّسة الرّسالة، ط2، 1407-1987م، مادّة: نغم، ص: 1502.

[6]- لسان العرب، اِبن منظور، المجلّد الرّابع عشر، مادّة نغم، ص: 312.

[7]- ينظر: المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وزملاؤه، إشراف: عبد السّلام هارون، مصر، مجمع اللّغة العربيّة، دار إحياء التّراث العربيّ، الجزء الثّاني، مادّة: نغم، ص: 945.

[8] – Long man, Directionnary of conceporary English’s libraire, 1990, P : 587.

[9]- المعجم المفصّل في علم اللّغة - الألسنيّات- د: محمد التّونجيّ، وأ: راجي الأحمر، مراجعة، د: إميل يعقوب، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1993م، الجزء الأوّل، ص: 207.

[10]- المصطلحات اللّغويّة الحديثة في اللّغة العربيّة، د: محمد رشاد الحمزاويّ، تونس، الدّار التّونسيّة للنّشر، الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، ط1، 1987م، ص: 188-189.

[11]- ينظر: المصطلح الصّوتيّ في الدّراسات العربيّة، عبد العزيز الصّيغ، ص: 263.

[12]- الدّرجة Hauteur ، وتعني التّغيّر في نسبة ذبذبة الوترين الصّوتيين المحدثة لنغمة موسيقيّة معيّنة. ينظر: المصطلحات اللّغويّة، رشاد الحمزاويّ، ص: 62.

[13]- الأصوات اللّغويّة، ص: 176.

[14]- ينظر: نفسه، ص: 175 وما بعدها.

[15]- مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، ص: 198.

[16]- نفسه، ص: 229.

[17]- نفسه، ص: 226.

[18]- البيان في روائع القرآن، تمّام حسّان، ج1، ص: 178.

[19]- مناهج البحث في اللّغة، ص: 198.

[20]- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 228.

[21]- ينظر: دراسة الصّوت اللّغويّ، ص: 110.

[22]- ينظر: نفسه، ص: 110.

[23]- أحمد عمر مختار، ص : 147.

[24]- نفسه، ص: 132.

[25]- ينظر: التّفكير اللّسانيّ في الحضارة العربيّة، د: عبد السّلام المسديّ، تونس، ليبيا، الدّار العربيّة للكتاب، ب ط، 1981م، ص: 226.

[26]- ينظر: التّشكيل الصّوتيّ في اللّغة العربيّة، ص: 27 وما بعدها.

[27]- ينظر: نفسه، ص: 140.

[28]- ينظر: نفسه، ص: 141 وما بعدها.

[29]- دراسة السّمع والكلام، صوتيّات اللّغة من الإنتاج إلى الإدراك، د: سعد مصلوح، القاهرة، عالم الكتب، ب ط،1420هـ ،2000م، ص : 258.

30- هذا ما تحدّث عنه أحمد مختار - قبله- في دراسته. ينظر: أسس علم اللّغة، ص: 94.

31- دراسة السّمع والكلام، سعد مصلوح، ص: 259.

32- نفسه، ص: 260.

33- هذه اِلتفاتة من الباحث على وجود إشارات للتّنغيم في تراثنا العربيّ.

34- دراسة السّمع والكلام، ص: 260.

35- مدخل إلى اللّسانيّات، ص: 105.

36- ينظر: نفسه، ص: 107.

37- ينظر: مناهج البحث في اللّغة، ص: 198 وما بعدها.

38- ينظر: علم الأصوات، ص: 535.

39- ينظر: في علم اللّغة، غازي مختار طليمات، ص: 145 وما بعدها.

40- فنّ الكلام، د: كمال بشر، القاهرة، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2003م، د ط، ص: 262.

41 - فنّ الكلام، كمال بشر، ص: 262.

42- من وظائف الصّوت اللّغويّ، محاولة لفهم صرفيّ ونحويّ ودلاليّ، د: أحمد كشك، القاهرة، مطبعة المدينة، ط2، 1997م، ص: 52.

43- شرح ديوان جرير، تأليف، محمد إسماعيل عبد اللّه الصّاويّ، بيروت، دار الأندلس، للطّباعة والنّشر،د ط، د ت ص: 64 .

44- الدّراسات الصّوتيّة، حسام البهنساويّ، ص: 243.

45- الكتاب، ج4 ، ص: 204.

46- من هذه الشّواهد قول اِمرئ القيس :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِي بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

مدّ اللاّم (مَنْزِلِي) للتّرنّم.

وقول الأعشى:

هُرَيْرَةَ وَدِّعْهَا وَإِنْ لاَمَ لاَئِمُو غَدَاةَ غَدٍ أَمْ أَنْتَ لِلْبَيْنِ وَاجِمُ

مدّ الميم (لاَئِمُو) ، ينظر: نفسه، ص: 205 وما بعدها.

[47]– الدّراسات الصّوتيّة ، حسام البهنساويّ ، ص : 244.

[48]– البيان والتّبيين، أبو عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق، د: عبد السّلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجيّ، ط3، 1984م، ج1، ص: 79.

[49]– علم اللّسانيّات الحديثة، عبد القادر عبد الجليل، ص: 374.

[50]– ينظر: المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، تحقيق، د: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، ط1، 1388ه – 1985م، ج3، ص: 228.

[51]– الخصائص، ج1، ص: 240-241.

[52]– المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، اِبن جنيّ، تحقيق، عليّ النّجديّ ناصف، و د: عبد الفتّاح شلبيّ، القاهرة، وزارة الأوقاف، 1999م، ج2، ص: 208- 209.

[53]– ينظر: الوقف في العربيّة على ضوء االلّسانيّات ، عبد البديع النّيربانيّ، ص: 35.

[54]– الخصائص، ج3 ، ص: 129.

[55]– نفسه، ص: 129، و سرّ صناعة الإعراب، اِبن جنيّ، ج 1، ص: 71 – 72 وما بعدها حيث فصّل القول في هذه النّاحية.

[56]– الخصائص، ج3، ص: 154.

[57]– التّطويح من طوح به، ذهب هنا وهناك. والتّطريح، من طرح الشّيء، إذا طوّله ورفعه وأعلاه. ينظر: لسان العرب، اِبن منظور، المجلّد التّاسع، مادّة طوح، ص: 155، ومادّة طرح، ص: 100.

[58]– التّفخيم إعطاء الصّوت قيمة صوتيّة مفخّمة، ينظر: مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، ص: 90.

[59]– الخصائص، ج2، ص: 90.

[60]– ينظر الصّوت اللّغويّ في القرآن الكريم، علي الصّغير، ص: 28.

[61]– في البحث الصّوتيّ عند العرب، د: خليل إبراهيم العطيّة، بغداد، دار الجاحظ، ب ط، 1983م، ص: 67.

[62]– ينظر: الخصائص، اِبن جنيّ، ج1، ص: 370 وما بعدها.

63- ينظر: الدّلالة الصّوتيّة والدّلالة الصّرفيّة عند اِبن جنيّ، أ: عبد الكريم مجاهد، مجلّة عالم الفكر، العدد(26)، آذار، 1982م، السّنة الرّابعة، ص: 79-80، وفي البحث الصّوتيّ عند العرب، إبراهيم العطيّة، ص: 67-68.

64- ينظر: الدّلالة الصّوتيّة والدّلالة الصّرفيّة عند اِبن جنيّ، عبد الكريم مجاهد، ص: 79 وما بعدها.

65- شرح المفصّل ، اِبن يعيش موفّق الدّين، بيروت، مكتبة عالم الكتب، القاهرة، مكتبة المتنبيّ، د ط، د ت، ج2، ص: 13.

66- المصدر نفسه، ص:120.

67- ينظر: دور التّنغيم في تحديد معنى الجملة العربيّة، د: سامي عوض، وأ: عادل علي نعامة، مجلة جامعة تشرين للدّراسات والبحوث العلميّة، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانيّة، المجلّد 28، العدد: 01، 2006م، ص: 91.

68- في الخطابة، الفارابيّ، تحقيق، د: محمد سليم سالم، مصر، الهيئة المصريّة للكتاب، ب ط، 1976م، ص: 38.

69- الموسيقى الكبير، الفارابيّ، ص: 1171.

70- الشّفاء،- ابن سينا، ص: 10.

71- نفسه، ص: 67.

72- رسالة أسباب حدوث الحروف، الشّيخ الرّئيس أبو علي الحسين بن عبد اللّه بن سينا، تحقيق، محمد حسّان الطّيّان، ويحيى مير العلم، تقديم ومراجعة، د: شاكر الفحّام، دمشق، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة، ط1، 1403هـ - 1983م، ص: 59.

73- الشّفاء، ص: 197 - 198.

74- ينظر: نفسه، ص: 198.

75- إخوان الصّفا، رسائل إخوان الصّفا، وخلان الوفاء، بيروت، الدّار الإسلاميّة 1305هـ - 1987م، المجلّد1، ص: 187-188.

هل يصلح المعجم المدرسي المرتّب حسب الموضوعات معجما للنّاشئة

دراسة لـ (الآفاق المدرسي معجم لغوي مدرسي)

أ. الجوهر مودر

جامعة مولود معمري تيزي-وزو

تمهيد:

تمثّل المعاجم المرتّبة ترتيبا موضوعاتيا أوّل نموذج للتّأليف المعجمي عرفه التّراث العربي منذ النّصف الثّاني من القرن الثّاني الهجري، وكان بمثابة الإرهاصات الأولى للمعجم العربي المختص، أما في وقتنا، فقد أصبح خارج اهتمامات المعجميين المحدثين، غير أنّنا لا نعدم وجودها، ويمثّل المعجم الذي وقع بين أيدينا إحدى المحاولات التي أراد صاحبه من خلاله تقديم مادة لغوية وجهها لجمهور خاص هم فئة المتعلمين. وهذا المعجم هو معجم «الآفاق المدرسي؛ معجم لغوي مدرسي عربي- عربي معجم مرتب حسب المواضيع» الذي ألّفه أيت يحياتن يحيى وإن لم يكن من ذوي الاختصاص، فهو من الذين مارسوا التّعليم ثمّ التّفتيش في الأطوار التّعليمية الأولى للمدرسة الجزائرية، واستشعر حاجة الطّلاب إلى معجم يتوفّر على المصطلحات المعبّرة عن التّطور العلمي والمعرفي الذي يعيشه العالم، فألّف هذا المعجم الذي جاء مختلفا من حيث جمعُه ووضعه عما ألفناه في المعاجم المدرسية الكثيرة التي تحتويها مكتباتنا، إذ بالرّغم من أن

التأليف في المعاجم المدرسية قد قطع شوطا لا بأس به؛ يبقى ما حققه محصورا في الجانب الكمي لا النوعي، فخصوصية هذا المعجم عززت رغبتي في دراسته بغية التعريف بالجوانب التعليمية في هذا المعجم، والأسس البيداغوجية التي ينبغي أن تخضع لها عملية جمعه ووضعه حتى تجعل منه معجما تعليميا بامتياز.

أولا: التوجهات التعليمية في معجم (الآفاق المدرسي):

1- صيّاغة العنوان: جاء عنوان المعجم مركبا من جزئين الجزء الأول (الآفاق المدرسي) والجزء الثاني (معجم لغوي مدرسي)، وصف الطرفان بصفة واحدة [(المدرسي) و(مدرسي)] وهي تأكيد على الهدف التّعليمي للمعجم. وإذا كانت صياغة العنوان لا تحدّد المستوى التعليمي لمستعملي المعجم، وقد عوّدنا التأليفُ المعجمي الحديث إطلاقَ هذه الصفة على كل معجم خاص بتلاميذ المدارس في مختلف مراحل التعليم الذي يسبق الجامعة[1]، فإن صاحب المعجم قد أشار أسفل الصفحة إلى أن المعجم «يحتاجه كل تلميذ وطالب وأستاذ لإثراء لغته»، أي أنه معجم للمعلّمين والمتعلّمين في مختلف مراحل التعليم (الابتدائي، والمتوسط، والثانوي)، وهي مراحل متشعبة تختلف مستوياتها وبرامجها[2]، ونعلم جميعا أن الاحتياجاتِ اللغويةِ والعلمية لتلميذ السنة الأولى من التعليم الابتدائي مختلفةٌ كثيرا عن احتياجات تلميذ السنة الرابعة أو الخامسة من المرحلة نفسها ، فهل يصلح أن نضع معجما واحدا لجميع مراحل التعليم ثمّ نظن أنه صالحٌ لها جميعا؟

2- تحديد الفئة أو الجمهور: لهذا العنصر أهمية في بناء المعجم، إذ لا بد أن يكون للمعجمي تصورا حول مستوى الجمهور الذين يخاطبهم، لذلك

أصبحت المعاجم «تحدَّد ليس فقط بالمستوى التعليمي وإنّما أيضا بمستوى عمر المتعلم، أي بعدد ما بلغه من سنين، فلكلّ فئة من العمر رصيدها اللغوي ومنهجية في العرض وأسلوب في الشرح»[3]، أما معجمنا فقد حصر صاحبُه جمهورَه في فئة المتعلّمين (وليس لعامة الناس)، لكن اعتبره صالحا لكل تلميذ وطالب وأستاذ[4]، وهذا العموم لا يؤدي إلى ضياع مستوى القارئ فحسب بل ما قد يحتويه المعجم من منزلقات من الجانب البيداغوجي.

3- تحديد الأهداف: تعدّ مسألة تحديد الأهداف من وضع المعجم إحدى المعايير الواضحة التي يمكن على أساسها تصنيف المعاجم، لأن هذا المعيار يساعد المؤلف على اتخاذ القرارات المناسبة في اختيار المادة المعجمية والمداخل والترتيب وطرائق الشرح، وإذا كان معجمنا معجما لغويا موجها إلى فئة المتعلمين من مختلف المستويات والأعمار، فهل أفصح صاحبه عن الأهداف التي وضع من أجلها المعجم؟ وإن كان كذلك فهل أبان عن الوسائل التي من شأنها أن تحقق تلك الأهداف؟

جاء في مقدمة المعجم هدف صاحبه «إلى وضع معجم صغير يكون في متناول الجميع من حيث **الاستغلال** و**الاستفادة** منه دون أي شق الأنفس»، ثم يضيف «تيسير البحث لدى المتعلمين والمعلمين أثناء تفتيشهم عن الألفاظ قد يتعذر على الكثير منهم العثور عليها بسهولة في قواميس أخرى»[5]، وإذا كانت مسألة الإفادة واليسر من السمات التي يجب أن يحققها كل معجم مدرسي. وأشار إليها صاحب المعجم، مقتديا بالكثير من المعاجم الحديثة التي لا تخلو مقدماتها من

هذه الإشارة . فإنه لم يقدم لنا تصورا دقيقا عن تحقيق تلك الأهداف، لكن لا يخفى علينا أن تلك الإشارة قد طرحت مسألتين مهمتين:

إحداهما تتعلق بقضية الجمع في عبارته (معجم صغير الحجم/ الاستغلال والإفادة) التي تحيل إلى قضية حجم المعجم، وقضية المحتوى أو مادة المعجم، فإذا كانت القضية الأولى مما لا يعدّ ميزة بين معاجم الصغار ومعاجم الكبار، لأن هناك معاجم للكبار من الحجم الصغير، فإن قضية المادة يمكن اعتبارُها الفيصل بين النوعين، ذلك أن الحاجيات اللغوية تختلف من مستوى تعليمي إلى مستوى تعليمي آخر، كما أن تصور المعجم لا يمكن أن يكون واحدا لجميع المستويات.

والمسألة الثانية تتعلق بقضية الوضع في عبارته (تيسير البحث عند التفتيش عن الألفاظ) وهي تتعلق بترتيب مواد المعجم، الذي سلك فيه المؤلف طريقة الترتيب الموضوعي، ونتطرق في العناصر التالية إلى طريقة المعالجة التطبيقية للمسألتين في المعجم.

ثانيا: قضية الجمع في معجم (الآفاق المدرسي): قضية الجمع تعنى بالمدوّنة المعجمية، وأهم المصادر التي اعتمدها المؤلف لجمع مادة معجمه، وعلى ضوئها تتحدّد كمية المادة التي يضمنها في المعجم وأهم المستويات اللّغوية أي طبيعة الرّصيد اللّغوي الذي أخذت منه مواد هذا المعجم.

1- مصادر الجمع (المدونة): يعتبر تحديد المصادر التي يتم من خلالها استقصاء المواد اللغوية التي تشكّل مادة المعجم قضية ضرورية لمعرفة معايير التأليف، وعليه يتحدد نوع المدونة التي تشكل منها الوحدات

المعجميّة، ومهما كانت المدوّنة النصيّة التي يتم حصرها فلا بد أن تخضع لمجموعة من الشروط، على رأسها ضرورة انسجامها مع الفئة التي يوجه إليها المعجم، وبالتّالي الانطلاق من الأهداف التي يروم المعجمي إلى تحقيقها من وضع المعجم، وإلى نوع المتلقّين الّذين يستهدفهم، وبما أنّ الأمر هنا يتعلّق بمعجم خاص بفئة المتعلمين، فما هي مصادر المعطيات اللغوية التي اعتمدت في استخراج مواد المعجم؟

لا يحتوي المعجم على قائمة لمصادره على مستوى الفهارس التي يخلو منها المعجم، أما على مستوى المقدمة، فيذكر المؤلف أنه قضى «ثلاث سنوات في تنسيق وتبويب الكلمات وجمع الشواهد (آيات قرآنية... أحاديث نبوية.. أمثال .. أبيات شعرية) من أمهات الكتب»[6]، لكن لم يذكر صراحة تلك الكتب، كما لا نعرف ما ذا يقصد بأمهات الكتب لأننا نجده يستشهد أيضا بأبيات لشعراء محدثين كأحمد لشوقي والعقاد. وأشار في موضع آخر بالقول «ولتعميم الفائدة أكثر أضفت إلى هذا المعجم المدرسي قائمة تكميلية من الرصيد اللغوي الوظيفي ومجموعة من المصطلحات العلمية والفنية»[7] دون أن يذكر مصدر تلك المصطلحات، وهنا نرى أنه من الضروري أن نتساءل أولا: عن سبب اعتبار الرصيد اللغوي مصدرا ثانويا بالنسبة لمعجم ذي توجّه تعليمي؟ ثانيا: عن غياب مصادر المادة المعجمية؟

فبالنسبة للأمر الأوّل، يفترض في مدونة هذا المعجم أن تنطلق من الرصيد اللغوي الوظيفي* إضافة إلى «جميع النّصوص التي يحتاج إليها المتعلّمون في أطوار التّعليم المختلفة مثل البرامج التّربوية والكتب المدرسية والنّصوص الأدبية والإعلامية بأنواعها المكتوبة والمنطوقة»[8] دون إهمال

قوائم الكلمات الأكثر شيوعا وتواترا في اللّغات الأخرى لتمكين أولادنا من الاطّلاع على ما حقّقه التّقدم العلمي في البلدان الرّاقية في عصرنا**.

أمّا الأمر الثاني الخاص بغياب ذكر المصادر في المعاجم؛ فيبرره كثير من الواضعين بالرغبة في الاختصار وعدم الإطالة، لأن القارئ حسبهم يكون بحاجة إلى معرفة الألفاظ وشروحها، لا إلى مصادر المعجم، إلا أن هذه الحجة باطلةٌ لأن المؤلف لا يُلزم بإقحام المصادر في المقدمة التي عادة ما يطلع عليها القارئ، بل ينبغي أن تذكر منفردة، تنسحب عليها كل شروط التوثيق والترتيب في الذكر[9]، ولا تحشر حشرا في مقدمة المعجم.

2- **علاقة مداخل المعجم بالمتن التعليمي:** يشترط في كل معجم مدرسي أن يرتبط أشدّ الارتباط بالعملية التعليمية[10]، وهذا يفرض الانطلاق من المتن التعليمي كمصدر لاستقاء مواده، غير أن المعجم في إشارته إلى المدونة المعجمية لم يذكر الكتب المدرسية كمصدر من مصادر تلك المدونة، وإن كان هذا لا يعني ضرورة استبعاد المواد التعليمية، فما هي نسبة احتمال ورودها؟ لمعرفة ذلك قمنا بمقارنة مواد بابين من أبواب المعجم، هما باب الألبسة وباب الأمراض والعاهات، وما ورد من ألفاظ الموضوعين في الرصيد اللغوي الذي يشكل محتوى الكتب المدرسية للسنوات الأولى من التعليم الابتدائي[11]، فكانت نتيجة المقارنة ما يلي:

بالنسبة لعدد ألفاظ الألبسة ونسب توزيعها:

- بلغ عدد مفردات الألبسة في الكتب المدرسية ستين (60) لفظة بينما بلغ في المعجم ستّا وتسعين (96) لفظة؛

- عدد المفردات الذي تشترك فيه المدوّنتان معا هو إحدى وثلاثون (31) لفظة؛
- تقدر نسبة المفردات المشتركة بين المدوّتنين بـ(24.8%)، أما النسبة التي تختلفان فيها فتقدر بـ(75.2%).

وبالنسبة لطبيعة المفردات، وإن جاء المعجم ثريا بألفاظ الألبسة، إلاّ أنه بعيدٌ عن وصف ما هو شائع في محيطنا، فلم يذكر كثيرا من المفردات التي تعد من الأهمية أن تذكر مثل (ثوب، جزمة، جورب، حزام، حلي، حمالة (bretelle)، حايك، حجاب، سريدة، دملج، منديل، فستان، منامة، لباس، لحاف، نظارات...).

أما الباب الخاص بالأمراض والعاهات، فقد كانت نتيجة المقارنة بين المدونتين خلو المعجم من قائمة للمصطلحات التي كثر ورودها في الكتب المدرسية، خاصة كتب التربية العلمية والتكنولوجية وكتب التربية المدنية ومن تلك المصطلحات (اسقوربيط، أبتر، بدانة، تسوس (الأسنان)، تفوئيد، حساسية، ربو، زكام، عشى ليلي، عقم، كوليرا، هزال)، هذا دون أن نغفل خلوه من الألفاظ المستحدثة التي أصبحت جزءا من الحياة اليومية كالهاتف والهاتف المحمول، والحاسوب (الكمبيوتر)، وأجزائه، كالفأرة ولوحة المفاتيح، والقرص المضغوط، والفيديو، والكامسكوب...

يبدو واضحا من النتيجة السابقة أنه لا علاقة لمداخل هذا المعجم بالمتن التعليمي، وهذا مرده استبعاد هذا الأخير من مصادر مدونة المعجم اللغوية، فجاء بعيدا عن اهتمامات المتعلمين وواقعهم، ولو اعتمد مؤلفه على الكتب المدرسية ومقررات التلاميذ بالإضافة إلى بعض البرامج والأشرطة العلمية الخاصة بالأطفال لتمكن من إعداد معجم أكثر وظيفية.

3- **كمية المادة المعجمية:** لتحديد حجم المادة في المعجم أهمية كبيرة، لأن كمية المادة تعكس الوعي النّظري من قضية الجمع؛ كما تعكس نسبة جمهور المستفيدين لذلك تحرص المعاجم الغربية على تحديد حجمها، خاصة المعاجم التّعليمية الّتي لا تستدعي كثرة المادة بقدر ما تحتاج إلى ضبط كيفية حصر المداخل ونوع المادة التي تفي بمطالب المستعملين. أما بالنسبة للمعجم – محل الدراسة- فلا نجد أيّة إشارة إلى مقدار المادة التي يحتويها، كما تخلو مقدمته من ذكر المعايير التي تم اعتمادها في عملية اختيار تلك المداخل. لذلك قمنا بإحصاء عدد مداخل كل باب، ثم حساب النسبة المئوية لمداخله، مقارنة بمجموع مداخل باقي الأبواب، عسى أن نستنبط تلك المعايير الغائبة، فكانت نسبة كل باب كما في الجدول التالي:

	عنوان الباب	**عدد المواد**	**النسبة المؤوية**
1.	باب النبات	263	% 9,84
2.	باب الحيوان	153	% 5,72
3.	باب الطيور	101	% 3,78
4.	باب الحشرات	52	% 1,94
5.	باب الظواهر الطبيعية	78	% 2,92
6.	باب الصفات والطبائع لدى الإنسان	292	% 10,92
7.	باب الأمراض والعاهات	149	% 5,57
8.	باب مصطلحات تهمك	416	% 15,56
9.	باب الحرف وأدواتها	174	% 6,51
10.	باب الألبسة	96	% 3,59

11.	باب الألوان والأصوات	116	4,34 %
12.	باب وسائل التثقيف والإعلام	59	2,20 %
13.	باب الأدوات المنزلية	190	7,12 %
14.	باب المأكولات	55	2,05 %
15.	باب العملات الدولية	220	8,23 %
16.	باب الألعاب الجماعية	26	0,97 %
17.	الملحق	233	8,34 %
العدد الإجمالي لمواد المعجم		2673	100 %

قراءة الجدول: جاءت أبواب المعجم متفاوتة من حيث عدد مداخلها، ويمكن تصنيفها إلى مجموعات:

المجموعة الأولى: (الأكثر من 10%): (باب المصطلحات)، ثم (باب الصفات والطبائع لدى الإنسان).

المجموعة الثانية: (بين 7 % و10%): (باب النبات)، ثم (الملحق) يليه (باب العملات الدولية)، ثم (باب الأدوات المنزلية).

المجموعة الثالثة: (بين 5% و7%): (باب الحرف وأدواتها) يليه (باب الحيوان)، ثم (باب الأمراض والعاهات).

المجموعة الرابعة: (بين 3 % و5 %): (باب الألوان والأصوات) و(باب الطيور)، و(باب الألبسة).

المجموعة الخامسة: (الأقل من 3 %): (باب الظواهر الطبيعية)، و(باب وسائل التثقيف والإعلام)، و(باب المأكولات)، و(باب الحشرات)، و(باب الألعاب الجماعية).

من خلال النسب المئوية نلاحظ أن الأبواب التي تتصدّر أعلى النسب هي تلك الخاصة بمحيط الكبار واهتماماتهم، بينما نجد أن الأبواب المتعلقة بمحيط الطفل كـ(باب الألعاب)، أو تلك الأبواب التي عادة ما ينطلق منها الطفل في المدرسة والتي تحتل حيزا واسعا في البرامج التعليمية للمراحل الأولى من التعليم (كالأسرة والألبسة والمأكولات ...) فهذه المحاور جاءت في آخر اهتمامات هذا المعجم. وهذه إحدى النتائج السلبية التي تنطوي عليها المعاجم التي تفترض قارئا واحدا، بسبب عدم خضوعها لمستوى معين وبالتالي عدم التحكم المنطقي في طبيعة الرصيد اللغوي الخاص بكل مستوى عمري وتعليمي للقارئ.

ثالثا: قضية الوضع في معجم (الآفاق المدرسي): تعنى هذه القضية بمسألتين هما الترتيب والتّعريف، وهما المبدآن اللذان يحدّدان هويّة المعجم الحقيقية[12]، وفي هذا المعجم يمثلان قطب الرحى.

1- التّرتيب: يعدّ الترتيب أوّل الاختيارات التقنية التي ينبغي على المعجمي أن يجابهها، لأنّه يؤثر بصورة مباشرة على منهجيّته في معالجة المخزون اللّغوي المعروض في المعجم[13]، كما أن المنهجية بدورها تخضع «إلى الهدف من تصنيف المعجم، أي إلى جمهور القراء الذي يهدف المعجم إلى خدمتهم أو مساعدتهم»[14] وفي هذا الصّدد ذكر المؤلف أن الهدف من التّرتيب «هو تيسير البحث لدى المتعلمين والمعلمين أثناء تفتيشهم عن الألفاظ قد يتعذر على الكثير منهم العثور عليها بسهولة في قواميس أخرى»[15]، لكن هل تعكس منهجية ترتيب مواد المعجم هذا الهدف؟

اعتمد المؤلف نمطين من الترتيب، هما الترتيب الموضوعاتي وهو الترتيب الأساس، وقد جاء ذكره على غلاف المعجم، وترتيب ألفبائي وهو ترتيب فرعي رتبت بموجبه مداخل كل موضوع من المواضيع التي أفرزها الترتيب الأوّل.

الترتيب الألفبائي: سار وفق تسلسل حروف الألفبائية العربية دون تمييز بين الأصلي والزّائد، وهذه الكيفية هي الطريقة التي تتبعها أغلب المعاجم المدرسية اقتداءً بمعاجم اللغات الأوروبية[16]، وقد أوصى بها المشاركون في الدّورة التّدريبية التي نظّمها مكتب تنسيق التّعريب بين 31 مارس و08 أفريل 1981 بالرّباط حول (صناعة المعجم العربي لغير الناطقين بالعربية)[17]، وهذا النمط أكثر ملاءمة لمستوى تلاميذ المراحل الأولى من التعليم، وعلى هذا المستوى، فقد وفق المؤلف في اختيار الترتيب الذي يجنب التلميذ مشقة البحث عن أصل الكلمة ومعرفة القواعد الإملائية والصرفية وهذه الأمور لا تتأتى للمبتدئين الذين هم أكثر الناس حاجة إلى المعجم، لكن، لا ينبغي أن نغفل تلك الهفوات التي وقع فيها المعجم، فقد سجلنا عدم مراعاة توالي الحروف في ترتيب مداخل باب النبات، إذ قدّم مداخل حرف (التاء) على مداخل حرفي (الألف والباء)، كما وجدنا أخطاءً في ترتيب المداخل بالنظر إلى الحرف الثاني والثالث، كما سجلنا أيضا ورود كلمة (البرتقال) بعد (البرقوق) وسبقت بـ (البرعوم، والبرغل، والبرقوق)، وورود (الفاصولية) بعد (الفسيلة) وسبقت بـ(الفجل، الفرفار، الفستق، الفسيلة) وجاءت كلمة (الموز) بين (المشمش) و(المصطكى)، والأمثلة كثيرة ليس من أهداف البحث الوقوف عندها جميعا.

الترتيب الموضوعاتي: بموجبه قسِّم المعجم إلى أبواب، وكل باب يضم ألفاظا يجمعها موضوع واحد كـ (النبات، والحيوانات والأسماك، والطيور...) وقد عرفه العرب في تأليف رسائل لغوية تختص كل رسالة في موضوع واحد، كما ألفت عدة معاجم أبرزها معجم (المخصص في اللغة) لابن سيده (ت 458هـ)، أما حديثا فقد نال هذا النمط من الترتيب اهتمام علم اللغة المعاصر وذلك بدراسة الأسس النظرية والتحليلية للمفردات التي تتصل بموضوع واحد وفق نظرية علمية تعرف باسم (نظرية الحقول الدلالية)، وتأخذ بطريقة التبويب بعض المعاجم الملحقة بكتب تعليم اللغات*** كذلك المعاجم المتخصّصة.

من الناحية العملية، يفترض الترتيب الموضوعي أن يكون المتعلم عارفا بالموضوع الذي ينتمي إليه اللفظ، فيعود إلى الباب للتأكد منه، أما إذا كان يجهل ذلك حينئذ يكون مضطرا للانتقال من باب إلى آخر، ممّا يستدعي جهدا ووقتا ربما أدى به إلى الانصراف عن البحث، وإذا علمنا أن أغلب التلاميذ لا يعودون إلى المعجم للتحقق من اللفظة بقدر ما يدفعهم إلى ذلك جهل معناها أدركنا الخطأ الذي وقع فيه المؤلف في تعميم الفئة المستهدفة، بحيث شملت حتى الصغار الذين هم في مرحلة اكتساب ألفاظ اللغة، زيادة على ذلك، فلا نجد في المقدمة سوى مجرد إشارة عابرة إلى اعتماده «على تصنيف الألفاظ على شكل أبواب»[18] دون أي توضيح بخصوص هذا الترتيب، أو كيفية البحث عن لفظة ما في المعجم، وهذا دليل على عدم التزام واضع المعجم بالأسس البيداغوجية التي تفرض عليه مراعاة مستوى وقدرات الفئة التي يخاطبها معجمه، فكان الأجدر توجيه هذا المعجم لتلاميذ المراحل المتقدمة من التعليم لأنهم أقدر على البحث والوصول إلى المعلومات التي يقدمها هذا المعجم.

لقد توقعت في هذا المعجم الـ«مرتب حسب المواضيع» أن يستغل مؤلفه خصائص هذا الترتيب من أجل تقديم رصيد معجمي بشكل نسقي وواضح، بحيث يعكس المعجم الطاقة التعبيرية للغة العربية والخاصة بالجانب المصطلحي المتعلق بالأبواب التي شملها المعجم مع الحرص على ذكر ما يحتاج إليه الجمهور الذي يستهدفه، لكن البحث في محتواه انتهى إلى تسجيل خروقات في عدم الالتزام بالترتيب المنصوص عليه خاصة بالنسبة للملحق الذي يضم 233 مفردة منها ما لها علاقة بالأبواب الأخرى للمعجم ومنها ما لا يجمعها موضوع معين مما أدى إلى هدم وحدة الحقل المفهومي الذي يعد سمة من سمات الترتيب الموضوعاتي.

إضافة إلى ما سبق، فإن إخضاع المواد للتّرتيب الألفبائي جعل تبويبه إلى موضوعات دون أهمية لضياع التماسك بين مواد الموضوع الواحد، وبالتالي نرى أنه من الأحسن إعادة تصنيف كل باب على شكل حقول دلالية رئيسية وأخرى فرعية، ولنمثل ذلك بباب الحيوانات، يقسم إلى محاور كأن يكون حسب الوسط الطبيعي الذي تعيش فيه، ويقسّم كلّ محور إلى محاور فرعية كأن تكون حسب تكاثرها، أو أشكالها، أو كيفية تنقلها... ولتحقيق وظيفية المعجم ينبغي أن يعتمد في تحديد المجالات العلمية والمعرفية التي تشكل موضوعات الأبواب على المتن التعليمي حتى يكون المعجم مدعما لمكتسبات التلاميذ، خاصة منها المواد العلمية لأنّها أحوج إلى الاستزادة والدعم بالمصطلحات التي يحتاج إليها المتعلم ضرورة**** وبالتالي يحقق المعجم الوظيفة العلمية والتعليمية. كما يشترط في المعجم احتواؤه على فهرسة لتسهيل توجيه التلميذ إلى الكلمة التي يبحث عنها.

2- *التعريف:* هو من أهم عناصر المعجم، ولا يمكن أن يخلو منه وإلا لما صحت تسميته بالمعجم، والتعريف هو «نوع من التعليق على اللفظ، أو العبارة؛ وهو كذلك شرح نص (اللفظ أو العبارة)»[19] ويشترط فيه أن يتم بلغة مألوفة مبسطة بعيدة عن التعقيد، مع الاستعانة بالشواهد والصور لمزيد من التوضيح و. بالنسبة للتعريف في معجم (الآفاق المدرسي) لا يختلف عن غيره من المعاجم المدرسية من حيث تنوع طرق شرح المداخل، فاستخدم كثيرا التعريفات الاسمية التي من صورها:

التعريف بالمرادف وذلك بذكر المكافئ الاسمي، مثل: (الخطء: الذنب) و (البشاشة: طلق الوجه)؛

التعريف بالمشتق مثل: (الألمحي: هو من يلمح كثيرا)، (البسام: كثير الابتسام)؛

التعريف بالضد: مثل: (الخشنة: ضد النعومة، يقال رجل ذو خشنة، أي صعب لا يطاق).

التعريف بالشبيه: (الأبيض: هو ما كان لونه الحليب والدمقس)، و(الرماني: هو المشبه بالرمان في لونه أو هيئته).

وإذا لاحظنا غياب منهجية واضحة في اختيار المرادف أو الضد أو الشبيه في الشرح، فإن الإشكال الذي يمكن أن يطرح بالنسبة لهذا النوع من التعاريف هو أن القارئ قد لا يكون عارفا بالضد أو المرادف، ثم إذا كان التعريف الاسمي صالحا في بعض المداخل، فقد لا يكون صالحا عندما يتعلق الأمر بأسماء الذوات[20] و المفاهيم المصطلحية، لذلك فقد اعتمد المعجم على التعريف المنطقي خاصة في تعريف أسماء الذوات وهو تعريف

يقتضي ذكر الجنس، والنوع، والفصل، والخاصية، والعرض العام، ويتعين في هذا النمط من التعريف الالتزام ببنية ثابتة من حيث ذكر هذه الأركان، بحيث توضع التعريفات في قوالب متشابهة، من أجل أن يحقق وحدة النسق بينها، وعلى سبيل المثال فإن التعريف الذي يتم الالتزام به بالنسبة لحيوان ما أو نبات ما، يجب تبنّيه لكل نوع من أنواعهما [21]، لكن يكفي أن نقدم مثالين لنتبين مدى التفاوت القائم بين شرح المداخل من نفس الباب.

من باب الطيور:

1- القراع: طائر من الفصيلة النقارية، متوسط الحجم له منقار قوي، يقرع به الخشب حتي يثقبه ليخرج ما به من الحشرات فيلتقطها بلسانه الطويلة، وأقدامه إيلافية الأصابع، أي له إصبعان أماميتان وإصبعان خلفيتان، في كل قدم يقبض بها على غصون الأشجار وريشات ذيله كزة مدببة تساعده في الارتكاز على الأشجار في أثناء تسلقه ويوجد في جميع العالم ما عدا أستراليا وجزيرة مدغشقر.

2- أبو دخنة: طائر يشبه لونه القبرة.

من باب الحيوانات:

3- الكركدّن: حيوان من ذوات الحوافر، عظيم الجثة، كبير البطن، قصير القوائم، غليظ الجلد، له قرن واحد قائم فوق أنفه ولبعض أنواعه قرنان الواحد فوق الآخر، ويسمى كذلك وحيد القرن.

4- المدرع: حيوان مغطى بمادة قرنية.

يلاحظ من خلال الأمثلة تباين في ذكر الأركان التي يقوم عليها التعريف، ففي المثال الأول (1) والمثال الثالث (3) استوفيا جميع الأركان وتوسع فيهما، بينما في المثالين الثاني (2) والرابع (4) لم يتجاوز ذكر الجنس والنوع، وهذا ما أدّى إلى قصوره وعدم وضوحه، تعريف المدرع بـ (حيوان مغطى بمادة قرنية) تعريف تشترك فيه حيوانات كثيرة كـ(العضايا، والسلاحف...).

بالإضافة إلى استعمال المعجم نوعي التعريف السابقين، فقد جاءت تعريفات مصطلحاتية، وهذا النوع لا يحدّد الدلالة المركزية العامة للمداخل، ولا يراعي صلة المدخل بالنظام اللساني، بل يكتفي بتحديد الدلالة في مجال من المجالات العلمية[22]، لذلك يحرص على ذكر المجال في بداية التعريف، واعتمده المعجم في تعريف بعض المصطلحات، مثل: (الإشعاع في الفزياء، خاصة في الأجسام، هي أن تطلق حولها الحرارة التي تجمعت فيها، اسم يطلق على جميع أصناف التموجات التي تنتشر خلالها الطاقة).

المعلومات الخاصة بالنظام اللساني للمدخل: لم يهتم المعجم بتحليل النظام اللساني للمداخل، فلم يأت منها إلا بمعلومات صرفية في بعض المداخل من خلال الإشارة إلى الجمع باستعمال الرمز (ج)، وإلى المؤنث برمز (م)، كما في الأمثلة التالية: (الشريف: ذو الشرف، (م) شريفة (ج) شرفاء، أشراف، (ج) شريفات). وقد يذكر الجمع، فيشار إلى مفرده، مثل: (البرغش: الواحد "برغشة"؛ البعوض وهو جنس حشرات مضرة، من فصيلة البعوضيات ورقبة ذات الجناحين).

الاستعانة بالوسائل المساعدة في التعريف (الشواهد والصور): تستعين المعاجم بالشواهد أو الأمثلة لتوضيح المعنى، كما توضح مختلف السياقات التي ترد فيها اللفظة المعنية بالشرح (المدخل)، فتضفي بذلك نوعا من الحيوية في المعجم الذي يتحول إلى مجرد هيكل في غيابها (un dictionnaire sans exemple n'est qu'un squelette [23]) على حدّ قول بيير لاروس (Pierre Larousse).

تتميز الشواهد في المعاجم المدرسية بكونها من الاستعمال الآني للغة العربية وفق الوظائف البيداغوجية التي تؤديها في المعجم[24] ذلك لأن من خصائص المعاجم المدرسية أنها موجهة أساسا لاكتساب مفردات اللغة[25]، من خلال ترصد معانيها وكيفية استعمالها في مختلف السياقات، أما بالنسبة لـ(الآفاق المدرسي) على قلة الشواهد التي وردت فيه فإن أغلبها إما من القرآن الكريم أو من الشعر الفصيح الذي يتجاوز مستوى مدارك التلاميذ قبل مرحلة التعليم الثانوي.

أما بالنسبة للصور فلم توظف، وأن ما يتضمّنه المعجم عبارة عن رسومات باللون الأسود جعلها في صفحة واحدة لا تحمل أيّ إشارة أو توضيح مضمونها ما عدا إرفاقها بعنوان الباب، ولمزيد من التوضيح نمثل ذلك بما جاء في باب (وسائل التثقيف والإعلام)[26] إذ من بين الرسومات نجد جهاز الفيديو، والماسح الضوئي، والكامسكوب، وآلة التصوير، والسفطة (**Disquette**) والتلسكوب، والمجهر، لكن لم تدوّن أسماؤها لا مع الرسم ولا ضمن المداخل، لتكون هذه الرسومات مجرد حشو أضيف إلى المعجم ليزيد من هفواته.

النتائج:

– من الناحية النظرية، يتوفر المعجم الذي درسناه على أركان المعجم المدرسي، ليظهر ذلك جليا على مستوى الغلاف والمقدمة، من خلال العنوان وصياغة الأهداف وتحديد الجمهور، أما من جانب التطبيق يبقى بعيدا عن المعجم المدرسي المنشود لعدة أسباب أهمها:

– لم ينطلق من المتن التعليمي، بحيث تستخرج مدونته النصية من متن الكتب المدرسية ومحادثات الأطفال في مختلف المناسبات، وما يقع بين أيديهم من كتب أثناء مطالعاتهم، وعلى ما تتوفر مكتباتهم من مجلات وجرائد وما يبث في وسائل الإعلام من ألفاظ ومصطلحات جديدة؛

– يفتقر المعجم إلى عنصر الدقة في تحديد مستوى المتعلم، واكتفى بالإشارة إلى مرحلة متشعبة تختلف مستوياتها، وبالتّالي اختلاف احتياجاتها وقدراتها الذهنية مما يجعل تخصيص معجم واحد لها جميعا نوعا من الوهم والمغالطة؛

– لا يملك المعجم كفاية وظيفية، إذ رغم أنه يغطي مواضيع معرفية مهمة إلاّ أن ما يحتوي عليه من مواد لا يعكس القدرة التعبيرية للغة العربية، ولا مظاهر التّجديد إن على مستوى الألفاظ أو على مستوى المعاني وهذا نتيجة اعتماد تأليفه على مصادر قديمة؛

– لم يستغل مؤلف المعجم المزايا التي ينطوي عليها الترتيب الموضوعاتي من حيث إمكانية تقديم رصيد لغوي بشكل نسقي وإبراز مظاهر تطور اللغة العربية من خلال تضمين المعجم المفردات الدالة على أسماء المخترعات والمصطلحات الحديثة.

– غياب منهجية واضحة في صياغة التعاريف، مع ما يتيحه الترتيب الموضوعاتي من إمكانية الالتزام ببنية ثابتة عند صياغة التعاريف المنطقية خاصة في أبواب (النباتات/ الحيوانات/ الطيور/الحشرات).

الخلاصة:

رغم المزالق التي وقع فيها المعجم، فإن هذا النمط من المعاجم (أي المرتبة ترتيبا موضوعاتيا) تنطوي على مميزات تجعله صالحا كنموذج تؤلف على شاكلته معاجم مدرسية ترافق الكتب المدرسية خاصة في المراحل الأولى من التعليم، بشرط أن يكون لكل مرحلة تعليمية معجمها الخاص.

الهوامش:

1 – ينظر: حسن حمزة "المعاجم المدرسية العربية من خلال مقدماتها"، مجلة اللسانيات، العدد 16: 2010، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية بالجزائر، ص 119.

2 – ينظر: عبد الغني أبو العزم، المعجم المدرسي، ص 241.

3 – عباس الصوري، في بيداغوجية اللغة العربية، ص 36.

4 – ينظر: أيت يحياتن يحيى، الآفاق المدرسي معجم لغوي مدرسي، غلاف المعجم.

5 – مقدمة المعجم.

6 – المرجع نفسه.

7 – المرجع نفسه.

* – ولو أنّ هذا الرصيد أصبح متجاوزا بسبب عدم تجديد محتواه بما استجد من ألفاظ ومصطلحات خلال ما يربو على أربع عشريات من عمر هذا الرّصيد.

8 – الطاهر ميلة "مواصفات المعجم المدرسي المعاصر"، مجلة اللسانيات، العدد 16: 2010، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية بالجزائر، ص 29.

**– ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، الرصيد اللغوي للطفل العربي وأهمية الاهتمام بمدى استجابته لحاجاته في العصر الحديث، مجلة الممارسات اللغوية، العدد 1، 2010، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر.

9 – ينظر: حميد مطيع العواضي، المعاجم اللغوية المعاصرة قضاياها النظرية والتطبيقية، ط1. صنعاء اليمن: 1999، مؤسسة العفيف الثقافية، ص 103.

10 – ينظر: عبد الغني أبو العزم، المعجم المدرسي أسسه وتوجهاته.

11– هذا العمل يتعلق بدراسة أخرى قمنا بها حول دراسة الرّصيد اللغوي في الكتب المدرسيّة للأطوار الابتدائية.

12 _ ينظر: إبراهيم بن مراد، أسس المعجم المختص اللسانية، مجلة اللسان العربي، العدد 48، 1999، مكتب تنسيق التعريب الرباط، ص 203.

13 – على القاسمي "ترتيب مداخل المعجم" صناعة المعجم العربي لغير الناطقين بالعربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، أبحاث الدورة التدريبية، الرباط من: 31 مارس إلى 8 أبريل 1981، ص 20.

14 – المرجع نفسه، ص 20.

15 – مقدمة المعجم.

16 – ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح "أنواع المعاجم الحديثة ومناهج تأليفها"، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 78، الجزء 3، 2003، ص 678 وما بعدها.

17 – ينظر: المنظمة العربية للتّربية والثّقافة والعلوم، صناعة المعجم العربي لغير النّاطقين بالعربية، أبحاث الدورة التدريبية، الرباط من: 31 مارس إلي 8 أبريل 1981، مكتب تنسيق التعريب الرباط: 1983.

*** – مثل (المعجم المساعد لدارسي الكتاب الأساسي في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، عربي– فرنسي– اسباني– ألماني– إنجليزي،)، الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مطبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة برامج الثقافة والاتصال، تونس: 2007. وهو في الحقيقة حصيلة المفردات الخاصة بالسنتين الأولى والثانية مرتبة حسب المواضيع الدراسية.

18 – مقدمة المعجم.

**** – ينظر في هذا الصفحة 33 من كتاب التربية العلمية والتكنولوجية للسنة الأولى من التعليم الابتدائي، وردت فيها صورتان، إحداهما لرجل الفضاء والثانية لغواص، كلاهما مزود باللباس والأجهزة التي تناسب وظيفتيهما، لكن لا يشير الكتاب إلى أسمائها، ونحن نعلم فضول أولادنا للتعبير عن مثل هذا المظهر ووصف هذه الأجهزة، وأنهم حتى وإن اكتفوا بالجواب بوضع «العلامة (–) تحت كل رسم يمثل وضعية لا يمكن أن يبقى فيها الشخص مدّة طويلة، فإن تقديم تعليل عن لماذا؟ كما جاء في الكتاب، قد يدفعه لذكر اسم تلك الأجهزة غير أنها لم ترد في الكتاب، وبالتالي يفترض في مثل هذا المعجم تزويد التلميذ بالمصطلحات المناسبة حتى لا يكون مضطرا للتعبير عنها باستعمال المصطلحات الأجنبية.

19 – محمد رشاد الحمزاوي، من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا، ط1. لبنان: 1986، دار الغرب الإسلامي، ص 165.

20- ينظر: حلام الجيلالي، تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، د ط. دمشق: 1999، اتحاد الكتاب العرب، ص 123.

21 ينظر: عبد الغني أبو العزم "المعجم العربي منهجيته وأسسه العلمية في أفق تحويله إلى معجم إلكتروني معجم الغني – نموذجا" مجلة اللسان العربي، العدد 62، 2008، مكتب تنسيق التعريب، ص 35.

22 – ينظر: حلام الجيلالي، التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، ص 139.

23 – Club d'orthographe de Grenoble, Jargon des lexicograheses, Publié le 26 mars 2006, voir: http://orthogrenoble.net/listes/jargon-lexicographes.html

24 – الطاهر ميلة "مواصفات المعجم المدرسي المعاصر"، ص 32.

25 – ينظر: فاطمة الخلوفي "معجم الوجيز" عدد خاص باليومين الدراسيين حول: المعجم العربي العصري وإشكالاته، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط: 2007، ص 172.

26 – ينظر ذلك في آخر صفحة من الملحق.

الملحق

الآفاق المدرسي
معجم لغوي
مدرسي
عربي - عربي
معجم مرتب حسب المواضيع
يحتاجه كل تلميذ وطالب وأستاذ لإثراء لغته
دار الآفاق

وسائل التثقيف والإعلام

معيارية التناص في تحليل الترجمة

" دراسة نصية "

د. نوح الاوّل جُنيـــد،
قسم اللغات الأجنبية،
(ج. ولاية لاغوس، لاغوس- نيجيريا)

تمهيد:

إن الترجمة، على الرّغم من كثرة نظريّاتها ونماذجها المقدّمة من قبل علماء اللّغة والتّرجمة حديثً ا، ما زالت بحاجة إلى مزيد من الدّراسات اللّغويّة الحديثة الهادفة إلى تطوير منهجها. وقد دفعت هذه الملاحظة كثيرا من العلماء (اللغويين النّصيّين وخاصة المنظّرين للتّرجمة) إلى اللواذ بالمعايير النّصيّة[1] نظرا لاشتمالها على الإمكانيات التي قد تساعد المترجم على تحقيق أهدافه، يساهم هذا المقال في دراسات التّرجمة بمناقشة التّناص (Intertextuality) ومفاهيمه، وإبراز مباحثه في التّراث العربيّ، كما أنه يحاول إثبات معيارية التّناص في تقويم وتقييم الترجمة بتحويله إلى إطار مرجعي معرفي مفيد لتحليل النصوص العربية المترجمة الواقعية. يقدّم هذا المقال تحليلا نموذجيا بسيطا لمقال عربي مترجم من الإنجليزية لبلورة صلاحية التناص ومعياريته في تقييم الترجمة، وذلك بعرْض (أو استعراض) مقْتبسات منَ النّص المترجم المعيّن والنّص الأصليّ، وتم الاستعانة بالمدوَّنة الإلكترونيّة العربيّة (Arabic Corpus)[2] في تحديد مدى شيوع الألفاظ والعبارات والتّراكيب التي تمّ

استخدامها في النّصّ الهدف. وقد تأثرت هذه الدراسة بمنظور نصي لدي بوجراند ودريسلار و نِيوبَيرت وشرايف.

النصية عند علماء النص (Textuality)

لا يمكن تقديم بيان كاشف ومقنع لمفهوم التناص وآليته في الترجمة دون تحديد النصية ومعاييرها التي تعتبر مفهوما محوريًا وأساسيًا لإيجاد نصوص لغوية واستخدامها الفعلي وتحليلها، يعرّف النصية بأنها مجموعة معقّدة من الخصائص التي يجب توافرها في النّصّ لاعتباره نصًّا؛ وهي خاصيّة تحتملها مادّة لغويّة معقّدة حينَما تعكس قيودًا اجتماعيّة وتواصليةً محدّدة.[3] وتستند معاييرها (التي هي بمنزلة مبادئ عامّة تصلح للحكم بنّصيّة النّصوص على اختلاف أنواعها) بجملتها إلى عوامل علميّة أربعة (لغويّة ونفسيّة واجتماعيّة وذهنيّة). [4]

ومما اصطلح عليه أعلام النصيين أن خصائص النّصوص اللّغويّة وتحديد تركيبات النّصوص والعناصر النّحويّة والدّلاليّة والتّداوليّة والاتّصاليّة تتجلّى تجليا مزيلا للغموض بمعايير النّصّيّة، كما يتضح بها الاهتمام بالمعارف الإنسانيّة المشتركة (أي معرفة عالم النّصّ والعالم الواقعي، وخصائص النّصّ، والأوضاع الثّقافيّة والاجتماعيّة، والأحوال النّفسيّة). يقتضي الاتّساق أن يفهم منتج النص وقارئه عناصر النص اللغوي الفاعلة؛ ويدعو الانسجام إلى فهم علاقات بين عناصر النّصّ واستمرارية الأفكار والمعلومات الجارية داخله؛ وينبّه معيار المقصوديّة القارئ إلى تحديد مقاصد منتِج النّصّ في توفيره عناصر الاتساق والانسجام. والمقبوليّة تتعلق بموقف قارئ النص باعتباره نصا متماسكا ومتلاحما ذا نفع له؛ ويحضّ معيار الموقفيّة المتلقي على تحديد العوامل التي تجعل النّصّ ذا صلةٍ بموقفٍ حاليٍّ أو تجعله مناسبًا

للموقف، وتدعو الإخباريّة إلى معرفة مدى التّوقّع الذي تحظى به بعض وقائع النّصّ المعروض في مقابل عدَم التوقّع، أو في مقابل المجهول. وينبّه التّناصّ الذي هو موضوع هذا المقال إلى معرفة العلاقات بين نصٍّ ما ونصوصٍ أخرى ذات صلة، تم التّعرّف إليها في خبرةٍ سابقة.

ويجدر الذكر في هذا المنحى أن فكرة النّصّيّة والتناص على الرّغم من حداثتها في الدّراسات اللّغويّة الغربية الحديثة كانت مبادئها معروفة في التّراث العربيّ، حيثُ دُرست بمسميّات مختلفة، وتحدّدت مفاهيمها بالمعلومات التي تعرّض لها علماء العربيّة في عصورهم، وقد تحدّث البلغاء العرب عن الاستعارة والاقتباس، والسّرقات الشّعريّة، والتّلميح، والسّلخ، التّضمين، والإيجاز، والإحالة، والتّلخيص، والمحاكاة والتّذكّر، والتّوليد، إلخ.

مفهوم النّصيّة في التّرجمة

يوحّد مفهوم النّصيّة عمليّة التّرجمة ومعرفة العالم مع النّصّ بوصفه نتاجًا، فالنّصيّة خاصيّة تحتملها مواد لغويّة معقّدة حينما تعكس قيودًا اتّصاليّة واجتماعيّة معيّنة، وهي حالة يحاول المترجم إثباتها في النّصّ الهدف، وبمعرفته قيمه يفرض المترجم على نفسه فهم العناصر التي اجتمعت لخلق النّصيّة لتكون في مصلحة قراء النّصّ الهدف. ويمكن في سياق دراسات التّرجمة استخدام مبدأ النّصيّة لتحديد الحالات التي يمكن القول فيها بأن النّصّ المصدر ونظيره النّصّ الهدف يتكافآن تكافؤا نصيًّا، والتّكافؤ النّصّي هو الحالة الغائية التي تُجرّ إليها عمليّة التّرجمة. [5]

مفهوم التّناصّ[6]

التّناصّ أو التناصية من المصطلحات المولّدة، وهو مشتقّ من كلمة "النّصّ"، بصيغة "التّفاعل" الدّالّة على المشاركة (أي مشاركة النص الغائب النص ا الحاضر)، وتوضّح دلالتَه جوليا كريستيفا بقولها: "أن كلّ نصٍّ عبارة عن لوحة فُسيفِسائيّة من الاقتباسات، وكلّ نصّ تشرّبٌ وتحويل لنصوص أخرى"،[7] ويفسّر التّناصّ أيضًا قول رولان بارت بأنه: "...والكتابة لا تحدث بشكلٍ معزولٍ أو فرديٍّ ولكنها نِتاجٌ لتفاعلٍ ممتدٍّ لعددٍ لا يحصى من النّصوص المخزونة في باطن المبدِع، ويتمخّض عن هذه النّصوص جَنينٌ ينشأ في ذهن الكاتب ويتولّد عنه العمل الإبداعيّ الذي هو النّصّ.[8] " ويقول: "إنّ التّناصّ لا شريعةَ له سوى الأخذ من مواردَ لا تعدّ ولا تحصى".[9] ويُستنتج من المقتبس أنه لا يوجد نصٌّ مستقلٌّ عن غيره من النّصوص القديمة أو الحديثة، وإنما الكاتب لا يكتب لغةً إلا ويستمدُّ عناصرها من محزونٍ معجميٍّ له وجود في صميم كيانه، وتنطبق صفة الإبداعيّة على الكاتب؛ وذلك إذا كان له دور في إعادة صياغة نصٍّ ما أو اجتهد في تضمين النّصّ بتلميحاتٍ وتشبيهاتٍ مُغرية، والحقيقة الثّابتة هي أنه لا يستغني عن أن ينهلَ من مخزنٍ لغويٍّ وضعيّ سابق له.

التناص معيارَ النّصّيّة

ويمثّل التّناصّ –بوصفه معيارا مهما للنصية– من منظور دي بوجراند الطّرق التي يعتمد فيها إنتاج نصٍّ ما وتلقّيه على معرفة المشاركين بغيره من النّصوص.[10] ويتضمّن التّناصّ العلاقات بين نصٍّ ما ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربةٍ سابقةٍ سواء بوساطة أم بغير وساطة. ويشكّل منظور دي بوجراند هذا توسيعًا لأفق التّناصّ ليشملَ التّفاعلات في الاتّصال. وبوسع المشاركين أن يطبّقوا خلفيّاتهم المعرفيّة وتجاربهم السّابقة من خلال إجراءٍ يسمّى بالتوسّط، والتّوسّط الواسع بدوره يتمّ توضيحه بتطوير أنواع النّصوص[11]

واستعمالاتها. ويلاحظ أن التّوسّط يكون منخفضًا جدًّا عند اقتباس النّاس نصوصًا متداوَلةً معيّنة أو إحالتهم إليها (مثل الخطب المشهورة والأعمال الأدبيّة)، وأنه يصبح ضئيلاً للغاية في بعض النّشاطات من مثل الردّ على نصوصٍ أخرى أو نقضها أو روايتها أو تلخيصها أو تقييمها، كما يحدث في المحادثة.[12]

ومما يشير إلى أهميّة معيار التّناصّ مسألة أنواع النّصّ التي تشكّل تحدّيًا بالغًا لدراسة النّماذج اللّغويّة، وقد أفاد دي بوجراند أن نوع النّصّ (Text type) يعدّ من منظار لسانيّات النّصّ إطارًا محدّدًا لنسبيّة العلاقات القائمة بين عناصر النّصّ السّطحيّة أو المشاعة في العناصر الأربعة التّالية: ظاهر النّصّ، وعالم النّصّ، وأنماط المعلومات المختزنة، والموقف أثناء واقعة الاتّصال،[13] وأنواع النّصوص آلات تم إنشاؤها بصورةٍ اجتماعيّة، حيثُ إنّ تطبيقها يُتعرّف عليه كشكلٍ من أشكال المعرفة الاجتماعيّة المعيّنة.[14]

التّناصّ في التّراث العربيّ

التّناصّ ظاهرة معروفة في التّراث العربيّ تحتَ مسميّاتٍ متنوّعةٍ وتُدرس صُورها تحت مصطلحاتٍ مختلفة، ولكن الدّلالة الرّئيسة التي عُرف بها عند القدماء هي التّداخل بين النّصوص وأخذُ مبدعٍ كلامَ غيرِهِ وتضمينه قصيدَته. ومن الدّلائل على الوعْي لدى القدماء بمدلول التّناصّ قول ابن عبد ربه الأندلسيّ [15]في العقد الفريد عن الاستعارة:[16] "لم تزل الاستعارة قديمةً تُستعمل في المَنظوم والمَنثور. وأحسن ما تكون أن يُستعار المنثور من المنظوم، والمَنظوم من المنثور. وهذه الاستعارة خفيّة لا يُؤبه بها، لأنك قد نقلت الكلام من حال إلى حال. وأكثر ما يجتلبه الشّعراء ويتصرّف فيه البلغاء، فإنما يجري فيه الآخر على سنَن الأوّل. وقلَّ ما يأتي لهم معنى لم يَسبق إليه أحد، إمّا في

مَنظوم وإمّا في مَنثور؟ لأن الكلام بعضه من بعض، ولذلك قالوا في الأمثال: ما ترك الأوّل للآخر شيئًا. ألا ترى كعب بن زُهير، وهو في الرَّعيل الأوّل والصدر المتقدّم، قد قالِ في شعره:

ما أرانا نقول إلا مُعـاراً أو مُعاداً من قولنا مَكْرورا "[17]

وورد في السّياق أيضًا قولُ أبي تمام :

يقول من تقرع أسماعه كم ترك الأوّل للآخـر[18]

ويُفيد قول الأندلسيّ والأبيات المستعرضة أن التّناصّ (أو الاستعارة) يحمل معنى الاشتراك بين المبدعين، وأخذ بعضِهم من بعض، وأن نتاجَ المتأخّرين يعدّ استمدادًا من إبداع سابق في اللّفظ والمعنى، وأن النّقل خفيّ غير شعوريّ وحتميّ، وأن الكلام يتداخل بعضه مع بعض نثرًا ونظمًا.

وفي "نقد الشّعر" أقرّ قدامة بن جعفر بأنّ التّناصّ في الشّعر لا يَعيبه، فقال: " إنّ الجيّد والحسن ما كان جيّدًا في ذاته دون النّظر إلى كون هذا المعنى قد طرقه قبلَه أحدٌ أم لا.[19]

جعل ابن سنان الخفاجيّ، التّناصّ في كتابه "سرّ الفصاحة" ضرورة في شكل حضور كلّيّ أو جزئيّ يقول: "ويتمثّل في إدراك البعض لعمليّة التّداخل الدّلاليّ بشكلٍ مطلق، بحيثُ يرى أن جميع معاني المحدَثين فد ارتكزت على ما قدّمه المتقدّمون، بمعنى أنهم استحضروا المعاني القديمة بجملتها في خطابهم الشّعريّ وإن كانت الغلبة للطّرَف الآخر الذي يرى أن حضور القديم في الجديد كان حضورًا جزئيّا".[20]

تناول حازم القرطاجنيّ مفهوم التّناصّ في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" تحتَ تسمية "الإحالة"، وهي عنده إشارة في النّصّ الرّاهن إلى وقائع، أو حالات، أو قصص تاريخيّة بعيدة عن حضور نصيٍّ يتعلّق بها، وذكر القرطاجنيّ أن "الشّعراء يقتبسون معانيهم استنادًا إلى البحث في كلام الجرجانيّ في نظم، أو نثر، أو تاريخ، أو حديث، أو مَثل. فيبحَث الخاطر فيما يستند إليه من ذلك على الظّفر بما يسوّغ له معه إيراد ذلك الكلام أو بعضه بنوع من التّصرف، أو التّغيير، أو التّضمين، فيحيل على ذلك".[21] ويتّضح من ملاحظة القرطاجنيّ أن الإحالة (التّناصّ) يرتبط مباشرة بمعرفة النّصوص السّابقة، وبقدرة الشّاعر على الإفادة منها في نصّه، ويظهر أنها تؤشّر على حضور نصٍّ أو نصوص سابقةٍ في النّصّ الحاليّ، وأن هذا الحضور لا يقع في إطار التّضمين البلاغيّ المألوف، كما لا يقع في إطار قضيّة السّرقات الشّعريّة.[22]

وترد فكرة التّناصّ في كلام صاحب العمدة ابن رشيق عند كلامه عن السّرقات يقول:"وهذا باب متّسع جدًّا، لا يقدر أحد من الشّعراء أن يدّعي السّلامة منه، وفيه أشياء غامضة إلا عن البصير الحاذق بالصّناعة، وأخر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفّل."[23] وقسّم السّرقات إلى أنواع هي الاصطراف (اختلاب واستلحاق)، والإغارة، والغصب، والمرافدة أو الاسترفاد، والاهتدام، والنّظر والملاحظة، والإلمام، والاختلاس، والعكس، والمواردة، والالتقاط والتّلفيق. [24]ولا يعتبر ابن رشيق الاشتراك في اللّفظ المتعارف عليه بين الشّعراء سرقًا، كقول عنترة:

وخيل قد دلفت لها بخيل عليها الأسد تَهتصرُ اهتصارا

وقول عمرو بن معدي كرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل فَدَارت بين كبشيها رحاها

وقول الخنساء ترثي أخاها صخرا:

وخيل قد دلفت لها بخيل فدارت بين كبشيها رحاها

ومثله:

وخيل قد دلفت لها بخيل ترى فرسانهَا مثلَ الأسود[25]

ومن صور التّناصّ التي عُولجت في التّراث العربيّ الإطناب،[26] والإيجاز،[27] والاستدعاء،[28] والتّحويل،[29] والتّرجمة،[30] والتّلخيص، والنّسخ،[31] والتّوازي[32] والتّوليد[33] والتّلميح،[34] والسّلخ،[35] والتّضمين،[36] والاقتباس،[37] والاحتذاء،[38] والمحاكاة،[39] والتّذكّر، والنّفي، التّطابق،[40] والتّفاعل،[41] والتّداخل،[42]والتّحاذي[43]، والتّباعد[44]، والتّقاصي[45]، وكذلك فكرة تفسير القرآن بعضه بعضًا (التّناصّ القرآني)، وتفسير القرآن بالحديث أو العكس، وكلّ من هذه الصّور إشارة إلى فكرة التّناصّ، وكلّها تلميحٌ إلى تداخل النّصّ مع النّصّ، وأن النّصّ عندما يتداخل مع نصوصٍ أخرى يتجسّد النّصّ الجديد في شكل كلّ من الصّور السّابقة الذّكر. وعلى سبيل مثال : التّلخيص وليد النّصّ الأساسيّ القديم، وفيه ما فيه من التّداخل، والتّرجمة منه، والمحاكاة صورةٌ منه، وكذلك النّسخ، وغيره. إعطاء المعلومات حولَ كيفيّة استخدامِها.[46]

آلية معيار التّناصّ في دراسات التّرجمة

يقدم التّناصّ –حسْبَ رأْي باسل حاتم– أرضيّة اختباريّة مثاليّة للأفكار السّيميائيّة الأساسيّة في الممارسة العمليّة مثل التّرجمة الكتابيّة والفوريّة.[47] وهو نمطٌ عالميٌّ يقارنه القارئ بقوابلَ من المعرفة السّابقة المجرّدة من التّجربة، ويُعبّر عنه بـ "كوْن هذا النّصّ شبيهًا بنصوصٍ أخرى".[48]

ويذكر دي بوجراند ودريسلير أن الفكرة الكلّيّة للنّصّية قد تعتمد على استكشاف تأثيرات التّناصّ باعتباره تحكّمًا إجرائيًا على النّشاطات الاتّصاليّة بأجمعها.[49] والمترجم المنطلق من هذا المنظور يقوم -مهتديًا بالنّصوص المتوازية Parallel Texts- بإعادة تشكيل عناصر المقصوديّة (Intentionality) والمقبوليّة (Acceptability) والموقفيّة (Contextuality) والإخباريّة (Informativity) والانسجام (Coherence) والاتّساق (Cohesion) حتى تتطابق (هذه العناصر) مع التّواقعات النّصيّة لمتلقّي نصّ اللّغة الهدف، لأن المتلقّي للنّصّ الهدف يَعدّ -من حيثُ المبدأ- معظمَ النّصوص الموجودة في اللّغة الهدف (سواء أكانت مترجمةً أم أصليّة) نصوصًا طبيعيّة، فأصبح لزامًا على المترجم خلقُ نصٍّ هدف يستدعي ظاهره اللّغويّ الاعتراف بالتّشابه بين النّصّين المصدر والهدف، وهذا يعني أن التّرجمة يجب أن يحتفظ بتناصٍّ مثل التّناصّ في النّصوص الطّبيعيّة لثقافة اللّغة الهدف، ويشار إلى هذه العمليّة التّرجميّة بالتّناصّ التّوسّطيّ Mediated Intertextuality. وقد صرّح فان دايك (Van Dijk) أن التّكافؤ الاتّصاليّ (Communicative Equivalence) في التّرجمة يتحقّق من خلال التّناصّ التوسّطي.[50]

وأشار نِيوبَيرت وشرايف إلى أن التّرجمة عمليّة إنتاج نصٍّ مدفوع بالنّصّ،[51] وصرّحا بأن نصّ اللّغة المصدر ليس مترجمًا إلى اللّغة الهدف، وإن ما يتمّ ترجمته إلى نصّ اللّغة الهدف ما يعدّه مستخدمو اللّغة الهدف مثالاً لغويًّا طبيعيًّا واقعًا في ثقافتهم الاتّصاليّة. ومن الممكن أن يبصّر المترجم متلقّي اللّغة الهدف بثقافة اللّغة الهدف الاتّصاليّة؛ وذلك بإثبات عناصر تناصّ متوافر (في النّصّ المصدر) في النّصّ الهدف[52].

يعدّ التّناصّ أيضًا من العوامل المهمّة في تحديد التركيبات اللّغويّة التي تتجسّد فيها أنواع مختلفة من النّصوص، فإنه، فضلاً عن ارتباطه بفكرة نوع النّصّ- Text Type، مبنيٌ على ما يتوقّع مستعمل النّصّ رؤيته في النّصّ. ويسمح التّناصّ لقرّاء النّصوص بتحديد أنواعها والتركيبات اللّغويّة التي تميّز بعضها من بعض.

ومن مظاهر التّناصّ في عمليّة التّرجمة تأثير نصّيّة اللّغة المصدر في نصّيّة اللّغة الهدف، وقد يؤدّي هذا التّأثير إلى التّغيّر اللّغويّ، ولهذا يعدّ التّناصّ عاملاً رئيسًا يتوسّط في نشوء دلاليّات اللّغة وتداولياتها، ويتحقّق هذا الإجراء من خلال تدخل النّصوص الجديدة في اللّغة الهدف إلى أن يتوسّع مخزون ذخيرة اللّغة الهدف المعرفيّة.[53] وقد سبق أن لفت ولهيم فون هانبولت الانتباه- في مقدمة ترجمته لـ"Agamemnon" إلى إمكان إثراء اللّغة وتوسع خزانتها عند اتخاذ المترجم أسلوبًا ميّالاً لخصائص اللّغات الأجنبية في عمليّة التّرجمة،[54] فإن النّصّ المترجم حسْبَ قول الدّيداوي يدخل في عداد التّناصّ ويصبح جزْءًا من الرّصيد اللغوي المفترض، أي تراث اللغة الهدف.[55] ومن أبرز أساليب التّرجمة التي تترك اللّغة الأجنبيّة من خلالها بصماتها في اللّغة الهدف الاقتراض أو الاقتباس التّرجميّ (Borrowing)،[56] والمحاكاة أو النّحل (Calque)،[57] والقياس (Modulation)،[58] والتّكييف (Adaptation).[59]

ومما يفيد المترجمين في مفهوم التّناصّ قضايا نماذج النّصّ، وهي قضايا يتنوّر بها المترجم لمعرفة إيعازات وتوقّعات تتحلّى بها النّصوص الهدف، وتفيد من هذه القضايا وجوب فهم المترجم لمظاهر التّناصّ في النّصوص المصدر والهدف فهمًا دقيقا، واعترافه الصّحيح أن التّرجمة مهمّة في التّناصّ عبر اللّغة والثّقافة، وأنها كلّها من التّناصّ التوسّطي.

التناص بوصفه إطارا مرجعيا لتحليل الترجمة

ينبّه معيار التّناص (المحَوّل إطارا مرجعيا معرفيا) المُراجعَ (المحلّل والمترجم) للنّصوص المترجمة على الإجابة لثلاثة أسئلة هامة أثناءَ التّرجمة وتحليلها وتقويمها، وهي:

1-هل لهذه النّصوص (أي المترجمة) نصوص أخرى مشابهة في اللغة الهدف (TL)؟

2- وما العلاقة بينها؟

3-وما مظاهر نصوص أخرى في النص الحاضر

فتمثّل الإجابة عن هذه الأسئلة تحليلاً شاملاً وتقييما للنّصوص المترجمة استنادا إلى معيار التناص، وتمكّن المترجم (أو المراجع والمقيّم) من المعرفة في نهاية المطاف عن مدى نجاح المترجم في العملية الترجمية أي في إنتاج نصٍ مخبرٍ وملائمٍ من حيثُ التّناصّ.

وإنما يدقّق المحلّل المنطلق من معيار التّناصّ النّظر في عناصر النّصّ الهدف التي تلمّح وتومئ إلى نوعيّة النّصّ وصنفه، فيبحث في علاقة عناصره بعناصر نصوص يختزنها المتلقّي أو نصوص موازية في اللّغة الهدف، ويستعرض هذه العناصر، ويحدّد مدى اتّصاف النّصّ بها. فتعدّ المعطيات الحاصلة من هذه الملاحظة جوابًا لثلاثة أسئلة المطروحة.

التحليل النموذجي لنص سياسي بمعيار التناص:

اللوبي الإسرائيلي وسياسة أمريكا الخارجية"[60]:

يتم التعرّف في النّصّ الهدف النّموذجيّ (العربي) إلى أشكال وتراكيبَ وأساليبَ وأسماء عديدة مثل: سياسة (policy)، والرّأي العام (Opinion Poll)، والدّيمقراطيّة (Democracy)، والأمن الأمريكيّ (American Security)، ومصالح الدّولة (State Interest)، وإستراتيجيّة (Strategy)، والبلدين (Two States)، والدّبلوماسيّ (Diplomatic)، وهي كلّها تذكّرنا بنصوص سياسيّة أخرى، يمكن أن نستحضرها في تأويل النّصّ الحاليّ، وقراءة نصوص أخرى مشابهة له.

ومن مظاهر التّناصّ التي يمكن ملاحظتها في النّصّ الهدف الفاظ وعبارات وُضعت بين علامات التّنصيص: منها "كامب دفيد"، و"دول مارقة"، و"القرب"، و"المحرقة"، و"إنقاذ الأطفال"، و"اللّوبي"، و"لجنة العلاقة العامّة الإسرائيليّة والأمريكيّة"، و"الكونغرس اليهود العالمي"، و"لا يوجد شيئ فلسطيني"، و"لو ولد فلسطينيا لكان انخرط في إحدى المنظمات الإرهابية"، و"غير مسؤول"، وسورهاالأمني"، و"الضّغط"، و"نوعًا حديدا لأعداء السامية"، و"النشطين سياسيا"، و"يخوضان الآن صراعا مشتركا ضدّ الإرهاب"، ستختتم الحرب على الإرهاب في بغداد".

تذكّر هذه الألفاظ والعبارات بنصوصٍ أخرى معهودة سابقة في اللغة الهدف، وذلك لأنها قبل التّنصيص بها أو الاستدلال بها وردت في سياقٍ نصٍ سياسيٍّ سابقٍ محدّد، وتشكّل مصادرَ نصّيّة يستحضر المتلقّي سياقاتها وحالاتها والمعارف المتعلّقة بها في تفكيك شفرة النّصّ الحاليّ. وكون النص متضمنا لهذا الأسلوب إشارة إلى ما يعرف بالتداخل النصي، وأن النص المترجم متكافؤ للنصوص السياسية الأخرى التي سبق العهد بها، كما أنه دليل على توفيق المترجم لإنتاج نص سياسي متكافئ.

ومن مظاهر التّناصّ في النّصّ المصدر استخدام منتِج النّصّ المصدر الكلمة *Bantustans* [61]في العبارة:

"Ehud Barak's purportedly generous offer at Camp David would have given them only a disarmed set of *Bantustans* under the de facto Israeli control."

التي أودعها المترجم النّصَّ المصدر، فاستحضر بذلك الوضع السّياسيّ المزري الذي وجد السّود أنفسهم فيه حينما كانوا يواجهون سياسة التّمييز العنصريّ للنّظام الحاكم في جنوب إفريقيا في الفترة ما بين 1950–1994،[62] والذي يضاهي حالة الفلسطينيّين السّياسيّة من حيثُ الاحتلال والتّمييز العنصريّ. وتُرجمت *Bantustans* في النّصّ الهدف إلى "منزوعة السّلاح من الكانتونات"، في التركيب:

"أمّا عرض إيهود بارك الذي اعتبر سخيا في كامب ديفيد فإنه ما كان ليعطيهم سوى مجموعة منزوعة السلاح من الكانتونات تحت سيطرة أمر واقع إسرائيلي."

وكلمة "كانتونات" التي اختارها المترجم تعريبٌ للكلمة الإنجليزيّة *Cantons*، وهي مصطلحٌ خاصٌّ مستخدم لوصف الولايات التي تشكّلت منها Switzerland، وهي ستة وعشرون كانتونًا، حيثُ كان العشرون منْها كانتونًا كاملاً والسّتة المتبقيّة شبهُ كانتون.[63]

وواضح أن المترجم لم ينجح في إثبات مظهر التّناصّ الموجود في النّصّ المصدر في النّصّ الهدف الذي هو استحضارُ وضع *Bantustans* المشبَّه به وضع الفلسطينيّين تحتَ الاحتلال الإسرائيليّ وسياسته القائمة على التّمييز

العنصريّ، وليس الوضع في سويسرا كالوضع في إسرائيل؛ حيثُ إنّ Switzerland لم تكن محتلّة ولم تمارَس فيها سياسة التّمييز العنصريّ. فإنّ المتلقّي للنّصّ الهدف لانعدام عنصر التّناصّ فيه لا يتلقّى الرّسالة الدّقيقة التي يستقبلها المتلقّي للنّصّ المصدر.

ومن مظاهر التّناصّ أيضا استعمال التّعبير:

" Israel is often portrayed as David confronted by Goliath,"

الذي تُرجم إلى:

" غالبا ما صُوّرت إسرائيل على أنها داوود في مواجهة التنّين، ".

يستثير التّعبير هنا خلفيّةَ المتلقّي المعرفيّة فيُتوقّع أن يستحضِر نصًّا عهِده سابقًا، ويستخدم معرفته السّابقة للنّصّ الدّينيّ حيثُ سُردت قصّة داوود وقتالُه جالوت. ويدير منتِج النّصّ خُطَّته لتحقيق غرضه الذي هو استحضار حال داوود في الكتاب المقدّس في نصّه الحاليّ، وهناك علاقة التّشابه في النّصّ الحالي والنّصّ الآخر في المعرفة الخلفيّة. أمّا الكلمة "التِنين" التي استخدمها المترجم فغير ملائمة من حيثُ التّناصّ لأنها لا يمكن توصيلها بالحدث الشّهير في النّصّ الدّينيّ بين داوود وجالوت، ولأنّ اللّفظ "جالوت يعدّ من متلازمات داوود ومصاحباته، حيثُ يتذكّر المتلقّي جالوت حينما ذُكر داوود. ومن المستحسَن إضافة حقيقةٍ هي أن داوود شخصيّة دينيّة، والمعلومات عنه لا يمكن الحصول عليها إلا في الكتب المقدّسة، وكان "التِنين" شخصيّة أسطوريّة قصصّية خَياليّة، وبذلك لا يمكن من حيثُ التّناصّ أن يتلازم مع داوود.

وقد كشف البحث الذي أجريناه في المدوّنة الإلكترونيّة العربيّة (Arabicorpus)[64] عن شيوع اللّفظ "التّنين" الذي اختاره المترجم، فأسفرت النّتيجة المتوصّل إليها عن كون اللّفظ مألوفًا ومشهورًا، وعن أنها من المصطلحات التي شاع استعمالها سياسيًّا، كما أنه أظهرت أن استخدام التِّنين لا يلمح إلى الحدث الشّهير في النّصّ الدّيني.[65] ونقترح استخدام "جالوت" ترجمةً بديلةً لـGoliath، لأنّ الكلمةَ البديلة "جالوت" متلازمةٌ مع "داوود"، وبها يستطيع المتلقّي استحضار الحال نفسه الذي يقصده منتِج النّصّ.

الخاتمة:

وقد حاولنا في هذه المقالة تحديد مفهوم التناص غربًا وشرقا، وتعقّبناه بإظهار معياريته كإطارٍ مرجعيٍّ معرفيٍّ لتقييم وتحليل النصوص المترجمة. ووضّحنا في المقال خطاب النصيين والمتقدمين في التناص وخلصنا إلى أنهم بحثوا في التّناصّ في حين تحدّث البلغاء العرب عن الاستعارة والاقتباس، والسّرقات الشّعريّة، والتّلميح، والسّلخ، التّضمين، والإيجاز، والإحالة، والتّلخيص، والمحاكاة والتّذكّر، والتّوليد.

تبيّن في التّحليل بمعيار التناص عدم نجاح مترجم للنصين تحت الدراسة في إثبات مظهر التّناصّ، مثل اللّفظ "Bantustans"، الذي ترجم إلى "كانتونات"، فأظهر التّحليل أن اللّفظ "كنتونات" الذي استخدمه المترجم غير ملائم؛ وذلك لأن المتلقّي للنّص الهدف لا يتلقّى الرّسالة الدّقيقة التي يستقبلها المتلقّي للنّصّ المصدر لانعدام عنصر التّناصّ فيه.

ومن توصيات هذا المقال الاهتمام بدراسة النّصوص المترجمة الطّبيعيّة الواقعيّة، والتّركيز على النّصّيّة ومعاييرها في تحليل الترجمة، يبصّر بأهمية

معرفة النّصوص المتوازية لإثبات مظاهر التّناصّ في النّصّ الهدف. ويضاف إلى ذلك استخدام المدوّنات الإلكترونيّة (corpora) ذات المصادر اللّغوية المتنوّعة في تحديد تداوليّة الألفاظ والعبارات أو المصطلحات في النّصوص الهدف، وتحديد مدى مقبوليّتها عند متكلّمي اللّغة الهدف والمتخصّصين في الميادين التي تنتسب إليها النّصوص تحت الدّراسة. وكذلك استخدام محرّكات البحث عبر الإنترنيت.

المصادر والمراجع

أ/ العربية:

*ابن رشيق، علي الحسن القيروانيّ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1996م.

*ابن سنان الخفاجيّ الحلبيّ، سرّ الفصاحة، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصّعيديّ، (القاهرة: مكتبة صبيح، 1979م)،

* أبوغزالة، إلهام وحمد، علي خليل. (1999م). مدخل إلى علم لغة النّصّ. القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط/2.

* أبو الفرج، قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، نقد الشّعر، (القاهرة: مكتبة الخانجيّ، 1979م)، ط/3،

*الأندلسيّ، أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، (بيروت: دار إحياء التّراث العربيّ، 1999م)

*بوجراند، روبرت دي. (1998م). النّصّ والخطاب والإجراء. ت: تمّام حسّان، القاهرة: عالم الكتب.

*الدّيداويّ، محمد. (1992م). علم التّرجمة بين النّظريّة والتطبيق. تونس: دار المعارف.

*الزّعبيّ، زياد صالح، مصطلح الإحالة عند حازم القرطاجنيّ: النّشأة التّاريخيّة والتّجلّيات الرّاهنة، في (مجلّة كلّية الآداب، جامعة القاهرة، العدد: 1، المجلد 60، ، يناير 2000م)، ص: 9-45.

*السّعدنيّ، مصطفى يس، التّناصّ الشّعريّ:قراءة أخرى لقضيّة السّرقات، (الاسكندريّة: منشأة المعارف،1991م.

*الشّاميّ، أشرف عبد العال. (2003م). معايير النّصيّة: دراسة في نحو النّصّ. بحث مقدّم لنيل درجة الماجستير، القاهرة: كلّيّة دار العلوم، جامعة القاهرة.

* الشّكريّ، أبو سعيد الحسن بن الحسين عبد الله، شرح ديوان كعب بن زهير، (القاهرة: الدّار القوميّة، 1950م)

*عبد المطلب، محمد. (1994). البلاغيّة والأسلوبيّة. القاهرة: لونجمان.

*العسكري، سعيد الحسن، ديوان كعب بن زهير، تقديم وفهرسة: حنا نصر الحنى، (القاهرة: دار الكتاب العربيّ، 1994م).

*عمر، أحمد مختار. (1998م). العربية الصحيحة. القاهرة: عالم الكتب، ط/2.

*علي، عبد الصّاحب مهديّ. (2002م). معجم مصطلحات التّرجمة التّحريريّة والشّفهيّة. إنجليزيّ–عربيّ، الشّارقة: جامعة الشّارقة.

*الغذاميّ، عبد الله محمد، الخطيئة والتفكير: من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية لنموذج إنسانيّ معاصر،(القاهرة، ط/2، 1991)

*القرطاجنيّ، حازم. (1981م). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تحق: محمد الحبيب ابن الخوجة، بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، ط/3.

* المجمع الثّقافيّ، الموسوعة الشّعريّة، إشراف: محمد أخمد السّويديّ، الإمارات العربيّة المتّحدة: إصدار القرص الثّالث، الموقع: Cutural.org.ae

*ابن رشيق، علي الحسن القيروانيّ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1996م)، ج/2،

ب/ الإنجليزية:

*Al-Shahab, Omar Sheikh, Interpretation and the Language of Translation: creativity and conventions in Translation, (London: Janus Publishing Company 1996). p. 25.

*Bantustans." Microsoft® Student 2007 [DVD]. (Redmond, WA: Microsoft Corporation, 2006).
http://en.wikipedia.org/wiki/Cantons_of_Switzerland. تاريخ زيارة الموقع 2007-9-10

*Barthes, Roland, The Death of the Author, (1986), in Roland Barthes *The Rustle of Language*. Translated by Richard Howard, (Oxford: Basil Blackwell, 1986), p 52-53.

*Basnett Susan, Bringing the News Back Home: Strategies of Acculturation and Foreignization, in Language and Intercultural Communiation, (ed) John Corbett, Guest Editor, Susan Bassnet, (UK: Multilingual Matters Ltd, Vol 5: 2, 2005), p.20-130.

*Basil Hatim and Ian Mason, Discourse and The Translator, (London/New York,Longman, 1992), p.120-121.

*Beaugrande, R. and Dressler,W. (1981). Introduction to Textlinguistics. London: Longman.

Dilworth Parkinson, arabicorpus, Arabic Corpus Search Tool, http://arabicorpus.byu.edu, 07-12-05 تاريخ أوّل زيارة.

*Kristeva, Julia, Desire in Language: a semiotic approach to literature and art, Thomas Gora, Alice Jardine and Leon S. Roudiez (trans.), Leon S. Roudiez (ed.), (New York: Columbia University

Press, 1980), p.66. see: Allen, Graham, Intertextuality, London/New York, Routledge, 2000),

*Lehtonen, Mikko, Cultural Analysis of Texts, Translated by Aija-Leena Ahonen and Kris Clarke, (London, SAGE Publications, 2000),

*Neubert A., Textual Analysis and Translation Theory, or What Translators Should know about Texts, (Linguistische Arbeitsherichte, 1980.

*Neubert, A.: "The Impact of Translation on Target Language Discourse: Text vs. System", (*Meta* 35-1, (1990), p. 96-101.

*Neubert A, and Shreve G.M. (1992). Translation as Text. Ohio/London: Kent State University Press,.
Steiner, George, 1992, After Babel,(Oxford University Press.

*Van Dijk, T.A., Macrostrutures, An Interdisciplinary Study of Global Structures in Discourse, Interaction, and Cognition, (Hillsdale,N.J., Erlbaum, 1980),

*Wilhelm Von Humboldt, (1916),"from the introduction to His Translation of Agamemnon, trans. Sharon Sloan, in (Schulte and Biguener, eds, Theories of Translation), p. 58.

الهوامش:

1-وهي: الاتّساق-Cohesion ، والانسجام-Coherence والمقصوديّة-Intentionality، والمقبوليّة- Acceptability، والإخباريّة- Informativity، والموقفيّة-Contextuality، والتّناصّ- Intertextuality

2 -Dilworth Parkinson, arabicorpus, Arabic Corpus Search Tool, http://arabicorpus.byu.edu, 07-12-05 تاريخ أوّل زيارة.

[3]. See Neubert A, and Shreve G.M.. Translation as Text. p.70. see also: 1992Ohio/London: Kent State University Press, أحمد، مداس، لسانيّات النّصّ: نحو منهج لتحليل الخطاب الشّعريّ، (الإردن: عالم الكتب الحديث، 2007م)، ص:

[4]. أبو غزالة، إلهام وحمد، علي خليل. مدخل إلى علم لغة النّصّ. (القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط/، 1999م)، ص: 13.

[5]. See Neubert A. and Shreve G.M., op. cit. p. 71-72.

[6]. اتّفق معظم العلماء في مجال النّقد الأدبيّ وتحليل النّصوص شرقًا وغربًا على أن مصطلح "Intertextuality" ظهر في المرّة الأولى على يد جوليا كريستيفا Julia Kristeva في أبحاث عديدة لها ظهرت بين 1966-1967 في مجلتي "Tel-Quel" و"Critique". ويوجد من العلماء من يفضل التّناصّية مصطلحا لهذه الظّاهرة، ويفضل بعضهم النّصوصيّة، وبعض آخر يفضّل تداخل النّصوص.

[7]. Kristeva, Julia, Desire in Language: a semiotic approach to literature and art, Thomas Gora, Alice Jardine and Leon S. Roudiez (trans.), Leon S. Roudiez (ed.), (New York: Columbia University Press, 1980), p.66. see: Allen, Graham, Intertextuality, London/New York, Routledge, 2000), p. 39. see also: الغذاميّ، عبد الله محمد، الخطيئة والتفكير: من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية لنموذج إنسانيّ معاصر،(القاهرة، ط/2، 1991)، ص: 322. وانظر كذلك: الشّاميّ، أشرف عبد العال، معايير النّصيّة: دراسة في نحو النّصّ. بحث مقدّم لنيل درجة الماجستير، (القاهرة: كلّيّة دار العلوم، جامعة القاهرة، 2003م) ص: 494-505.

[8]. Barthes, Roland, The Death of the Author, (1986), in Roland Barthes *The Rustle of Language*. Translated by Richard Howard, (Oxford: Basil Blackwell, 1986), p 52-53. see: Lehtonen, Mikko, Cultural Analysis of Texts, Translated by Aija-Leena Ahonen and Kris Clarke, (London, SAGE Publications, 2000), p. 75. see also: السّعدنيّ، مصطفى يس، التّناصّ الشّعريّ:قراءة أخرى لقضيّة السّرقات، (الاسكندريّة: منشأة المعارف،1991م)، ص: 8، وانظر كذلك: الشامي أشرف عبد العال، المرجع السابق، ص: 494-505

[9] المرجع السّابق، ص: 14.

[10] انظر: أبو غزالة، إلهام وحمد، علي خليل، المرجع السّابق، ص: 233، وانظر كذلك: Basil Hatim and Ian Mason, Discourse and The Translator, (London/New York,Longman, 1992), p.120-121.

[11] وهي أصناف من النّصوص يتوقّع المرء اشتمالها على بعض السّمات التي تخدم أغراضًا معيّنة.

[12] أنظر : أبو غزالة، إلهام وحمد، علي خليل، المرجع السّابق، ص: 233،

[13] انظر: بوجراند، روبرت دي. النّصّ والخطاب والإجراء. ت: تمّام حسّان، (القاهرة: عالم الكتب، 1998م)، ص: 41.

[14] Steiner, George, After Babel,(Oxford University Press, 1992) p. 330.

[15] ونرى أنّ هذا القول يجب أن يُسجّل في التّاريخ من أقوال العرب التي تومئ إلى ما يُعرف اليوم بالتّناصّ، ويجب الاستدلال به وبقائله، كما أنه يجب تدويله، لكي يعرف علماء الغرب أن عبد ربه الأندلسيّ سبق بَخْتِن وكرستِيفا وورولان بارت إلى هذه الفكرة الفلسفيّة المستقطِبة.

[16] وربما هي من المصطلحات الشّائعة المستعمَلة لمفهوم التّناصّ.

[17] الأندلسيّ، أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، (بيروت: دار إحياء التّراث العربيّ، 1999م)، ج/ 5، ص: 300-301. وانظر: العسكري، سعيد الحسن، ديوان كعب بن زهير، تقديم وفهرسة: حنا نصر الحنى، (القاهرة: دار الكتاب العربيّ، 1994م)، ص: وانظر كذلك:

الشّكريّ، أبو سعيد الحسن بن الحسين عبد الله، شرح ديوان كعب بن زهير، (القاهرة: الدّار القوميّة، 1950م)، ص: 154.

[18] ابن رشيق، علي الحسن القيروانيّ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1996م)، ج/2، ص: 350. وانظر: الشّاميّ، محمد أشرف عبد العال، المرجع السّابق، ص: 501. وانظر كذلك: المجمع الثّقافيّ، الموسوعة الشّعريّة، إشراف: محمد أخمد السّويديّ، الإمارات العربيّة المتّحدة: إصدار القرص الثّالث، الموقع: Cutural.org.ae والبيت منقول من ديوان أبو تمام.

[19] أبو الفرج، قدامة بن جعفر، نقد الشّعر، تحقيق: كمال مصطفى، (القاهرة: مكتبة الخانجيّ، 1979م)، ط/3، ص: 149.

[20] ابن سنان الخفاجيّ الحلبيّ، سرّ الفصاحة، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصّعيديّ، (القاهرة: مكتبة صبيح، 1979م)، ص: 274. انظر: عبد المطلب، محمد. البلاغيّة والأسلوبيّة. (القاهرة: لونجمان، 1994م)، ص: 139، وانظر كذلك: ابن سنان الخفاجيّ، المصدر السابق، ص: 274.

[21] القرطاجنيّ، حازم. منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تحق: محمد الحبيب ابن الخوجة، (بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، 1981م)، ط/3. ص: 39.

[22] الزّعبيّ، زياد صالح، مصطلح الإحالة عند حازم القرطاجنيّ: النّشأة التّاريخيّة والتّجلّيات الرّاهنة، في (مجلّة كلّية الآداب، جامعة القاهرة، العدد: 1، المجلد 60، ، يناير 2000م)، ص: 9-45.

[23] ابن رشيق، علي الحسن القيروانيّ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1996م)، ج/2، ص: 421.

[24] الاصطراف حسب بيان الشامي هو أن يصرف الشّاعر بيت شعر إلى نفسه، والإعارة: إذا كان الشّعر لشاعر أخذ منه غلبة وعنوة، والمرافدة أو الاسترخاء: إذا أخذ البيت على سبَيل الهبة، الاهتدام: إذا كان السّرقة فيما دون البيت، والنّظر والملاحظة: إذا تساوى المعنيان دون اللّفظ وخفي الحفظ، الاختلاس: إذا حوّل المعنى من نسيب إلى المديح، العكس: إن جعل مكان كلّ لفظة ضدّها، الموارد: إن صحّ أن الشّاعر لم يسمع بقول الآخر وكانا في عصر واحد، الالتقاط والتّلفيق: إذا ألّف البيت من أبيات قد ركّب بعضها من بعض.

[25] ابن رشيق، علي الحسن القيروانيّ، المصدر السّابق، ج/2، ص: 423.

[26] إطالة نص ما عن طريق الجناس أو الشّرح أو الاستعارة أو التّكرار أو الشّكل الدّرامي أو أيقونة الكتابة.

[27] إحالة إلى بعض الشّخصيّات التّاريخيّة أو المواقف أو الأمثال فيعبّر عن المعنى المطلوب في إيجاز وتكثيف.

[28] يتمّ هذا باستدعاء معانٍ أو مواقفَ خارجَ نصّيّة وإدماجها بما يتناسب مع النّصّ الجديد.

[29] عمليّة مكملة للاستدعاء، وتتمّ بتحويل النّصّ المستدعي إلى الشّكل الذي يتناسب مع النّصّ الجديد.

[30] عمليّة نقل معنى من لغةٍ إلى لغةٍ أخرى.

[31] وهو مأخوذٌ من نسخ الكتب، ويتحقّق عندما يأخذ الشّاعر أو النّاثر المعنى واللّفظ جميعا أو يأخذ المعنى وأكثر اللّفظ.

[32] هو لجوء المبدع إلى نثر، فيحيله إلى شعرٍ عن طريق إضافة الجانب الإيقاعيّ (العقد أو النّظم) أو لجوؤه إلى الشعر فيحيله إلى نثر (الحلّ)، فيخرجه من ضوابط الوزن والقافية.

[33] وهو إذا كان الاقتباس نقلاً حرفيًّا للآية أو الحديث، فيولّد المبدع معنى من معنى مبدع تقدّمه وإمّا يكتفي بذلك أو أنه يزيد فيه.

[34] هو تذكّر القارئ لقصة أو مثل أو شعر مهتديًا بإشارات يصدرها النّصّ الحاضر إلى النّصّ الغائب بطريقة غير مباشرة.

[35] هو أن يأخذ المبدِع المعنى، ويستخرج منه ما يشبهه.

[36] هو كالاقتباس إلا أنه يخصّ الشّعر، فيتحقّق إذا ضمّن الشّاعر النّصّ الجديد شطرًا أو بيتًا من نصٍّ قديم.

[37] وهو تضمين الشّعر أو النّثر شيئًا من القرآن الكريم أو الحديث النّبويّ من غير دلالة على أنه منهما، وسمِّي أيضًا بالاقتباس.

[38] وهو أن يعبّر مبدع عن معنى ما بأسلوبه، ويأتي مبدع آخر إلى هذا الأسلوب فينسج على منواله.

[39] وهي كالاحتذاء في اختصاصها بالأسلوب، إلا أنها تختصّ باللّفظ والمعنى، وهو التّقليد.

[40] تساوي النّصوص من النّاحية البنيوية والنتائج

[41] كون النّصّ نتيجة تفاعل مع نصوص أخرى، وهذا نوع من الاقتباس.

[42] وهو تداخل النّصوص بعضها في بعض في فضاء نصّيّ عام، حيثُ يحدث التّداخل صلةً من نوع ما بين النّصّ الدّخيل والأصليّ.

43 عدم الصّلة بين النّصوص المتداخلة ووجود الموازاة ومحافظة كلّ نصٍّ على هويّته الخاصّة والمتميّزة.

44 تحاذي النّصّ الحديثيّ والقرآنيّ أو الكلاميّ والفلسفيّ.

45 يقوم على تقابلاتٍ هي نصوص دينيّة وسخيفة وفاجرة، وحكيمة وحمقيّة، مما يبلغ مداه في نقض القرآن الكريم لما ورد في بعض الكتب السّماويّة.

46 علي، عبد الصّاحب مهديّ. معجم مصطلحات التّرجمة التّحريريّة والشّفهيّة. إنجليزيّ–عربيّ، (الشّارقة: جامعة الشّارقة، 2002م)، ص: 154. وانظر كذلك: الشامي محمد أشرف عبد العال، المرجع السّابق، ص: 501، وقد نقلنا عنه تعريف كل من صور التناص المذكورة أو الواردة في هذا الهامش مع تعديلٍ طفيف.

47 Basil Hatim and Ian Mason, Discourse and The Translator, (London/New York,Longman, 1992), p.120-121.

48 See Neubert A. and Shreve G., op. cit. p. 80

49 Beaugrande, R. and Dressler,W, Introduction to Textlinguistics. (London: Longman, 1981) . p. 206

50 Van Dijk, T.A., Macrostrutures, An Interdisciplinary Study of Global Structures in Discourse, Interaction, and Cognition, (Hillsdale,N.J., Erlbaum, 1980), p. 20.

51 See Neubert A., Textual Analysis and Translation Theory, or What Translators Should know about Texts, (Linguistische Arbeitsherichte, 1980), p.38: 23-31.

52 See Neubert A and Shreve G., op. cit. p. 119.

53 See Neubert A and Shreve G. op. cit. p. 120., see also: Al-Shahab, Omar Sheikh, Interpretation and the Language of Translation: creativity and conventions in Translation, (London: Janus Publishing Company 1996). p. 25., See Neubert, A.: "The Impact of Translation on Target Language Discourse: Text vs. System", (*Meta* 35-1, (1990), p. 96-101.

[54] See Wilhelm Von Humboldt, (1916),“from the introduction to His Translation of Agamemnon, trans. Sharon Sloan, in (Schulte and Biguener, eds, Theories of Translation), p. 58. see also Basnett Susan, Bringing the News Back Home: Strategies of Acculturation and Foreignization, in Language and Intercultural Communication, (ed) John Corbett, Guest Editor, Susan Bassnet, (UK: Multilingual Matters Ltd, Vol 5: 2, 2005), p.20-130.

[55] الدّيداويّ، محمد. علم التّرجمة بين النّظريّة والتطبيق. (تونس: دار المعارف، 1992م). ص: 17. وانظر كذلك: عمر، أحمد مختار، العربية الصحيحة.(القاهرة: عالم الكتب، ط/2، 1998م). ص: 62.

[56] يلجأ المترجم إلى الاقتباس أو الاقتراض لسدّ الثّغرة التي يواجهها في اللّغة الهدف مثل المسمّيات التّقنيّة الجديدة أو المفاهيم غير المعروفة لأبناءً اللّغة مثل استراتيجيّة، اللّوبي، الانترنيت، الكونغرس، بنك، الشّيك الماليّ، باص، إلخ.

[57] وهو اقتباس من نوع خاصّ حيث تتمّ ترجمة العناصر المكوّنة للتّعبير الأجنبيّ ترجمة حرفيّة، مثل ترجمة Skyscraper، Hard Disk، chat إلى ناطحة سحاب، قرص مضغط، دردشة.

[58] والمراد به الانتقال من شكل إلى آخر في الرّسالة الكلاميّة على أساس القياس، ويلجأ المترجم إلى هذا الأسلوب حين يتّضح أن التّرجمة كلمة كلمة أو التّرجمة بطريقة الإبدال ينشأ عنها قول صحيح نحويّا.

[59] يستخدم هذا الأسلوب حين لا يجد المترجم في اللّغة المنقول إليها الموقف المرادف في اللّغة الأصل، فيتقدّم بدلاً من موقف آخر على أساس تطابق الموقف.

[60] ميرزهايمر جون ووَولت ستيفن، اللّوبي الإسرائيليّ وسياسة أمريكا الخارجيّة، ترجمة ونشر: مجلّة المستقبل العربيّ، مركز دراسات الوحدة العربيّة، (بيروت: العدد 327، مايو 2006 م)، ص 27-57. وهو مقالة إنجليزيّة منشورة تحتَ عنوان :

“The Israel Lobby”, London Review of Books, Vol, 28, No. 6 (March 2006) وهي في الأصل ورقة عمل رقم (RWP 06-011) قدّمت ضمنَ سلسلة أوراق عمل بحثية من هيئة التّدريس" إلى كلّية كنيدي لنظم الحكم (جامعة هارفارد) في 13

آذار/مارس 2006م. وموقع النّصّ الإنجليزيّ على الإنترنيت: http://papers.ssrn.com/sol3/papers.cfm?abstract_id=891198

61 Bantustans." Microsoft® Student 2007 [DVD]. (Redmond, WA: Microsoft Corporation, 2006).

يُستخدم المصطلح لبلاد بانتو في جنوب إفريقيا، وتضمّ البلاد مجموعة من القبائل الذين يتكلّمون بلغات بانتويّة، وبتأسيس اتّحاد جنوب إفريقيا عام 1910، بدأ الزّعماء البِيض تطبيق سياستهم الوطنيّة للتّمييز العنصريّ، فحصّصوا لأنفسهم ، قطعةً محدّدةً من الأراضي التي يمكن أن يمتلكها السّود ويستوطنوها بمرسوم خاصّ بأراض المواطنين عام 1913، وكانت نسبة هذه الأراضي المخصّصة 7% من العدد الإجماليّ، وبلغت النّسبة 13% بمرسوم آخر عام 1936.

62 Bantustans." Microsoft® Student 2007 [DVD].

63 see http://en.wikipedia.org/wiki/Cantons_of_Switzerland. تاريخ زيارة الموقع 10-9-2007

64 Dilworth Parkinson, arabiCorpus, , http://arabicorpus.byu.edu تاريخ زيارة الموقع: 12-11-2—7

65 Dilworth Parkinson, op cit. تاريخ زيارة الموقع: 12-11-2—7.

أسفر المدوّنة عن أن اللّفظ "تنين" تكرّر (208) مرة في المصادر: صحيفة الحياة عام (1996، 1997)، والثّورة، والأهرام (1999)، تري بنك، سلبس، والتجديد (2002)، وألف اللّيل وليلة، وبليس أسطقس، وفوررد. وتثبت النّتيجة أن الكلمة "التِنين" متأصّلة في كيان اللّغة العربيّة وشهيرة، إلا أنها أقلّ تلازمًا مع "داوود".

العربية في ظل العولمة

أ.د عبد الجليل مرتاض

(ج / تلمسان)

العولمة الخلفية للغة العربية:

حين قيّض الله لي أن أسْهم، بما يسَّر الله لي أن أسهم به، في العدد الخاص المتميز الموسوم "العربية: الراهن والمأمول" الصادر عن المجلس الأعلى للغة العربية سنة تسع وألفين، بمقالة كان موضوعها "العربية ورهانها العولمي لسانياً"، وذلك بمناسبة مرور العشرية الأولى على ترسيم المجلس الأعلى للغة العربية، ظهر لي حينها أن مقالتي تلك، وعلى الرغم مما أخذت مني من جهد جهيد، ووقت طويل، ومن استثمار لمعارفي الخلفية والآنية، بقيت إشكاليتها وطروحاتها تحتاج إلى توضيح أعمق، وتقريب أكثر، وتوظيف أدوات أخرى خارج المعارف اللسانية، وبعبارة أخرى قد تكون أزيد دقة ونصوعاً أن ذلك المبحث الطويل كان موضوعه وقفاً على الإرهاصات والإحالات اللسانية التي لا تدع أدنى مجال للشّك لدى كل مرتاب بقدرة اللغة العربية على الحياة ومقارعة أية لغة عالمية لِمَا انمازت به من إرث حضاري، ولِمَا أسهمت به من تواصل ثقافي إنساني بين الشرق والغرب.

ولا تُعدّ الإشارة المُلْمَحُ إليها أعلاه أن هذه السطور سوف تستكمل المبحث المطبوع استكمالا شافياً، بل كل ما في الأمر أننا سنحاول هنا إثارة ما كان بودّنا لو أُثير سابقًا، ولاسيما ما يتعلق بتعميق مفاهيم العولمة بعامة، والعولمة اللغوية بخاصة، وما يتصل بالآفاق الاستشرافية للغة العربية وما ينتظرها من منافسة قوية وحتى مناهضة شرسة من لغات حديثة فرضت نفسها منذ أكثر من قرنين في مختلف الممارسات التواصلية والتربويّة والعلمية، وها هي ذي شراستها تستفحل استفحالا شرهاً لدواعي علمية وتكنولوجية مقابل انكماش لغات إنسانية أخرى وتعرّضها للضعف والهجر ووضعها على محك الزوال.

ولما كان البحث الحديث يقتضي من صاحبه أن يحدّد الموضوع المراد علاجُه حتى لا يدع كثيراً مما قد يكتنفه من ضبابية محتملة، فإننا نرتئي هنا أن نوضّح للمتلقي ما يختلف في عموديته بين مجتمع ومجتمع، أو بين ثقافة وثقافة، أو حتى بين هيمنة وهيمنة، حتى كأنما القوم أضحوا يتفقون فيما يختلفون اتفاقا أكثر فيما هم فيه مختلفون، أو حتى كأنما الاتفاق أصبح بين القوة المهيمنة مصدر إزعاج وقلق لهم أزيد مما أمسى لهم مآل أريحية وارتياح، أو قل كلما سبق قوم قوماً آخرين في علومهم وصناعاتهم وتقدمهم إلا وصحبهم فراغ في الفضيلة والأخلاق.

وإني هنا لا أخدع القارئ لأزعم له أنني أعرّف العولمة تعريف منظّر، بل سأحاول مناوشة هذا المصطلح "المعسول المسموم" تعريف متلقّ ومحلّل، وإلا زادت الهوة، وأفلت تحديد الموضوع منا، وبعبارة أقل خداعاً، فإننا نجتزئ هنا بتحديد هذا المفهوم الغدّار الفضفاف تحديد مستهلك نابش لا تحديد مُنتج، لأن إدراكي لهذا المفهوم الشائك لم يَأتِ بعدُ على مَنْتِجِه أي لم يحن الوقت الذي يمكّنه من أن يُنْتَج فيه.

العولمة؟

وأعتقد أن مفهوم العولمة، مع ما يحمله من تضمينات بمصطلح اللسانيين المحدثين، سيبقى مفهوما غير جامع، إذا كان لا يتجاوز دلالته الذاتية الرتيبة، وسيكون أصدق في شموليته الكونية حين يتحرّر من قيود مادة إعلامية برّاقة لا تنعكس إيجابيا ورفاهية وحرية وسلاماً إلا على الأقوياء، على حساب فئات إنسانية أخرى شبه مشلولة هنا وهناك من كوننا.

وتفيد بعض المراجع أن أول من تبنّى فكرة مفهوم العولمة بعد عالم السسيولوجيا الكندي مارشال ماك من جامعة تورنتو "زبيغنيو بريجينسكي" أحد مستشاري كارتر، الذي صرّح في نهاية السبعينيات من القرن الماضي أن أمريكا وحدها تمتلك خمساً وستين في المائة من المادة الإعلامية الكونية، ومن ثم فهي جديرة بأن تتخذ مثالاً عولميا للحداثة الأمريكية "المتميزة" بالحرية وحقوق الإنسان[1].

إن هذا الخطاب الأمريكي المتعالي زاده تعالياً ومكنة كونُه صادف فتور القوة الشرقية ثم انهيارها بعد حين، ومنها أفول شمس الاتحاد السوفياتي وسقوط جدار برلين، مما جعل الحرب الباردة تنحصر في قوة عظمى واحدة تتصدرها أمريكا، وهو ما يتعارض مع فكرة أو آمال العولمة "الحقيقيّة" نفسها، ولا أدلّ على ذلك من أن هذا المصطلح القديم الجديد أصبح الساسة والخبراء والإعلاميون يكثّفون من تَرْداده منذ العقد الأخير من القرن الماضي، وهي الفترة التي صادفت انفكاك المعسكر الشرقي وتحوّله إلى دويلات مستقلة، وهو أمر جيّد إذا كانت العولمة في أحد أبرز مفاهيمها تعني التنازل عن اللاَّمركزية، واحترام الأغلبية للأقلية، والتخلي عن التسلط والهيمنة.

وما من شك في أن مفهوم العولمة أو الكونية أضحى لا يزيد إلا تبايناً كلما تقادم العهد عليها، وستظل كذلك ما دامت لا تعبأ بالدرجة الأولى، إلا بالجوانب الاقتصادية والسياسية والأحلاف العسكرية دونما التفات كبير إلى جوانب أخرى للشعوب المستضعفة والمتخلّفة ثقافياً واجتماعيا وعلمياً، وما دامت الفضاءات للدول الصناعة الكبرى موصدة أمام المدد البشري الزاحف من دول الجنوب، وما دامت هذه الدول أضحت لا تشكّل يوماً بعد يوم إلا اتحاداً في تعيين نوعية المواطن بيولوجياً وجغرافياً مقابل تشديد الخناق على أي غريب لا يتناسب عرقيا مع هذه التكتلات الجديدة.

ما الجديد فيما يسمّى "العولمة"؟

وهل العولمة هي المساواة الكوكبية في ثقافتنا وتجارتنا وتقدّمنا التكنولوجي والمعلوماتي وإتاحة الفرص للتعليم والشغل والعلاج... أم هي الاستمرار في أن يزيد القوي قوة، والضعيف ضعفا، والعالم علماً، والجاهل جهلاً،...؟ وإذاً، ما الجديد فيما يسمى بـ"العولمة"؟.

"حتى منتصف القرن (الماضي) ، ظلت عالمية نمط الإنتاج الرأسمالي مقتصرة في الغالب على دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والاستيراد والتصدير، مع بقاء دائرة الإنتاج الرأسمالية ودورتها في دول المركز الأصلي وحدها. العولمة وفقا لهذا التحليل، هي إذن، وصول نمط الإنتاج الرأسمالي.. إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها.. العولمة بهذا المعنى هي رسْمَلة العالم على مستوى العمق بعد أن كانت رَسْمَلَتُه على مستوى سطح النمط قد تمَّتْ"(2).

ولو كانت العولمة ديناً يُؤْمَن به لَمَا آمن به غير الأقوياء، لأن الأديان السماوية تدعو دوماً إلى المساواة، وأَخْذ حقّ الفقير من الغنيّ، وإنصاف الضعيف من القوي، بيد أن العولمة لا تزيد الغنيَّ إلا غِنًى والفقير إلا فقراً، ولن تقرِّب الضعيف من القويّ، بل تعمل على توسيع الهوة بين الطرفين، "بأي معنى تعدّ العولمة مرحلة جديدة وعهداً جديداً؟ ألم تنشأ الرأسمالية مُعَوْلَمة؟ ما الجديد في عولمة الخمس الأخير من القرن العشرين؟ أليست المؤسسات التي تحمل راية العولمة وتعزّزها، مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي واللغات والمنظمات التابعة لهيئة الأمم، وليدة حقبة الحرب الباردة، ووليدة اتفاقيات بريتون وودزو الهيمنة الأمريكية على الاقتصاد العالمي؟... أين الجديد إذاً في العولمة؟"(3).

رؤية المناهضين للعولمة:

ومن ثمَّ، فإن غير واحد من الدارسين المناهضين للعولمة، لا يرى في العولمة إلا مجموعة متزامنة من الظواهر العالمية الجديدة الناتجة عن جملة من التراكمات القديمة"(4) للأسباب الآتية(5):

1) عملت ثورة الاتصالات والمعلومات على تذليل السبل الأكثر حظوظا أمام المدّ الرأسمالي النقدي وتداوله عالمياً بتحديده في سِكَكٍ دون سِكك شعوب أخرى لدواعي غريبة عن العقول السليمة، كما أمكن هذا العامل من عولمة الإنتاج ورسْمَلَتِه مضافا إلى الرأسمال النقدي والرأسمال التجاري واحتكار رؤوس الأموال والتحكم في سيولتها وصيرورتها دون أن تفكر (العولمة) في عواقبها السلبية على الفقراء والضعفاء والطبقات الكادحة، ولكن ها هم أولاء منظّروها والراضعون من ألبانها جعلوا يدفعون هنا وهناك جزءاً غير يسير من جشعهم

وتسلّطهم الذي تجاوز البطون والبنوك والاحتكار التجاري لينتقل إلى تدخلات سافرة وغير أخلاقية في شؤون كل دولة لا تنبطح أمامها تحت أسماء برّاقة زائفة، تارة باسم الديمقراطية، ومرة باسم حقوق الإنسان، وطوراً بدافع حماية الأقليّات، وسواها من مصطلحات تُختلق اختلاقا كذرائع عدوانية لإركاع الشعوب الأبيّة إلى أحادية أمبريالية في ثوب قديم جديد.

2) أدّت العولمة إلى اختلال عالمي نتيجة لتفكيك نظم الإنتاج، الأمر الذي آل إلي المزيد من بروز شبح البطالة، وشحّ سوق العمل، وبوار الإنتاج المحلي لتواضع جودته.

3) قبل نهاية القرن الماضي ظهر ما أصبح يعرف بالشركات المتعددة الجنسيات ظهورا صارخاً، وها هي الآن تتحكم في رقاب ثلاثة أرباع الأنشطة الاقتصادية عالمياً، إلى درجة أن الإحصاءات تبيّن أم مردود أو دخل خمسين من هذه الشركات العملاقة يفوق دخل ثلثي أقطار العالم !.

4) تنهض قوة العولمة على أسس طائفية وضيقة وبعث النعرات الجهوية على حساب الوحدة الوطنية للشعوب وتنميتها وتعايشها السلمي.

ونظرا للظواهر السلبية التي لا تُعَدّ ولا تُحصى لما يسمى بالعولمة، فإن المناهضين لها بمفهومها الأحادي التسلّكي تشاءموا منها، وغَدوا لا يرون فيها إلا فخًّا أوْ شَرَكًا يُنْصَبُ للإيقاع بالمغفَّلين أو الأنظمة المستسلمة التي ترى في انبطاحها لها حماية لسلطانها على حساب عزّتها وكرامة شعوبها.

العولمة موجة لا مفرّ منها

ومع ذلك، فإن ما سبق أن أشرنا إليه ليس مبرّرًا للاطمئنان من النجاة من مخالب هذا الوباء الذي لا مردّ له بعلاجه بما ينسجم معه دون الانصهار في

بوتقة انصهار مادة خامية حتى لا يُصنَع بنا ما يُشاء لنا، ونصير معَرَّة أمام الشعوب القوية أو من ماضي التاريخ.

إن مصطلح "العولمة" غدا من أكثر "الكلمات تداولاً في عالمنا المعاصر... لكن الفلسفة تعلّمنا بحكم تجربتنا أن الشيء بقدر ما يكثر استعماله يكثر إهماله، ... وليس المقصود بالإهمال هنا التقليل من أهمية هذه المقاربات"[(6)]، بل أصبح هذا المفهوم الذي لا يخلو من ضبابية لدى الضعفاء ووضوح عند الأقوياء، سمة من سمات عصرنا، ويُعنى به عموما التطبيع العالمي للكون حباً أو كرها بكل إشكالاته ومكوّناته وحركاته وصولاً إلى كلية قطبيّة في العيش والتفكير والتذويب للهويات (وخاصة اللغات).

وفعلاً، فإن موجة العولمة شملت البر والبحر من كرتنا الأرضية، وتغلغلت وسط أحيائنا وقرانا، وبين المقبلين عليها والمدبرين عنها، بل أصبحت كأنه أمر مفروغ منه، ولربما أصبح القرار الحاسم لا يُختم خِتامه في هذا البلد أو ذاك إلا بعد مشورة صانعي ومروّجي هذه العولمة، بمعنى أن هذه الأخيرة لا يوجد في قاموسها الآمر الناهي عولمة فرعية أو حيادية، مما جعل الدول المتخلفة تقنياً ومعلومياً تتوجس خيفة من أربابها الذين صاروا يتخذونها ورقة ضغط كلما تعارض نموّ اقتصادي، وتنور علمي وثقافي، وتحرّر سياسي هنا أو هناك مع مصالح أربابها الشرهة التي لا تقنع ولا تشبع.

العولمة حق أم باطل؟

ومع ذلك يرى بعض المتفائلين أن فرص العولمة "كثيرة ومتنوعة، وبالإمكان استغلالها لتحقيق أهداف محلية ووطنية وغايات إنسانية وعالمية، فالعولمة تحمل معها فرصاً معرفية هائلة مصاحبة للثورة العلمية والتكنولوجية،

والتطورات في مسائل الاتصالات، وتقنيات المعلومات،... والعولمة تتضمن على ما يبدو فرصا استثمارية ضخمة وواضحة ومرتبطة أساسا بالتطورات المتسارعة في بنية الاقتصاد العالمي، واتجاهاته الجديدة نحو فتح الأسواق المالية والتجارية، وتقليل القيود على حركة المال والسلع والخدمات والمعلومات"[7].

بمعنى أن العولمة حتى لا تبقى "غَوْرَبَة" -بإعجام الغين- كما أطلق عليها هذا المصطلح عبد الملك مرتاض[8]، يتطلّع الضعفاء في الـ"عوربة" و"الأفْرَقَة" و"الأسينة" و"الأَمْركة" الجنوبية إلى أن تنطلق (العولمة) من نقاط كونية مختلفة، ومن إرادة وئام وتعايش متبادلين، ومن توزيع الثروة بالحق والعدل، وتعميم التعليم، والسماح للتكنولوجيا الحديثة أن تعُمّ البلدان المتخلفة بأكثر من قرن أو أكثر عن مروِّجي عَوْلمتهم، وينبغي على الدول "المتقدمة" أن تكبح جماح هيمنتها على المواد الأولية التي تزخر به الدول المهمَّشة، وأن تتساوى الشعوب في الحقوق والواجبات، بل لعلّ أكبر عائق من عوائق العولمة المزعومة أن مروّجيها ليسوا مستعدين لتغيير ما بأنفسهم من تعالٍ غير إنساني ولا أخلاقي، وإلا فكيف تكون العولمة عولمة، وأنت تُقْهَر، وترَاقَبُ، وتُؤمر، وتُنهى، وتهدَّد بتعلّات جوفاء في عقر فراشك،... وهو يبتكر، ويصنع، ويتطور، ويوعدك برؤوس نووية وصواريخ عابرة للقارات، ويكتنز في خزائنه ثروتك لتغدو يوماً بعد يوم جزءاً من مدَّخراته؟ كيف تكون العولمة، عولمة وصوتُ بلد واحد يقهر أصوات الكوكب الأرضي كله؟ كيف تكون العولمة عولمة وبطون تشكو التُّخَمَة وأخرى تتلوَّى طوًى؟

وها هو ذا غير واحد من مشخِّصي هذا الشبح المسمَّى "عولمة" يبرز أنها "لا تَعِدُ بمعالم أكثر أمناً واستقراراً وعدالة وديمقراطية"[9] مشيرا إلى أن العولمة "لا تسعى بالضرورة إلى خلق عالم أكثر إنصافا للمجتمعات التي لا تشعر حاليا بالإنصاف. إن تحقيق الأمن والاستقرار العالمي والعدالة بين الدول والديمقراطية لشعوب ليس من اختصاص العولمة، كما أنها لا ينبغي التصور أو التعامل مع العولمة كالمنقذ القادم لإنهاء فقر الفقراء، وإخراج الشعوب الفقيرة من فقرها، أو تخليص المجتمعات البائسة من بؤسها، أو مساعدة الدول المتخلّفة لإنهاء تخلفها العلميّ[10].

وبما أن حديثنا ههنا لا يخص مفهوم العولمة الذي ظهر في قاموس أكسفورد أول مرة من عام واحد وتسعين وتسعمائة وألف، إلا توطئة للحديث عن مستقبل اللغة العربية في ظلّها، فإنها لا يجوز لنا هنا أن نجعل موضوعنا الأساس يتيه فيها تيهاناً ينأى عن مغزاه الجوهري، وكل ما كان بودّنا الإشارة إليه أن العولمة تخدم القوي والغني والمتقدم أكثر مما تسعف الضعيف والبائس والمتخلّف، فضلاً عمّا يشوبها من تراكمات فكرية، وتصورات آنية ومستقبلية متضاربة حتى وإن كان المبشِّرون بها يدّعون للمغفّلين أنهم سوف يقلّصون الكوكب كله إلى فضاء قروي صغير يسع الإنسانية كلها جمعاء، مع أنها ليست أكثر من نظام جديد "دُبِّر ليلاً" لدعم الأقوياء، وطحن الضعفاء وإبكائهم، وتمكين صُنّاع قرارها من التحكّم والهيمنة حتى فيما يأكلون ويشربون ويلبسون.

وحتى لو قُدّر لهذه العولمة أن تغدو يوما رسالة أرضية شمولية، فإنها ستظل صيحة خرساء، وظاهرة عرجاء، ما لم تتمتَّع بقيم خارقة، وما لم تستمدَّ قيمها من الشريعة الربَّانية التي سبق للرسائل السماوية السمحة أن نادت بها،

وآخرها الإسلام الذي رسم معالم واضحة للتعايش الإنساني الشمولي قبل اكتشاف نصف هذه العولمة بمائات السنين، أقول هذا ليس بدافع ديني ولا غريزي، ولكن من باب أن الإنسان خارج الدين السماوي الصحيح يكون تفكيره معلَّقاً دوما بالجانب العاطفي والعرقي والوجداني والجهوي والإقليمي،... في حين أن الإسلام ينبذ هذه العوامل مرسِّخا بدَلها الإخاء، والمساواة، والتراحم، والتعايش، والتعارف،... بصرف النظر عن الأعراف، والألوان، والثقافات، وحتى الأديان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾[11]، والمفسّرون يعرفون دوافع وأسرار الاستعمالات اللفظية القرآنية بين "الناس" و"المسلم"، و"المؤمن". حتى وإن كان لفظ "المؤمن" أعلى درجة، وأنه لفظ دلالي قطعي شامل، ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾ [12] مباشرة بعد الآية السابقة.

العولمة الخلفية للغة العربية:

هل يسمح لنا هذا العرض لإعطاء برقانٍ عن حال اللغة العربية خلفياً دون أن نقع في شَرَكِ العوامل والتضاربات التاريخية؟ أعتقد أن الخلاص الأكثر ملاءمة لإجمال هذه الخلفية أن نتفادى، بكل حيطة ممكنة، الاستغراق والاستطراد في تعميق هذه الإشكالية التي لا تَخْفى قليلا ولا كثيراً على العالمين بها وبخباياها.

ولذا، فإن الهدف من بضع هذا الجزء من موضوعنا أن نبرز جوانب مشرقة من المعالم العولمية الخلفية للغة العربية، وليس الحديث عن تاريخية اللغة العربية، وهو موضوع آخر.

ومما سبق لي أن دوَّنته في بحث آخر، وأنا أتحدث عن عراقة اللغة العربية ومغامراتها العالمية، جاء: "ينبغي ألا يأخذ أحداً منَّا ذهول بالطبيعة التي ميزت اكتساح اللغة العربية للعالم القديم، فهذه اللغة سبق لها أن ضربت بجرانها قبل مجيء الإسلام، ونزول القرآن بها بقرون لا تقلّ عن ألف عام، ونحن لا نعجب أيَّمَا عجب لضياعها طالما أن إبداعها الفني، وتواصلها الحضاري، وكل ممارسة بها، إنما كان يقوم على الطابع الشفهي، وما وصلنا منها مسطوراً في الصدور، إنما هو إرث حقب عديدة موغلة في قدمها، لا إرث قرن أو قرنين كما يَوْهَم غير واحد من الدارسين، لأن ما يُمارس شفويا بين قوم زالوا لا يمثله قوم خَلَفوا، وما استطاع التدوين أن يتدارك، وبشقّ الأنفس، نماذج أدبية راقية ليس إلا سليل أو وليد تراث أدبي يتجاوز قرنا ونصفاً قبل الإسلام بزمن بعيد".

البعد العولمي الأثيل للعربية:

وسبق لي أن وقفت على هذه الخلفية العلمية للغة العربية في أكثر من مرة، ومما أميل إليه ميلاً قوياً إلى أن يثبت العكس أن هذه اللغة العريقة تواصل بها جماعات بشرية متحركة وأخرى ثابتة، فالصنف الأول مشخَّص في أهل البادية أو الأعراب، والضرب الثاني مجسَّد في سكان الحاضرة، ومن الصنف الأول ظهر ما يعرف بـ"بَدْو الآراميّين"، قبل أن يتحضّر فريق منهم، وما بدْو الآراميّين في بعض الرؤى المأنوس بها إلى حد كبير، إلاّ هؤلاء العرب أنفسهم،

ولم تكن لغتهم إلا هذه العربية من بادية وباقية، دون الادعاء –طبعا– بأن تلك اللغة هي –تماما– اللغة نفسها التي أبدع بها الشعر الجاهلي، ونزل بها القرآن الكريم.

كان للعربية صولات وجولات مع لغات لا تقل عنها رقياً ولا حضاريا، ولم تَتْمَزِ العربية عن سواها من اللغات العريقة حضاريا مثل الفارسية، والرومية، والهندية، إلا لكون الذكر الحكيم نزل بها، فوسعته مبنى ومعنى، وحقيقة ومجازاً، وبلَّغته خير بلاغ للعقول والقلوب، للأولين والآخرين، وللأميين والمتعلمين، وللمتقدمين والمتخلّفين،...

ليس من السهل على لغة بدوية لم يسبق لها أن عبَّرَت بما سَيُحَتَّمُ لها لاحقاً، وفي وقت خاطف، أن تستوعبه وتعبر عنه، أن تتفاعل بين عشية وضحاها مع لغات راقية فاقتها ثقافة وعلما وأنواعا أدبية، ولكن هذا ما حدث، إذ سَهُل على هذه اللغة أن تخرج من قوقعتها المحلية إلى العالمية، فرسَتْ في سواحل إفريقية الشرقية، وتغلغلت في أعماق إفريقية الغربية، مع ما في هذه المواقع من أودية وأدغال وشعاب وأخطار، ومع ما فيها من مائات اللغات واللهجات والأثنيات، وذلك كله لم يمنعها لأن تضرب بجرانها في ربوع شمال إفريقية برمتها، فضلاً عن جنوب أوروبة، دون أن تتكمش أمام ثقافات وفلسفة وعلوم عصرية متطورة في فارس، والهند، والروم.

شفافية العربية وتعايشها ثقافياً:

إننا لا نشكّ أدنى شكّ في أن ارتباط العربية بالإسلام ساعدها وشدّ عضدها، وحرّرها من كونها لغة صحراوية معزولة عن العالم الخارجي إلى لغة عولمية مزدهرة ما عتَّمَتْ أن جعلت تبتلع غير قليل من اللغات واللهجات،

ووسعت مجمل الثقافات والعلوم تعريبا أو ترجمة أو هما معاً، غير أن هذا الإقرار الموضوعي لمشاهد اللغة العربية في ذلك الحين، لا يجعلنا في غفلة من أمرنا لأن ننسى الشفافية اللسانية التي وهبها الله لهذا اللسان كبنية لسانية داخلية مستقلة لا صلة لها بأي محرك خارجي بما في ذلك الإسلام نفسه، بدليل أن التواصل الحضاري والاجتماعي ونحوهما بهذه اللغة كان يصدر من ينابيع عناصرها المشخَّصة في بنيات صوتية، وفونولوجية، وسانتكسية، ومورفولوجية، ومعجمية، ودلالية، وهي كلها بنيات ناضجة سلسة ظل القوم يتواصلون بها تواصلا سليقا وشفهياً ردحاً من الزمن.

ومما تتميز به العولمة الخلفية للغة العربية منذ زهاء أربعة عشر قرنا أنها لم تُقَزِّم الثقافات واللغات التي تماسكت بها تماسكا سريعاً، بل تلاقحت وتعايشت معها، فتولّدت من ذلك ثقافات جديدة لم يتفق الناس كلهم إلى اليوم على أن يُضفوا عليها مصطلحا موحَّداً، حتى وإن كنا نفضل، مع المفضّلين، تسمية "عربية–إسلامية"، إذا لا يمكن تصوُّر ثقافة إسلامية كونية معرَّاة كلياً أو جزئيا من ملامح عربية، ولو بالنبي واللسان، وبالعكس لا يمكن الإقرار بثقافة عربية يُقَيَّض لها أن تكون عولمية بدون الإسلام، ولا وجود لتصارع أحدهما مع الآخر، بل هما وجودان متكاملان.

المدى الوظيفي للعربية:

وحتى نقترب من توضيح ما أثير أعلاه بصورة غير مسيّسة ولا مؤدلجة، وبعيدة كل البعد عن أية ذاتية مريضة، فإنه شتّان بين لغة يقتصر بعدها الوظيفي على شأن من شؤون الحياة ضيقة كانت أو واسعة، ولغة ذات بعد كوني سَرْمَديّ تصل المؤمن بربه عبر خيط أبيض ناصع، إنها مشيئة الله لأن

تسمو وتسمق هذه اللغة البدوية التي لم يكن يُعبأ بها أكثر من رموز اتصال منقبعة في ربوات تلّية ونجدية ومجاهل شبهه خالية، وقضى ربك قضاءه لأن تُكَرَّم من بين ألوف لغات المغمورة لتلقّي خطابه وتبليغ رسالته للعالمين أجمعين.

وما أشرنا إليه سابقا ينبّهنا إلى حقيقة غائبة قلّما يهتدي إليها من ينظر إلى عمق الأشياء نظرة سطحية ساذجة، حين يحكم على الظواهر المتجانسة في وظائفهما حكما عاما أو مطلقا بدعوى أن النماذج المثليّة متضاهية، أو بدوافع أن اللغة ما هي إلا رموز صوتية "يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"، ونحن إذ لا نماري هذا التوجه أي مماراةٍ بكون اللغات كلها تؤدي وظائفها التواصلية الاجتماعية تبعاً لنشاط قومها الثقافي ومستواهم الفكري والحضاري، فإننا لا نجعل اللغات كلها في مِحَكٍّ طاقويّ واحد، فهي تتضاهى مثليًّا وتختلف قليلا أو كثيراً في التعبير عن الأبعاد التبليغية الممكنة من الأبعاد اللاممكنة "ومع تعدّد زوايا النظر وتنوّع مجالات البحث والمقاربة، فإن ذلك لا يجوز أن يحجب عنا سمة جوهرية من سمات اللغة العربية، تتمثل في ارتباطها الكبير بالإسلام وبكتابه الخالد، وهو جانب أصبحت بعض التوجّهات الثقافية تراهن على تغييبه وطمسه بدعوات استواء اللغات وتماثلها في أداء مهمة التواصل، وسحب القداسة عن اللغة وتهيئتها لأن تدرس دراسة موضوعية محايدة... والواقع أن اللغات من حيث هي... لا تصوّر الواقع كما هو، وإنما تصور رؤية الناطقين بتلك اللغة إلى الواقع، ولذلك تتفاوت اللغات، ويغيب في بعضها ما يوجد في غيرها تبعاً لتباين النظم القيمية والمناخات الثقافية التي تنطلق منها[13].

إنّ العولمة الخلفية للغة العربية من عولمة الإسلام، وأعتقد، وأنا مجرَّد من أي نزعة دينية أو قومية، أن اللغة التي نهضت بهضم معاني القرآن وسبكه وتبليغه للأمي والمتعلم، للعربي والأعجمي، كانت مؤهّلة على التفاعل والتلاقح والتثاقف مع ما تعانقت فيه بثقافات من أقصى شرق آسيا شرقا إلى أوروبة غرباً.

العربية يُنْبوع حياة وما بعد الحياة:

ومما لفت انتباهي ما وقفت عليه لدى ابن فرندة جاك بيرك، من أن اللغة العربية لا تمت "إلا مطلقا إلى عالم الناس، فهي تبدو وكأنها معارة لهم، وهي تختلف دائماً في جوهرها عن لغة الحياة، وتزدري الرموز التي تستخدمها، الأشياء المتعلقة بالحياة اليومية، فهذه الرموز تحلق فوق الأرض،... وهو أنها تنزيل من السماء، ولا تنبع من الأرض، وهذا هو مبدأ اللغة على الأقل،..."(14). والواقع الأقل رداً على هذا القول أن العربية لغة الحياة، ولغة ما بعد الحياة، فهي لغة الحياة بشكل مسرف حتى ما قبل نزول القرآن في صورها وأوصافها وتجريدها وتجسيدها، والشعر الجاهلي مثال حيّ على هذا المشهد الحياتي، ولغة ما بعد الحياة كما نجدها في مشاهد قرآنية، حيث تقرّب لك البعيد، وتُبْعد عنك القريب، وتطير بك من المجهول إلى المعلوم، وتشخّص لك ما لا يمكن تجريده، وتجرّد لك ما لا يمكن تشخيصه، كل ذلك في قالب لساني ينساب انسيابا طيّعاً ذلولا يجعلك لا تحس إحساسا ما ورائياً، ولا تشعر بتاتا بأنك كامن في عالم، وهي كامنة في عالم آخر، واللغة العربية بهذا المفهوم الذي لا نرجو أن يكون فضفاضا، تجمع بين الوجود وما هو موجود، بين المرئي واللامرئي، بين ما تم خلقه وإنجازه وما لم يَئِن حينه بعدُ.

ومن ثمّ، فإن الذين يزعمون لنا من غربيين ومستغربين أن الفصحى ليست لغة حية، إنما هم قوم لا يميّزون بين لغة الحياة وحياة اللغة، وبين لغة الواقع وواقع اللغة، إذ يمكن لحياة أن توجد بدون لغة، وواقع أن يكون بدون لغة، ولكنه لا يمكن للغةٍ أن توجد بدون حياة، ولا للغة أن تكون بغير واقع، أنَّى لا يكون الأمر إلا كذلك، ولغتنا وعاؤنا الذي لا ينفصم عنها؟.

واللغة العربية إذا كانت قد تجاوبت "مع معاني الإسلام واستوعبتها وأدّتها للناس، فإن ذلك لا يعني أن العربية لغة دينية فقط،... وإنما الصواب أنها لغة الحياة بكل شساعتها، وهي لغة تختزل وعي أمة كاملة متعددة الأعراق، أسهمت في بناء حضارة شامخة، ومتْنُ هذه اللغة ليس مجرد ألفاظ صماء تُرصُّ على نمط تركيبي معيَّن وفق نظام دلالي محدّد، وإنما تتحمل كل عبارة شحنة من ذهنية الأمة وذاتيّتها وخصوصيتها، فلذلك يستحيل أن تقوم لغة أخرى مقامها أو تسدّ مسدّها"[15].

دور الإسلام في عولمة العربية:

وإذا كنا ألمحنا غير ما مرة إلى ربط عولمة العربية منذ قرون خلت بإشراق الإسلام في بقاع شاسعة من المعمورة القديمة، وإذا كان صاحب ذلك الإشراق تلاقحٌ تعدّديٌّ آل مآلاً سريعا إلى تربة ثقافية خصيبة، فإننا لا ننقص من قيمة وتأثير لواقح أخرى تبلورت في التنوع والاختلاف من المناخ إلى الأرض فالإنسان، ولكن مع ذلك "فإن الإسلام قد اعتمد اللغة العربية منطلقا لإحداث وحدة ثقافية مشتركة بين المسلين على اختلاف مواقعهم الجغرافية وانتماءاتهم القومية، فاستقطبت العربية سكان جزر القمر، وسكان بعض الجهات في العمق الإفريقي مثل نيجريا، ومالي، وتشاد، والصومال، وأوغادين، وشمال إفريقيا،

وشعوباً كثيرة في آسيا الوسطى، والشرق الأوسط، وفي أوروبا، وفي مناطق عديدة من العالم، يُتْلى فيها القرآن، ويُعبد فيها الله، ويُحمد ويمجَّد بلغة القرآن"[16].

وها نحن أولاء نجد غير واحد من الأجانب ذوي النزعة العلمية الموضوعية يقرّون بدور الإسلام في نشر العربية عبر رُقع واسعة من العالم، فهذا العلامة الألماني يوهان فوك يقول: "لم يحدث حدث في تاريخ العربية أبعد أثراً في تقرير مصيرها من ظهور الإسلام. عندما رتّل محمد(ﷺ) القرآن على بني وطنه، بلسان عربي مبين، تأكدت رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد كانت ذات دلالة عظيمة النتائج في مستقبل هذه اللغة، ولا ينحصر هذا في المقام الذي أخذته العربية، منذ ذلك الوقت في العالم الإسلامي كله من حيث صارت لغة الدين والحضارة على الإطلاق ... وبذلك صارت العربية لغة الطبقات الموجِّهة في دولة سرعان ما امتدَّت رقعتها، في أوج اتساعها وانتشارها بعد سنة 700م، من إسبانية غرباً، إلى أواسط آسية نحو المشرق،... ولم يقحم سقوط الدولة العربية (الأموية) سنة 750م لغة العرب معه في الاضمحلال والانحلال، بل لقد شهد عصر النور في أول الدول العباسية،... كما أن انحلال الدولة العباسية إلى دويلات عديدة مستقلة ... في سنة 935م لم يزعزع من مكانة العربية التي ربطت إذ ذاك جميع أقطار المدنيَّة الإسلامية، على أنها اللغة الأصلية للعلم والأدب، برباط جامع وثيق"[17].

ويبرز يوهان فوك Johann Fück في موضع آخر "أن لغة القرآن قد صارت في شعور كل مسلم، أياً كانت لغته الأصلية جزءا لا ينفصل من حقيقة الإسلام، حتى إن الفرس الذين باشروا الحكم إذ ذاك، لم يكونوا يستطيعون التفكير في رفع إحدى اللهجات الإيرانية لتكون لغة الدولة،... بل حتى

الشعوبيّون الذين ادّعوا تفوّق الشعوب غير العربية، لم يستطيعوا أن ينقصوا شيئا من مكانة العربية وقيامها مثلا أعلى"[18].

تصوُّرنا السداسي للعولمة اللغوية:

وهذا ما أكده مستشرق ألماني (نولدكه) بشأن تأثير القرآن الكريم في بسط اللغة العربية سلطانها بسطاً لم يظفر به أي كتاب سواه في العالم[19]، بل تكهن بعض الدارسين الاستشرافيين الموضوعيين بأن هذه اللغة ستبقى حية، ويموت غيرها، ما دام القرآن يُتْلى بها، وها هي اليوم صيحات تتعالى مؤكّدة خلود اللغة العربية خلوداً أبدياً ضمن اللغات الست من بين ألوف من اللغات المهدّدة بالزوال في ظل عولمة سداسية .

- عولمة مُؤَمْركَة شمالية
- عولمة مؤمركة جنوبية
- عولمة مؤسْينة
- عولمة مؤوررَبَة
- عولمة مؤفرقة

لا يمكن لوجود عولمة في شكل "قرية صغيرة"، كما يشاع من لدن منظريها، خارج هذه العولمة الفرعية، وكل شكل من أشكال عولمة أحادية هنا أو هناك ليس إلا مظهرا مخزيا من مظاهر الخداع والتسلط والهيمنة.

أصول العربية غير حديثة:

وإذا ما حرصنا على الإشارة إلى العولمة الخلفية للغة العربية، فليس من باب اللغو أو الاستعراض المعلوميّ الذي يعرفه مؤرّخو اللغة العربية أفضل مني، ولكن من باب دخول البيت من بابه لا من نافذته، بمعنى أن اللغة العربية قديمة قِدم أرقى وأعرق لغة ظهرت قبلها أو أثناءها في إحدى العولمات

السّت الفرعية، بل أثبت علماء هنديون مسلمون، وهم يقارنون بين كلمات أن العربية ليست ذات أصول حديثة مقارنة بغيرها من اللغات الهندية الأوروبية، والشيء نفسه ذهب إليه، أحمد مظهر في باكستان، حيث ردّ مائات الكلمات المتداولة أوروبياً إلى أصول جذرية عربية، والأستاذ أحمد مظهر رغم إتقانه الانجليزية ولغات أخرى إسلامية، فإننا لا نبادله الطروحات نفسها إلى درجة اعتبار "العربية أم جميع اللغات" أو كما قال الأستاذ العقاد: "وُفّق كل التوفيق في بعض هذه الكلمات، ولكنه أوغل جداً في التخريجات المتتابعة للوصول بالكلمة إلى جذرها العربي"[20].

المستويات الذاتية أدلُّ دليل عليها

وإذاً، إذا كنا نشيد بالعربية لاعتبارات لسانية لا تخصّها إلاّ هي بوصفها أداة تبليغية تتميز بخصائص تتبلور أسرارها حين نقوم بإجراء مقارنات وتقابلات بينها وبين بعض اللغات الحديثة بحياد نزيه، فإنه ينبغي أن نَحْذَر ممَّا قد يَدْهَانا من إعجاب مفرط، وعربيتنا الحديثة تعاني نقصا فادحا في مسايرة عصرها، ومعانقة مستقبلها، ثم إنّ مثل هذه الأحكام الماورائية باعتبار لغة من اللغات لغةً أمَّا يتعارض ظاهريا وباطنيا مع التعدد اللساني المصرّح به في القرآن الكريم "ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين"[21]، ولكننا في الوقت نفسه نرجّح ما أبداه العقاد من أن اللغة العربية أقدم من معظم اللغات الحديثة، حتى وإن كنّا لا نتفق معه في كل الأسباب التي حشرها تدليلاً على ذلك[22]، بل لسنا بحاجة، للدلالة على قدم اللغة العربية، بسرد أسماء حيوانات ومقابلتها بلغات أخرى، وأمامنا نصوص ساطعة حتى في العربية البادئة، لأن الاستدلال بمستويات لغة ذاتية أدل على قدمها أو حداثتها من الاستدلال على ذلك بألفاظ قاموسية حتى لو تعلّقت

بالحيوانات، لأن اللغات تخضع لأطوار من التغير وفق ما يطرأ على العالم الذي يحيط بمتكلمي لغة ما، بل "إن اللغة الواحدة تحلّل العالم على نحو مختلف ومتباين في المراحل المختلفة من تطروها، ولنأخذ على سبيل المثال التعبير عن الحيوانات في اللغة الألمانية القديمة واللغة الألمانية الحديثة، فالكلمة الألمانية "Tier" تدل على كل الحيوانات، ولكنها كانت في عصر من العصور تدل فقط على الوحوش ذوات الأربع في مقابل الحيوانات الأليفة، والكلمة الألمانية القديمة "Wurm" تعني الديدان والثعابين والعظايا والعناكب، ولكن اللغة الألمانية الحديثة تضع كلمة لكل من هذه الكائنات، وكلمة "Fogel" في اللغة الألمانية القديمة تشمل كل الطيور (وتعني) الآن نوعا واحدا فقط) منها النحل والفراشات، بل والذباب..." (23).

وما كان للغة العربية أن تعرف تلك النُقلة كمّيا ونوعيا بفعل عوامل طارئة أو محض الصدفة لولا عراقتها في ذاتها وجدارتها اللسانية المتميزة بها منذ عصرها المسمَّى "جاهليا"، وهي بريئة من كلمات ومصطلحات لم يمارسها العرب القدماء في حياتهم ونشاطاتهم المحلية، ومقابل ذلك نجدها أَثْرَى لغة معاصرة لها فيما تشمله من بنيات معجمية، واشتقاقات طيّعة مطردة، وقواعد أقرب إلى قضايا منطقية منها إلى مسائل خلافية، رغم ما شملته من كثرة كثيرة في المترادفات التي تعني وحدة واحدة عنها، لأن العسل والسيف، والأسد، والأفعى،... كل ذلك يمكن أن يُنْبأ عنه. بمدلول واحد، ولكن ذلك كان بردا وسلاماً على الشعراء في رويّهم وقوافيهم، وعلى الخطباء والبلغاء في سجعهم، وجناسهم، وترصيعا تهم البديعية التي ذهبوا فيها بفضل هذا الزخم في ثرائها كل مذهب دلّت على جدواها أكثر مما نمّت عن حشوها.

وإذا أحبَبْنا أن نكون منصفين، فإن العربية اتخذت لنفسها سبيلا من الداخل في تطورها وترقيتها بألوف من الدلالات المستحدثة الجديدة قبل أن تستعير لاحقا ما لم يكن من ممارسة ذويها، وأعطت الأولوية المطلقة منذ عهدها الإسلامي المبكر إلى النهل من وعائها اللغوي الأصيل قبل أن تلتفت إلى سواها من اللغات التي سبقتها إلى ممارسات ثقافية وفكرية وعلمية لم يُقَيَّض لها أن تَحْظَى بها في عصرها "الجاهلي" الذي كان في غنى عنها، بالنظر إلى طبيعة العربي وحياته التلقائية البسيطة.

تنميةُ العربية نفسها داخلياً:

ولعلنا لا نكون مبالغين إذا زعمنا أن المجتمع الجديد في العهد الإسلامي من غير العرب، كان أكثر التفاتاً للنظر في التبليغ بما تعوَّد أن يتواصل به ويوظفه ويستعمله ويتعايش به من أسماء، وكلمات، ومصطلحات،... ولكنَّ مستعملي العربية بالأصالة لَقَطوا ما سمعوه من إخوانهم الأعاجم، وأضافوه إلى قاموسهم اللغوي السليقي، ومن هنا يمكن القول إن العربية نَمَّت نفسها بنفسها من الداخل أكثر مما كانت عالة غلى غيرها من الخارج، إذ لا يرتاب أدنى ارتياب إلا جاهل أو متجاهل في تلك الألوف من المصطلحات التي غطَّت تغطية شاملة حقولا شتى في الفقه الإسلامي، والقراءات القرآنية على اختلاف قرائها وتباين أمصارها، وعلوم اللسان العربي، والنقد والآداب، وفي الدواوين – خاصة بعد تعريبها– وأنواع شتّى من الفنون والعلوم، بل كان علم العرب ذوي العهد المبكِّر ناقصاً بلغات الأمم التي كانت تحيط بهم مثل الفرس والهند والروم، ولعل ما يشفع لهم ويعوّضهم ذلك النقص الكبير، أنهم انْبَروا إلى

التعريب، والتوليد،والاشتقاق، والنحت القليل، وفبركة مصادر صناعية جديدة،... قبل أن يَنْبروا إلى الترجمة منذ العصر العباسي الأول، وهذا ما ينقص العربية حالياً، حيث انعكست الآية، وأضحت الأهمية تُعطى لأية ترجمة دميمة على حساب التعريب.

العربية آنياً وتطورياً:

أين نحن .. مِـنْ؟

إننا كثيرا ما نُتَّهم في مناهج بحثنا من التغنّي بالأمجاد التي هي ليست من صنعنا هروباً من واقعنا أو شعوراً بالانهزام أمام حاضرنا، ولعل هذا أحد المناهج التي تفرّق بيننا وبين نظرائنا الغربيّين فيما نبحث ويبحثون، وفيما نفعل ويفعلون، ولذلك فلا عجب أن نجد أنفسنا غالباً أسرى مناهجهم الحديثة التي لا نتردّد في استيرادها ومحاولة إسقاطها على علومنا الإنسانية والاجتماعية عسى أن نوفَّق مثلهم بعض التوفيق أو نقترب منهم بعض الاقتراب.

لكن لماذا هذه الإلماحة التي قد يحقّ لبعض منا أن يراها خارج الإطار الذي نروم أن نَخْدِشه هنا؟ ربما جرفنا التفكير إلى إثارة هذه الغرابة في سلوكاتنا اللاَّمُمَنْهجة، لأنَّنا نشعر بفراغ هائل ومَهول في حاضرنا الممزَّق شَذَرَ مَذَرَ من محيطه إلى خليجه، ولربما لأن كبرياءنا لا تريد أن تعترف أصلا بوجود أي غياب آنيّ فيما يعايشنا بغضّ الطرْف عن نصّه وفصّه، ولربما نأبى عنوة أن نلتصق بالأرض، لأننا ألفينا منذ عقود أو قرون التحليق بأجنحة موجّهة مستعارة لنا من غيرنا...

"ربيع" أم "خريف"؟

أيا كان هذا الأمر أو ذاك، فإنه لا تقوم قائمة لتاريخية دون آنية، ولكننا استحببنا أن نكون عموديّين معوِّضين أفقيّتنا تارة باستسلام، ومرة باتكال، كأنما العدم أَلِفَنا وألفناه، وهذه الظاهرة العدمية في حياة شبه مزيَّفة تتمظهر في مجتمعنا العربي الذي أصبح يرثى لحاله أكثر مما تتمظهر في مجتمعات أخرى تملك قدرات مادية أقلّ، وها هي الشعوب والقبائل الأخرى تتفرج علينا، وتَشْمَت بنا، خاصة فيما أطلق عليه "الربيع" العربي، ولو أنصَفَنا الدهر لأطلق عليه "الخريف" العربي، وهي التسمية "المباركة" الصحيحة، سبحان الله ! متى كان تحطيم بنيات تحتية، وإزهاق مائات الآلاف من الأرواح،والتنكيل برموز الأمة، والرجوع عشرات السنين القَهْقَري ربيعا؟ إنما نُخِربُ بيوتنا بأيدينا وأيدي أعدائنا، ولن تزيد هوتنا إلا خرقا واتساعاً، ولن تزيد تنميتنا الشاملة إلا تقليصا وتخلفا وأكثر لجوءاً إلى صانعي هذا المصطلح الزائف ليزداد غنى وعلماً واستقراراً، ويزداد "الربيعيون" فقراً وجهلاً وتطاحناً واقتتالاً على السلطة، مع أن الديمقراطية والتبادل على السلطة لا يتمّان إلا بتوعية الشعوب وتثقيفها وتنويرها وبذر الآمال وحب الوطن فيها، وليس عن طريق العنف الداخلي والطيران الحربي الخارجي، إنهم والله لا يحبوننا ولا يكرهوننا، سواء رأسنا ديكتاتوري أم ديمقراطي، الأهم من ذلك أن يخنع لأوامرهم ونواياهم، ويتلزم بعلو السقف الذي رسموه وإلا آسدوا عليه وجعلوا دمه هدراً.

هل نحن آنيون أم تاريخيون؟

على أية حالة، "فرق كبير أن نتحرك من شيء يحمل ذاته بذاته، ومن شيء آخر لا يتاح له أن يحمل ذاته إلا بغيره، أضف إلى هذه الغيابية في الجنس الذي نريد تناوله مستقلاً في غيره أنه جنس يجمع بين آنية وتعاقبية، غير أنّ هذه الآنية والتعاقبية كلتيهما نمطان متذبذبان، وقد يتبادلان الموقعين

بحيث تؤول الآنية إلى سياقات تاريخية أو أنساق ثقافية أو اجتماعية، بينما قد تتجرد التعاقبية من كل دلالة تطورية لتتقمَّص فكرة جديدة مطبوعة بمسحات آنية"[24].

ويرى باحثون لسانيون أن الفلسفة الزمانية تأسَّست "على مبدأ القول بأن حقيقة الظواهر كامنة في غيرها في ذاتها لأنها مستمدة من العلل والأسباب السابقة في وجودها على وجود المسبّب والمعلول، فاعترضت الآنية بالقول إلى حقيقة الظواهر كامنة في غيرها لا في ذاتها، باعتبار أنها مستمدة من تضافر الأجزاء داخل نظام الكل الواحد، وهكذا قامت الزمانية على تقديرها في وجودها، فجوهر الشيء هو وجوده، ووجوده كامن في بنيته ونظامه"[25].

على حين يعترض لسانيون آخرون على أن الآنية مصادرة واغتصاب للزمانية، لأن الآنية لا يمكن تجسيدها بزمن، وهي في الوقت نفسه لا تنسلخ بشكل ما عنه، وكل ما في الأمر أنها تستند إلى زمن افتراضي يرمز إليه بنقطة وهمية على المحور الزمني المتعاقب "إلا أن حيّز هذه النقطة قد يكون يوماً أو سنة أو عقداً أو قرنا أو عصراً من العصور، فالآنية ليست إقرارا بالزمن ولا نقضا، وإنما هي استيعاب لأبعاد "الزمانية" في تجمعها، فهي تعكس المنطق الصوري للأحداث، لأن الزمانية تبدو متركبة من سلسلة نقط الآنية، أي أن الزمانية تحتوي على الآنية، فإذا بالآنية تستحيل منهجاً مستوعبا لأبعاد الزمانية بمقتضى أنه يدكّ الحواجز التطورية فيصهر التعاقب في بوتقة الوجود"[26].

اللغة نتاج إرث سابق:

لعل ما أثرناه بشأن العلاقة بين الأفقية والعمودية يحيل أذهاننا إلى فكرة استقلال البنيات من عدمها، إنّ المتحمسين لظاهرة استقلال البنية عن تاريخها،

يريدون أن يتصوّروا أن ما لا يمكن تصوُّره، إلا إذا ركِبوا ما بعد أي تصور، حتى كأنه "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار"[27]، مع أن اللسان، كما صوَّره أبو اللسانيات الحديثة (دي سوسير) يفترض "دائما منظومة قائمة وتطوراً في وقت واحد، وهو يشكّل مؤسسة راهنة وإنتاجا للماضي بصورة دائمة،... وفي الحق أن العلاقة الرابطة بين هذين الشيئين ضيقة جدا حتى إنه ليعزّ علينا الفصل بينهما"[28]، بَلْ "لا يمكن للمجموعة نفسها أن تمارس سيادتها على كلمة واحدة، فهي متعلقة باللغة بما هي عليه،... ومهما أوغلنا في الزمن، فإن اللغة تبدو ميراثاً للحقبة السابقة أيًا كانت،... كما أن شعورنا القوي باعتباطية العلامة يوحي لنا بفكرة أن الأمور إنما حدثت بهذا النمط وليس بسواه، وفي الواقع ليس هناك من مجتمع إلا ويعرّف اللغة أنها نتاج إرث الأجيال السابقة، كما لا بدّ من تناولها بما هي عليه،... وحالة لغة ما هي دائماً نتاج عوامل تاريخية، وهذه العوامل نفسها هي التي تفسّر ثبات العلامة، ونعني بذلك مقاومتها لكل تبدّل اعتباطي،... وفضلا عن ذلك، فإن التفكير لا أثر له في ممارسة لغة ما، كما أن الأفراد لا يشعرون إلى حد بعيد بقوانين اللغة، وإذا لم يشعروا فكيف لهم إذاً أن يغيروا فيها؟ وحتى لو قُدِّر لهم مثل هذا الشعور فخليق بنا أن نذكر أن الوقائع الألسنية لا تثير إطلاقا النقد، ونريد بذلك أن كل شعب مغتبط عادة باللغة التي ورثها"[29].

اللغة بين منهجين:

على أي حال، القائلون باستقلال البنية عن تاريخها، يريدون منا أن ندرس اللغة والأشياء التي تعيشنا ونعيشها دراسة أفقية، بدعوة أن هذا المنهج أكثر نجاعة من أية دراسة تطورية لا تبعد مؤثرات خارجية وقيما واجتماعية، وبدعوى

أن لغتنا الإنسانية بوصفها نظاما اشاريا مستقلة عن أي ناطق بها أو منتج لها أو مبدع فيها، وعلى أن ما نتواصل به من علامات لسانية لها قواعدها المنضوية تحت نظامها اللساني العام الذي يكوّن نسقا مغلقا على نفسه، بحيث يوجه كل نسق بنية لا تمثل إلا نفسها ومرة واحدة.

ومن حسن الحظ أن هذا الاتجاه البنيوي الذي ظهر منذ مائة سنة، لا يتجاهل أن لغتنا التي نكتسبها طبيعيا أو اصطناعيا أو هما معاً معطاة لنا سلفا قبل وجودنا، ونحن لا ننكر أن البنية اللغوية لا تعدم من تلقاء نفسها نظامها التوازني داخلياً، ومن ثم، لا تحتاج إلى مدّ خارجي، وإلا احتاجت دوما إلى جيل سابق يخلفه جيل لاحق.

وإذاً، كل ما يدعونا هذا الاتجاه إليه أن نكف عن الاهتمام بسبر ما مرّت به اللغة من مراحل متعاقبة، وبدلا من ذلك، فإنه يدعونا إلى معاينة شبكتها الداخلية التي بموجب قوانينها يطفو نظامها على سطحها الذي يهيئه المعياري ويدعو بقوة إلى الالتزام بحدوده الحمراء التي لا ينبغي لمتكلم أو مستعمل أن يمسَّها أو يتجاوزها، وبعبارة أخرى هناك فرق واضح بين اللغة استعمالا في مختلف مستوياتها وبحثا ودراسة في ضوابطها، وهذان البعدان اللذان أصبحا يتضحان أكثر فأكثر في اللسانيات الحديثة هما قطبان من أقطاب النشاط الخلّاق للغتنا.

لغتنا الموروثة خمسة مستويات:

ومع ذلك، لا أعتقد أن الإشكال يكمن بقوة في استعمال معياري ولا ملاحظة وصفي بقدر ما يكمن في نوع اللغة التي نتحدث عنها، فنحن معاشر الدارسين العرب، لم ندرس، فيما أعلم، لغتنا من حيث مستوياتها العليا

والوسطى والدنيا، دراسة لسانية كافية، ولا أقول الأشكال مع أن لغتنا الموروثة خمسة مستويات كبرى على الأقلّ":

1) لغة ذات مستوى أرفع، وهي لغة القرآن والشعر والآداب الرفيعة، ولا تكاد هذه اللغة تتحقق اليوم إلا خطيا، ومن حسن الحظ أن الخط لم يحجب عنّا الكشف عن لغتنا الأصل المتمثلة في تلك اللغة الشفهية الحية التي تبدو لنا اليوم لغة صامتة أكثر منها حركية.

2) لغة وسطى ذات مستوى راقٍ، وهي لغة لا تخلو في تبليغها من توازن بيِّن بين نطقها وكتابتها، بحيث أضحى كل من الاثنين ينمّ أحدهما عن آخرهما وفي آنٍ، ولا تعارض بينهما، ولا يوجد فيها إلا وحدات قليلة جداً لا تُقْرأ مثلما تُكْتَب خلافا لما نعرف في بعض اللغات الأخرى كالفرنسية أو الانجليزية مثلاً.

3) لغة عامية، وهي لغة بيّنة إلى حدّ ما، لأنها منشطرة انشطارا مباشرا عن المستويين السابقين.

4) لغة دارجة الأكثر انحطاطا وتهجينا من العامية، وهي أضيق رقعة من العامية.

5) أشكال لغوية اجتماعية ومهنية لا حصر لها، تواصلاتها نابية قابلة للملاحظة وحرونة على التدوين.

اللغة استعمال تجدّدي:

ولعل الأهم مما ذُكِرَ أنه يجب علينا أن نعي متى نكون آنيّين، ومتى نكون تاريخيين، أي يجب أن نميّز بين قواعد تتواصل بها الجماعة اللغوية المتكلمة عمليا وبين وصف نتخذه سبيلاً لاعتراض أو قبول تلك القواعد المطبقة في عملية التواصل أو قبول تلك القواعد المطبقة في عملية التواصل اللغوي، خاصة بعد ظهور "البنى النحوية" لتشومسكي الذي أبدع فيها أيّما

إبداع بثورته في وجه البنيويين، وبنظريته التي ترى أن أغلب الجمل الموظفة في مدوَّنة هي جمل لم يسبق لها أن صيغت بالكيفية نفسها، لأن كل جملة في نصّ لا ترد إلا مرة واحدة.

والملاحظة السابقة تلفت انتباهنا إلى أن ما نستعمله من جمل في لغتنا العادية استعمالات متجدّدة غير مستهلكة في معظمها من ذي قبل، وهذا ما يؤكّده تشومسكي بقوله: "وبالإمكان أن نعتبر، بصورة مؤكّدة، أن عدد جمل اللغة الأم التي نفهمها حالاً ومن دون أي شعور بالصعوبة أو بالغرابة، عدد هائل، وعدد النماذج القائمة ضمن استعمالنا اللغة الاستعمال العادي والتي بالإمكان فهمها بسهولة يصل إلى رقم أعلى من عدد الثواني في حياة الإنسان، وبهذا المعنى يكون استعمال اللغة تجدُّدياً"[30].

الشعر واللغة وجهان لعملة واحدة:

ومع ذلك، فإننا لا نتفق كامل الاتفاق مع تشومسكي بالنسبة للشعور اللغوي من عدمه، ومما نراه أن الشعور واللغوية وجهان لعملة واحدة، ولا يمكن لإنجاز لغوي أن يتم أدنى لحظة يمكن تصورها بمعزل عن حُضور شعور هذا الإنجاز، ولكن ضآلته اللانهائية في الصغر هي التي تفقد المتكلم الطبيعي بالشعور في خطابه، بخلاف المتكلم غير الطبيعي في لغة مكتسبة، ويمكن أن نضرب مثلا هنا بنفسي حين أريد أن أنتقل من لغتي المنطوقة، مع كل من دبّ وهبّ إلى لغتي الفصيحة خاصة على المستوى المنطوق، أما في كتابتها فيكاد الأمر يقترب سلاسة ويسراً من عاميتي المنطوقة، وكلما كنا أكثر إحساساً بلغتنا كنّا أقل جودة وبلاغة فيها، وأبعد عنها إتقانا وسيطرة، والعكس بالعكس.

هل ثنائيتنا اللغوية لعنة سرمدية؟

هل هذه الثنائية اللغوية الذاتية لعنة سرمدية أبت إلا أن تصحب اللغة العربية منذ أول لحن سُمع في العراق أو حتى في مدينة الرسول عليه السلام؟ إن لغتنا واقع اجتماعي لا واقع لغوي، بدليل أنه يمكننا أن نعبر عن أغراضنا المختلفة بلغات مختلفة، بمعنى أن ثنائيتنا اللغوية الذاتية ليست لغة أبدية لو ملكنا الإرادة الصادقة والآليات الإجرائية للتخفيف من حدّتها واستفحالها لحظة بعد لحظة.

من هم حماة العربية؟

وربما لا أجدني ناشزاً إذا غلب قولي على لساني مُدَّعياً أن أرباب هذه اللغة من محيطها إلى خليجها أضحوا لا يبالون أدنى مبالاة بما غدا يعتري هذه اللغة الشريفة على مرأى ومسمع منهم دون أن يحرّكوا بنانهم، ومما هو غريب حقا أن قادة هذه اللغة اليتيمة اجتمعوا مراراً على كل ما يختلفون ويتنافرون، وأحيانا يتنابزون، ولكنهم لم يتلاقوا مرة واحدة من أجل حماية هذه اللغة ودسترتها إلزاميا لا خطيا، وعلى العكس من ذلك سمحوا لأصوات ناعقة ناعبة منكرة تُبَثّ من محطات تعمل على تهجين اللغة العربية وتلويثها على مدار الأربع والعشرين، الأمر الذي زاد هذه الثنائية ثنائيات لا حصر لها.

لعل هذه الاستطرادة الفضولية التي قد تكون جرفتنا رغما عما نحن بصدده تنبئ صغيرنا وكبيرنا أن لغتنا العربية، ونحن في بداية العقد الثاني من هذه الألفية، تعيش اضطرابا وواقعا مختلاً بين آنيتها وتاريخها، ولتكون لغتنا على سكّتها الآمنة، ينبغي على ذوي الحل والعقد أن يرمّموا بنيتها التي غَدَتْ

هشّة أكثر من أي وقت مضى أمام مدّ دون جزر لعولمة لا ترحم، ولا تُبْقى ولا تذر.

العولمة المستقبلية للغة العربية:

آمل ألا أكون منحرفاً عن جادّة الصواب، إذا قلت إن العولمة المستقبلية للغة العربية مرهونة بعولمة عربية تنفذ أقطار السموات والأرض أسوة بنفوذ شعوب وأمم في العالمين الغربي وحتى الآسيويّ الأقصى، وخاصة في ضوء ما يجتاح فضاءنا بل بيوتاتنا العربية من ثقافات ولغات وابتكارات نستوردها ما بين مخيَّرين ومجبرين، لأنه لا حول لنا ولا قوة على دفعها.

لكنّ أنَّى لعوْربة عربية أن تلج عالميتها، ونحن صرنا نأخذ أكثر مما نعطي، ونلتهم أزيد مما ننتج، ونقلّد أفحش مما نبدع؟ بل أنَّى لعوربة عربية أن يقيَّض لها أن تنهض من سبات طال أمده، واستفحل دواؤه، منذ سقوط بغداد شرقا فالأندلس غرباً، ولغتنا العربية اليوم بين أبناء جلدتها تعيش حياة غير حياة ذويها، وتعانق واقعاً لا يمتّ بصلة وُثقى إلى واقع أهليها في سوقها، وشارعها، وملعبها، ومخبرها، وإدارتها، ومعملها، وجامعتها، ومحافلها الجهوية والقارية والدولية؟ أنّى لهذه اللغة أن تظفر بمستقبل شبه مضمون، وها هي ذي تُضْرب وتُغزى من جديد في بغداد، وتحاصَرُ في دمشق، وتقزَّم في طرابلس؟ لم تُردع اللغة العربية عن هذه العواصم العربية الثلاث محاولة من غزاة القرن الواحد والعشرين في ثوب شفّاف جديد من باب الصدف أو توارد الخواطر، بل لأن العربية أكثر، بل أعمّ استعمالاً في جميع مرافق هياكل الدولة إدارة وتعليما ودبلوماسيا وممارسة في العلوم التطبيقية، بما في ذلك الأبحاث الفلكية والطبية والزارعية والذرية.

ماذا نفعل بديموقراطية غربية مزيّفة عَرَضِيَّة، إذا كان ثمنها الانبطاح والتنازل عن أهم مقوّم سيادي يمس هويتنا في لبها؟ رحم الله القائل "سلطان جائر أُو لاَ قُومْ فاسدة"، أجل ثمَّ ألف أجل، "دكتاتور" عربي يُحيي العربية، ويحميها، ويرقِّيها، ويبعث تراثها وصلا لتليدها بحديثها أو زمنيتها بتزامنيتها، ويأمر أمراً صارما باستعمالها في جميع هياكل دولته خيرُ من آخر "ديموقراطي" لا يهمه إلا التعددات السياسية والخزعبلات الحزبية الشاردة.

هل عربيتنا تَحْظَى حُظْوتَها؟

أنّى لهذه اللغة أن تحظى بقدر قليل أو كثير مما ستحظى به لغات أقلّ منها مجداً، وأصغر تاريخاً، ودونها ثقافيا وأدبيا وحضاريا وانتشارا وتأثيرا، وأنت تسمع وترى أثرياءها يهدرون ملايير من الدولارات على منشآت خارج بلادهم العربية، ولا يجودون بدانق واحد على حمايتها ونشرها وترقيتها وخلق حوافز تشجيعية لتحبيبها والإقبال على البحث والابتكار بها... وإلا خسارة ثريّ عربي زهاء نصف مليار جنيه استرليني من أجل عيون فريق رياضي إنجليزي في ثلاث سنوات متتالية، واللاحق أعظم، ماذا يجني وراءه إنسان حُكْم عليه بالانتماء إلى هذه الأمة المسماة عربية؟ أما كان أولى ثم أولى أن ينفق هذا الثريّ من خبايا أرض مباركة قسما من هذه الأموال المستثمرة باطلاً في رعاية إنشاء معجم دلالي تطوري أو نحو ذلك خدمة لهذه اللغة التي تعدّدت أمهاتها عبر أشتات من المُهُد، وحروب من الزعامات؟ بل هل تصدّقون إذا قلت لكم

إن مكتبة عامرة في بلد الكنانة بألوف من المخطوطات النفيسة القديمة تؤرَضُ، ولا تجد من يجود عليها لإبادة هذا السوس الراتع فيها؟.

هل مستقبل العربية أسوأ من راهنها؟

إن مستقبل اللغة العربية، كما نتصوره، وفي ظل غياب عوربة عربية جامعة، سيكون أسوأ من ضياعها الحالي في خضمّ لهجات مشرقية منكرة، وأخرى مغاربية لا تخلو من رطانات أعجمية، إذ كلما كثرت هذه اللهجات والتكلمات الهجينة في وسطنا إلا وازدادت الفصحى مصلا séronégatif، ونحن ننظر إليها نظر المغشيّ عليه من الموت.

لا أجدني إلا أقرب إلى التشاؤم والإحباط منّي إلى التفاؤل والآمال، إذا أبديت ما في نفسي، وقلت: إن مستقبل اللغة العربية غامض غموض جدوى وجود ذويها الآنيين بين الشعوب والأمم الناهضة التي تجاوزت خلافاتها، وأصبح العالم من حولها يحسب لها ألف حساب، علما بأن عوامل تدانينا أقوى وأوفر حظا من دوافع تنائينا، ولعل اللغة العربية ستكون أنشط بارقة من بوارق تآلفنا، وأبين بادرة من بوادر وجداننا المشترك، وليس معنى هذا الكلام أننا نعمل على إقصاء لغات الأقليّات التي تنضوي تحت هذا الفضاء الشاسع، بل من واجب العرب كل العرب العمل على حماية هذه اللغات الوطنية بالأصالة وتعليمها للناشئة في إطار تعايش لساني اجتماعي، وتترك الأمور للزمن وحده ليكون الفصل الفاصل بيننا و بين هذه اللغات، ولكن كل ما في الأمر أننا بحاجة إلى لغة جامعة توحّد الناس من محيطهم إلى خليجهم، ولا أحد يختلف مع الآخر، في أن لغة التوحيد هذه لن تكون غير العربية الفصحى.

وجوب انطلاق عولمة العربية من داخل أوطانها؟

وهل هناك من ممار منا أو من غيرنا يماري قليلا أو كثيرا في أن العولمة المستقبلية للغة من اللغات ينبغي أن تسود سيادة مطلقة داخل حرمها الفضائي قبل أن يُقَيَّض لها أن تطرق باب العالمية ؟ إننا لا نطمع لا في وقتنا الراهن، ولا في عقود لاحقة أن تندمج العربية بلغات فرضت نفسها لتكون لغة تواصل عالمي منذ مائة سنة ونيّف، وهي لا تنفك أسيرة أهليها، مادامت أنها تُستَعْمَل استعمالاً متفاوتاً بين العرب أنفسهم، وفيّ مجالات واسعة في بلد، وضيّقة في بلد آخر.

العربية أمام حاجزين خطيرين

ومن واقع حاضر اللغة العربية نستشرف أن العرب سيجدون أنفسهم أمام حاجزين تقليديّين، لكنهما سيستفحلان أكثر فأكثر في غضون منتصف هذه الألفية، وهذان الحاجزان النكودان يتجلّيان في المزيد من تلويث الفصحى وتهجينها برطانات لا تزيد من يوم إلى آخر إلا منكراً وتشويهاً، وستزيد هذه الرطانات قوة وغلبة على حساب المستوى اللساني السليم، وأما الحاجز الثاني، فيكمن في مبالغة مفرطة في الترجمة على حساب التعريب والإبداع من الداخل، وفي إقبال الباحثين على لغات أجنبية يطوّرونها من خلال ممارستهم المخبرية والتطبيقية.

ضرورة إدراج العربية في أي مخطّط

وإذا ما أريد لذوي الحلّ والعقد أن يكون للغة العربية عولمة مستقبلية، فمن الأولى أن تدرج فيما يُخطّط، ليكون لها أولا حظوة عوربيّة على مدى العقود الثلاثة القادمة، وأن يكون لها دستور عربي مشترك يلزم كل المنتمين إلى الجامعة العربية، وخاصة في الأطوار الجامعية، ومراكز التكوين المهني ، ومراكز البحث والمخابر في جميع الاختصاصات، مع العمل على إنشاء قواميس مصطلحية مشتركة مُلزمة لكل المستعملين والباحثين والمدرّسين، فذو النورين سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) حين جمع القرآن في نسخ موحَّدة، أمر بإحراق ما سواه من صحف، لأن لغة لا تتطور داخليا أو خارجياً إلا بتوحيد مصطلحاتها، ونعني بالمصطلح الموحَّد المداليل العلمية، والتقنية، والأدبية، واللسانية ونحوها.

وبال السمعي البصري على العربية:

وكان يمكن للقطاع السمعي البصري الذي غدا ينمو هنا وهناك كالفطريات، أن يسهم في تنمية اللغة العربية، ويساعدها على ولوج العالمية، كما سبق لها أن ولجته وهيمنت عليه ردحاً من الزمن، ولكن ها هو واقع الحال يبيّن لنا أن هذا القطاع الحيوي لم يسهم ذلك الإسهام المحمود الذي كانت تتمناه العربية لأن تَنمّى، وتُنَقَّى، وتُرَقَّى، بل كان يمكن لهذا القطاع الخطير الذي يشدّ إليه ملايين العرب يومياً أن يعمل على بثّ مستوى لغوي وسطيّ فصيح لا يستعصي فهمه على الطبقات الوسطى وحتى الدنيا ثقافيا، لكون العاميات العربية الأشتات متباينة تباينا هائلا فيما بينها إلى درجة استحالة تفاهم عربيَّيْن بوساطة عامية كل واحد منهما، ولكن هذه العاميات على غزارتها

قريبة من الفصحى الأم، مما يُيَسّر لكل قطاع تهذيب عاميته، لتتحول من توّها إلى مستوى تواصلي يفهمه هذا وذاك سواء بسواء.

تجربة فرنسا اللغوية:

وإذا ما جاز لنا هذا الغرض أن نلتفت إلى تجارب غيرنا، فإن فرنسا التي لم تأل جهدا، ولا ادخرت وسعا في إزهاق العربية الفصحى في بلد كالجزائر، لم يقل ساستها ومثقّفوها ورجال الفكر فيها "فلندع الناس يتكلمون باللهجات التي ألفوها، بل قالوا: "يجب أن نقضي على هذه اللهجات،... لِنَسْعَ إلى رفع لغة الحوار والكلام إلى مستوى لغة الكتابة والأدب، وإلا لما تقدّمت اللغة الفرنسية تَقَدّمها المعلوم،...".

غير أن ما أشار إليه الأستاذ ساطع الحصري أعلاه إشارة صادرة من نفس واحدة وعاصمة واحدة، أما ما يخص لغتنا العربية، فعادة ما ينبع من هوية متقاربة وعواصم مختلفة، وهذا هو الفرق بيننا –نحن العرب– وبين سوانا، كأنّ أوامرنا نواهينا، وفرنسا لم تقض على اللغات، ولكنها صهرتها صهرا أو قل دانت بعضها ببعض، لأن الفرنسية الحالية نفسها أصلها لهجة محلية، بل إلى غاية الثورة الفرنسية (1789م) لم يكن يمارس اللغة الفرنسية أكثر من ثلثي سكان فرنسا[31]، ولذلك، فإن المقارنة هنا لا تجوز بين لغة حضارية ترجع إلى أكثر من أربعة آلاف سنة خلت، ولغة تعود إلى خمسة قرون.

العولمة المستقبلية للعربية بأيدي العرب:

ما من شك في أن العولمة المستقبلية للغة العربية بأيدي العرب أنفسهم، دون أن نقلّل من أهمية العالم الإسلامي الذي يتبنّاها لغة رسمية، ولو كانت

هذه اللغة محظوظة تاريخيا أكثر مما كانت، ومما هي عليه الآن، لهيَّأ الله لها أن تكون لغة أولى في بلدان إسلامية، وألا تقتصر ممارساتها في أداء تكاليف الشرع، ولكن كتابة لغات إسلامية بالرسم العربي، بخلاف التركية المرتدَّة ولغات بلقانية بعد صراع مرير وطويل مع الحرف اللاتيني، كما هو الشأن نفسه في دول إفريقية بشقيها الغربي والشرقي، لا يعد بالنسبة لمستقبل اللغة العربية أمراً بسيطاً أو ثانوياً، الأبجدية المتواضع عليها تنبئ عن أصوات اللغة خطيا، وتسهل اللغات الإسلامية إلى العربية وتقرِّبها منها، وتذلّل سبُل الترجمة والتعريب.

وقد يبدو أن ما ألمح إليه في جانب من هذه الكلمة يشكّل صورة قاتمة لمستقبل اللغة العربية، وأنه يتجاهل ما أنجز من مشاريع تمخّضت من مجامع، ومجالس عليا، وهيئات تابعة لجامعة الدول العربية، والواقع أننا لا ننكر أدنى شيء من ذلك، بل ننوّه به تنويها قويا، ويجعلنا ننحني انحناءة تقدير وذهول، ولكنّ هؤلاء علماء واصلوا سيرة من تقدّمهم من نبغاء ومجتهدين، أي عملهم ينتهي بانتهاء ما يؤسّسون ويصنعون من قضايا مصطلحية ولسانية عامة، ولا سلطان لواحد منهم في هذه الهيئة أو تلك على تطبيقها عمليا أو حقليًا، مما جعل هذه الأعمال النظرية تكثر وتتراكم، ثم تُنسى أو يتجاوزها الزمن لعدم مسايرتها للتوليد اللغوي اليومي بالمائات في شتى الاختراعات.

لغتنا أكثر من تواصل:

أجل، قد يحقّ لامرئ متشائم أن يتفرس هذه الصورة القاتمة لمستقبل اللغة العربية، إذا ما قاس غدها على المدى المتوسط بحاضرها المتقاعس، وإذا ما لاحظ سياسة لغوية مغيَّبة أو غير واضحة، فاللغة ليست أداة تبليغ آنيّ

وحَسْبُ، حيث يقتصر فيها على التربية والتعليم ومحاربة الأمية، وتذليل التواصل الاجتماعي، بل اللغة تنمية وتخطيط يجب أن يصحب آمال الأمة في بلورة هويتها المتميزة بين الشعوب، وإلاَّ فلنغلق هذه المدارس والجامعات اجتزاء بلغة الأمومة الطبيعية التي تُعَدّ هبة من السماء لا ننفق من أجلها دانقاً، علما بأن عامِّيتنا على هجانتها وامتناعها من أداء غير نفسها، هي التي أسهمت بشكل عظيم في حماية كمّية ثريّة من أمها الفصحى، وليس العكس، خاصة في بلد كالجزائر، ضُربت عليه الأمية، ومُنِع التعليم العربي، لأن الدخيل أيَّ دخيل قد يُيَسَّر له، ولو إلى حين، امتلاك رقاب شعب بأكمله، ولكنه يتعذر، بل يستحيل، عليه أن يسترقَّ جملة واحدة من لغة الشعب الطبيعية حتى لو كانت هذه اللغة بدائية أو اشارية. وإذا ما أراد العرب أن ينهضوا يوماً قدوة بمن تقدمهم من أسلافهم العظماء أو أسوة بمن يعاصرون من شعوب لم تزدهر بغير لغاتها، وعلماً بأن بعضاً من هذه الشعوب تحوز لغة ذات منظومة صوتية وألفبائية تعدّ أقعد أداة اتصال صوتي ورمزي على سطح المعمورة، ومع ذلك لم يَحُلْ هذا التعقيد الشائك دون رقيّها أدبياً، واقتصاديا، وعلمياً،... تستعمل لغاتها المعقدة صورةً صوتيةً سمعيةً وكتابةً، وهي على يقين واقتناع بأن إحدى هذه اللغات لن يقيَّض لها، ولو على المدى البعيد، أن تحظى بالعالمية، ولسنا هنا في موضع المقارنة لبيان أن الحروف العربية تعدّ أصلح من أي أبجدية سواها لكتابة الصورة الصوتية السمعية في أي لغة كانت، فالحروف اللاتينية مثلاً لا تستخدم إلا في عائلة لغوية واحدة كبرى (الهندية الأوروبية)، بينما الحروف العربية تستخدم لرسم لغات عديدة خارج العائلة السامية، ولذا فإن الطاقة هنا لا تكمن في كتابة لغة واحدة ينطقها مليار متكلم أو أكثر، بل بعدد اللغات المتباينة أرومة حتى لو قَلَّ ناطقوها... قلت: إذا أراد العرب أن يفيقوا من إغفاءاتهم يوما ما، فإنهم لن ينهضوا ويزدهروا بغير لغتهم، وإلا فماذا جنت

الشعوب الإفريقية الناطقة بلغات لقيطة من تركات الاستعمار؟ بل ماذا فعلت تركيا حتى الآن، بعد استبدال الحرف العربي باللاتيني، إذا ما قارنّاها بدولة أوروبية؟ ومثل تركيا ألبانيا ودول في غرب وشرق إفريقيا.

الجديد في لغة إضافة لا تقويض:

وإذا كانت اللغة لا يمكن أن تخرج عن بنيتها الاجتماعية، فإن هذا يعني بكل بساطة أن اللغة لا تتطور خارج استعمالات في قطاعات إنتاجية وإبداعية واقتصادية وتجارية وفنية وتقنولوجية، وإلا أصبحت اللغة عالة على مجتمعها الذي تضطره ظروف الحياة والعصر والتواصل الفعال إلى نبذها والنفور منها إن عاجلا أم آجلاً.

ومع ذلك، ينبغي ألا تكون لدينا ثقة مفرطة في لغتنا مقابل غياب هذه الثقة المطلقة في نفوسنا، وأن التطور الذي يعتري لغة من اللغات لا يظهر على أساس بناء هيكل أو مجد لغوي جديد على حساب تقويض وتقزيم إنجاز قديم، إذ ما يضاف ويستحدث في هذه اللغة أو تلك يجب ألا يعد أكثر من ملء فراغ لساني عادي تظل أية لغة، أيا كان ماضيها وحاضرها، في أمس الحاجة إليه باستمرار.

ولقد أجمع النبهاء من اللغويين قدمائهم ومحدثيهم على أن التطور الذي يمس اللغة لا يعني إلا تكميلا لما ظل ينقص بنيتها الداخلية من قياس واشتقاق ونحتٍ، وترجمة كلمات خارجية، وهذا التطور لا يمس النظام الصوتي فيها، على الرغم من أنه من أكثر الأنظمة تعرضاً لتفاوت نطق الأجيال وحتى الأعمار والأجناس والأجانب عن لغة ليست بلغتهم.

هل لكل عصر لغة؟

وأما الاعتقاد الشائع بأن لكل عصر لغته، فإن هذا لا يعني أن أنظمة اللغة تتبدل بتبدّل العصور والأجيال، أي ليس لكل نظام سياسي أو اقتصادي لغة تقابله بنظام لغوي جذري نموذجي تماشيا وانسجاما مع هذا النظام الجديد، على عكس الهزات الخارجية المتمثلة خاصة في العلاقات التبادلية بين الشعوب التي تؤدي إلى احتكاك اللغات بعضها ببعض دون اعتبار لغاز ومغزو. فاللغة العربية صالت وجالت مع الفاتحين طوال قرون، ولكنها بقدر ما أثرت في لغات الأقاليم المفتوحة تأثرت تأثراً موازيا بلغات أولئك الشعوب، وهذه السنة تنطبق على غيرها من اللغات العالمية قديما وحديثا، بمعنى أنه إذا كان معجم أية لغة مفتوحا لاحتواء واستقبال عدد غير محدود من الألفاظ الحضارية والتقنولوجية التي تضطر إليها، فإن اللغة بوصفها بنية تحتية مستقلة بذاتها تتطور بفضل عناصرها الذاتية وخصائصها العامة من الداخل قبل أن تتطور من الخارج، والذي نعلمه أنه لا توجد لغة لا تملك استعدادا لهذا التطور من الداخل، وإلا أضحت عالة ثقيلة على غيرها من اللغات، لأن التنمية الاقتصادية والابتكارات الصناعية والمعاملات التجارية أصبحت اليوم معلومة، واللغة التي تستعمل في هذه المجالات وغيرها محكوم عليها بالوهن والانزواء في منطقة تؤول تدريجيا لأن تصير في حكم التاريخ نَسْياً منسياً.

مدى حظّ لغتنا من العولمة اللسانية:

إن العولمة باعتبارها عاملا من العوامل الخارجية، لكن ليس أي عامل، ينبغي ألا يشغلنا عن العناصر الداخلية التي خُصَّت بها اللغة العربية، ونعني بها تلك الأنماط المتصلة بمستوياتها، وعلى رأسها بنياتها النحوية والصرفية

التي لا تبرح في حاجة إلى المزيد من الصرامة المعيارية لتهيئة ما بقي من نصوص وتراكيب تراثية عالية المستوى، لكنها لا تزال متنافرة ومهملة.

نحن لا نتهاون بقوة العولمة بكل أشكالها، ولاسيما شبكات الاتصال والآثار التقنولوجية الحديثة، ولكن اللغة العربية لما لها من قوة دفع خارجي منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، فضلا عن طواعيتها اللسانية التي لا يجحدها أو يرتاب فيها إلا جاهل بها، أو مُمارٍ عنيدٌ، يتيحان لها أن تكون في مصافّ أرقى اللغات العالمية إذا لم يتقاعس بنوها وحماتها، وإلا طرقنا باب العولمة، ونحن في أوائل هذه الألفية الثالثة، طفيليّين عليها، قد تقبلنا، وقد تَلْفِظُنا، ولربما ازدردتنا من غير سابق إشعار، وفي المقابل لا يمكن قبول الفكرة القائلة بأن اللغة الداخلية هي ثانية بالمقارنة مع اللغة الخارجية، ولئن أستساغ بعضنا هذه الفكرة بالنسبة لبعض اللغات الاصطناعية وحتى تقويم بعض الاعوجاجات في لغات ليس لها خلفية لسانية تاريخية مستقِلَّة ولا تراث أدبي خاص بها، فإن هذا لا يصدق على اللغة العربية التي توجد في موقع تاريخي وآني متوازن، بينها هي كلغة قائمة بذاتها، وبين من تعاقبوا على التواصل بها عبر الأجيال والعصور.

وما ألمحنا إليه أعلاه، لا يعني في مفهومنا أن اللغة العربية التي نملك اليوم ما هي إلا فكر بشري جاهز قيل وانتهى، أوكل ما ورد فيها جوهر موجود بقوة النطق والتخاطب، أو كما قال ابن فارس المتعصب لنظرية التوقيف: "ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق"(32).بل هي فقط جاهزة ومهيأة للاستعمال، وبقدر ما هي واقع موضوعي خارجي عنا بوصفها نظاما أو ظاهرة مستقلة بنفسها، فهي مجبرة على أن تكون مجسدة في ناطقين بها، تعبر

عن مشاعرهم وطموحاتهم، وبكلمة واحدة تؤدي ما يناط بها من وظائف بسيطة ومعقدة بساطة وتعقيد مجتمعها.

نقاط استشرافية للوضع المستقبلي للعربية:

ومن الإجراءات العملية التي نتصوّرها لتحسين الوضع المستقبلي للغة العربية على المدَيَيْن المتوسط والبعيد:

1) وصل زمنية العربية بتزامنها وصلا دائما ومطّرداً.

2) تهذيب العاميات العربية وتفصيحها من خلال البرامج المدرسية، والتواصلات الشفهية، حتى تدنو من للفصحى.

3) تلقين الفصحى للناشئة المتمدرسين بخطوات تعليمية منهجية مدروسة سلفا ومرحلياً.

4) تأصيل المصطلحات الحديثة ما أمكن إلى ذلك سبيلا، لكن دون تكلف ولا تعسّف.

5) أولوية المصطلح العربي على أيّ مصطلح أجنبي.

6) أولوية التعريب على الترجمة.

7) أولوية نحت المصطلح الأجنبي واخضاعه ما أمكن إلى ما تحتمله الأصوات العربية شرط ألا يفقد دلالته التي وضعت له في لغته الأصل، على تلقِّيه كما ورد في صورة صوتية تُعَدّ غريبة خارج ناطقيها بالأصالة.

8) إصلاح الخط العربي بإضافة ثلاثة رموز على الأقل حتى يكون مؤهّلا لرسم أصوات أجنبية متداولة كثيراً بيننا، في الصيدلية، والطب، وعلم الحيل، وعلم الفلك، والجيولوجيا، وعلوم البحار، والصناعات الهيكلية والمادية،...

9) وضع سياسة لغوية عربية مشتركة هدفها العمل الدؤوب، والتنسيق المتبادل، لمواكبة اللغة العربية ما يُسْتجد يومياً من مصطلحات.

10) صناعة أجهزة حاسوبية عربية تتماشى مع طبيعة الأصوات العربية ورموزها تماشيا ميسَّراً على المبتدئين.

11) إنشاء بنك مركزي لساني عربي لتخزين كل ما يتعلق باللغة العربية تاريخيا وآنياً.

12) صناعة معجم لساني عربي تعاقبي مع تخزينه مرحليا في البنك المركزي اللساني العربي.

13) صياغة ميثاق لغوي عربي تتابع تنفيذه هيئة عربية منضوية تحت رعاية جامعة الدول العربية.

14) توحيد البطاقات العربية المتعامل بها دوليا على أن تتصدّر العربية اللغة الدولية الثانية المختارة من أية دولة عربية.

15) فصل العربية عن صراعات ساستها العرب ما بَقُوا غير متّحدين.

الصراع المستقبلي بين اللغات في ضوء العولمة:

ومع ذلك، فإننا نؤمن مطلق الإيمان بأن لغتنا المتبنَّاة بعقد تواصلي فيما بيننا لا تخرج أو تنحرف قليلا أو كثيراً عن بنيتها الاجتماعية الشمولية في الممارسة والحياة أياً كان شأنها، وبمقاربة بسيطة، فإن اللغة المتواضع عليها اجتماعيا بين ذويها تاريخياً وآنياً ومستقبلياً يصعب عليها أن تنهض وتتحدى يومها وغدها خارج استعمالاتها في مختلف القطاعات الإنتاجية والإبداعية والاقتصادية وتوطينها معرفيا وتكنولوجياً، وإلا فقد أضحت هذه اللغة عالة على مجتمعها الذي قد تضطره هموم الحياة وهواجس الطموح ومقتضيات العصر

إلى تولية باله شطر لغة أو لغات أخرى يتخذها ذريعة للتجاوب مع إحدى اللغات العالمية الموظفة عصرياً في الذرة، والتجارة، والمخبر، والورشة، والصناعة،... إن عاجلاً أم آجلاً، وذلك تحت طائلة أن الناس كلهم شركاء فيها سواء مارسوها من قريب أو تفاعلوا معها من بعيد.

أجل، أضحت العولمة واقعا معيشا بمعظم أشكالها، وخاصة شبكات الاتصال ومظاهر الابتكار الحديثة، غير أن العربية لما لها من دفع خارجي قوي منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، فضلا عن طواعيتها اللسانية الداخلية، وعمَّا تحمله من إرث خلفي معزّز بالقرآن الكريم المحفوظ بحفظها، يتيح لها أن تكون في مصافّ أرقى اللغات العالمية المتوقَّع بقاؤها وخلودها.

ومع ذلك، لكي تكون العربية في منعة من شبح أنياب هذه الكوكبية التي لا تشبع ولا تروى، ولكي تكون ذات حظوظ آمنة لمسايرة عصرها وتحدّي الألفية الثالثة، يجدر بذويها الناطقين بها، قبل سواها، أن يحرّروها من حصارها المصطنع الذي لا يوجد ما يبرّره لسانيا ولا عملياً، كتعريب المحيط الاجتماعيّ والثقافي العربي تعريبا نظيفا وشاملاً، وتوحيد المصطلحات ذات الانتشار الواسع والمشترك والتعامل الإعلامي (من سمعي وبصري)، والتواصل بها مع الجمهور العربي في مختلف الممارسات الرياضية والسياحية والأنشطة الأخرى الأكثر تأثيراً، دون التغافل عن تعريب التكوين المهني في كل مجالاته مع إنجاز دليل قاموسي للمصطلحات الموحدة بلغة عربية بسيطة خالية من مظاهر التلوث والتهجين.

العربية طرف مستقبلي بين اللغات:

وقد ينظر بعضنا إلى ما أثرناه نظرة ازدراء ولا مبالاة، بل ربما لا يوافقك أدنى موافقة بخصوص أي نوع من الصراع المستقبلي بين اللغات، لأنه يرى من خلال رؤية بريئة أو متسامحة أن اللغات، إنما خُلِقت أو وجدت لتكمِّل بعضها بعضا، وأنا شخصيا أميل في سياق خارجي ربما لا يخلو أحيانا من ومضات صوفية أو روحية تتجاوز أي بُعد من أبعاد إدراكي المحدودة، بأن اللغات لا تلتهم بعضها بعضا التهاما ذاتيا قصديا مسبقا، لأن اختلاف الألسنة آية من آيات الله أزليا وسرمدياً.

أجل، التعدد اللساني البشري سنة كونية لا تَنْمَحِق بمرور عصر وقدوم عصر آخر، ولا حتى بانمحاق جيل وخلافته بجيل آخر، بل ولا حتى بأفول مكان، لأن سُنَّة الله التي خلت في الأولين هي السنةُ عينُها التي لا ممحوص للاحقين عنها، فإن لم تكن قلبا وقالباً، فهي ليست بأقلّ من أن تكون امتدادا تعاقبياً.

وأتمنى ألا يفهم كلامنا السابق أنه دعوة إلى التقليد دون التجديد، مع أنه ليس ثمَّة ظاهرة تقليدية دون تجديد، ولا ظاهرة أخرى تحديثية دون تقليد، سواء في مسار سلوكنا وأسلوب حياتنا أم في تواصلنا وخطابنا، أمّا اللغة فهي من أكثر الظواهر تشبّثا في أفقيهتها بعموديتها، إذ ما تترجم عنه من مدا ليل ثقافية وصناعية وفكرية وأشياء مختلفة قد يتغير في شكل عموديته، ولكن الصور اللغوية تبقى هي دوالّ ومدا ليل.

ولكي تكون اللغة العربية في منعة من شبح أنياب العولمة، وذات حظوظ وافرة لمسايرة العصر وتحدي الألفية الثالثة، وتخرج من حصار فرضه عليها أهلها قبل غيرهم، منذ بزوغ فجر النهضة العربية، ورغم ذلك فإنّ ما أشير اليه لا يعدو إلا محاولات محتشمة أو مبادرات منعزلة في هذا البلد العربي أو ذاك،

لكي يتحقّق كل هذا أو نصيب ملموس منه، يجدر بذويها النهوض بهذه اللغة وأن تعطى لها ولِلْعاملين عليها العناية التي تليق بها.

كل لسان لا يوافق إلا نفسه:

وإذا كانت العولمة تشبه الهيمنة في كثير من وجوهها، فإنها لن تظفر بأي شمولية جامعة مانعة حاضراً ومستقبلا، لأن الوعي العالمي النزيه يدرك تمام الإدراك أن العولمة اللغوية تسير مسارها المرصود لها، بفعل تقدّم على حساب تخلّف، وبفضل ثراء وقوة وعلم على حساب فقر وضعف وجهل، لكن هذه الظاهرة التي يشعر بها كل طرف منتصر مقابل شعور طرف منهزم، من حسن الحظ، لا ينسحب من قريب على لغات الشعوب سواء مَثَّلتْ أغلبيات أم أقلّيات، ولكن العالمية "غالبا ما قُدِّمت على أنها منشأة مساواتيّة ترمي إلى إتباع الجدارة والمقام نفسيهما لمحكيات المتحدات الاجتماعية ذوات الأهميات البسيطة والمجردة من الاعتبار كما للألسن الواسعة الانتشار، ما كان مقصوداً، في الحقيقة، بشكل لا واع، هو في الأغلب عملية تسلُّطية تسعى إلى إقناع الجمهور بأن البنى المسجّلة في "الألسن الواسعة الانتشار"، والإنجليزية خاصة، كانت تتلاقي، حيث كان، بأشكال مختلفة ظاهرياً، ولم نكن نطرح السؤال، مثلا، لمعرفة ما إذا كانت البنية الأساس للألسن المهيمنة، بواسطة فاعل (فا) ومفعول (مف) مجتمعين حول فعل (ف)، حقيقة عالمية"[33] مع أن كل لسان في واقع الأمر "يوافق تحليلا خاصا بمعطيات التجربة، ومعطيات التجربة هي ما نشير إليه في العادة على أنه العالم الذي نعيش فيه"[34].

إن الاستسلام لما يُسمَّى بالعولمة أسوأ من رفع راية بيضاء لقوة عسكرية، لكن إذا أردت أن تحظى بما يصهرك فيها صهراً ممسوخاً، فخليق بك أن تُعدّ ما استطعت من آليات تعايش معها على قدر مقاسك.

صراع العربية المحتوم مستقبلا مع لغات

إننا مؤمنون، من باب واقعنا لا من باب طبيعة لساننا، بأن اللغة العربية لن تكون مثل لغة حديثة كالانجليزية في سعة انتشارها ولا حتى الاسبانية، إلا إذا حلمنا بعالم لن يولد اليوم ولا في الغد القريب، لأنه لا يمكن لك أن توقف حركة العالم عقوداً حتى تهيئ له لغة جديدة تحلّ محلَّ الانجليزية، ولكن أقصى وأقسى ما نطمح إليه أن نكون نحن جزءاً من هذه العولمة بسلبياتها وإيجابيتها عسى أن تصير لغتنا العربية يوما جزءا منها أيضاً.

وكل امرئ شاء له قَدَرُه أن ينتمي إلى اللسان العربي مخيَّراً أو مُجبراً، فإنه يتطلع إلى أن يكون هذا اللسان مَدَداً لا نِدًّا للألسنة العالمية الأخرى التي ستُرغم إن عاجلاً أم آجلاً على التعامل معه تعامل الأخذ والعطاء، وتعامل السَّند الكفء، لا تعامل النظير الذي لا يُحسب له أدنى حساب.

ومع ذلك، فإن اللغة العربية ستشهد على المديين القريب والمتوسط صراعا لغويا أشدّ اهتزازا من صراعها العولمي القديم الذي كانت فيه هي الآمرة النهاية من آسيا شرقا إلى أوروبة جنوباً، وكل الدلائل تثبت لنا أن هذا الصراع بدرت بوادره منذ القرن التاسع عشر بصورة جلية، وكادت جهات فكرية عربية تتبنّاه غير بعيد من مواطنها، لولا لطف الله، ووجود شخصيات عربية وإسلامية قاومت تلك الشطحات الغربية والتغريبية والرجعية، ولولا العولمة الحضارية القَرَوسطيّة للغة العربية،ولولا،.. ولولا،... والصراع اللغوي المستقبلي، هل سيتم

بسعة انتشار لغة أم بنسبة عدد ناطقيها؟ إن الوضع الحالي يكشف لنا أن تسعين في المائة "من العناصر التي تتحرك في شبكة الانترنيت هي بالإنجليزية، وحدها، وخمسة وثمانين من الاتصالات الدولية عبر الهاتف تتمّ بالانجليزية أيضا، وأن أكثر من سبعين في المائة من الأفلام التلفزيونية والسينمائية بالانجليزية، وخمسة وستين في المائة من برامج الإذاعات في كل العالم بالانجليزية"[35].

هل لن يبقى إلا أربع لغات مستقبلاً؟

وبناء على ما ألمح إليه أعلاه، فإن اللغة العربية يتواصل بها حاليا زهاء ثلثمائة مليون من المحيط العربي إلى خليجه، فضلا عما يقارب مليار مسلم يتعاملون بنسبة متفاوتة باللغة العربية، ولعل هذا ما أوحى إلى الأديب الإسباني "كاميلوخوسي سيلا" (الحائز على جائزة نوبل الأدبية سنة 1989) أن يذهب إلى أن لغات العلم في تناقص مستمر، منتهياً إلى أنه لن يبقى مستقبلا إلا أربع لغات عولمية، ذكر من بينها العربية إلى جانب الصينية والاسبانية والانجليزية[36]، حتى وإن كنا نستبعد هذا الاستشراف المستقبلي في حصر اللغات في أربع أو ستٍّ، فشعب يعتزّ بلغته يهون عليه أن يخوض حرباً عالمية ضروساً، ولا يتنازل عن لغته التي هي جزء من كيانه ووجوده الآني والمستقبلي.

الصراع اللغوي المستقبلي لا ينفطم عن رسمه:

وبما ينبغي أن نلتفت إليه أن الصراع اللغوي المستقبلي لا يقبل الانفطام عن الرموز التي ترسم بها لغة من اللغات التي ستنتقل من التفاعل والتكامل إلى محاولة الهيمنة، من باب أن لا يسكن أسدان في عرين واحد، لأن الصراع

اللغوي الذي حدث في ماض قريب أو بعيد، بَيَّن لنا أن كتابة لغة بخط جديد قد يؤدّي إلى تعصّب قومي أعمى لا يراعي ثقافة ماثلة، ولا حتى ديناً حدث ذلك في تركيا منذ العقد الثالث من القرن الماضي، حيث جرى استبدال آلاف الكلمات العربية بأخرى تركية، مع ما صحب ذلك من التكلف والتعسّف باعتبار التطور الدلالي، ولذلك، فلا تعجب من التكالبات التي تحدث بدول إسلامية أسيوية لا تزال ثابتة على عهدها في رسم لغاتها بالحرف العربي.

لغتنا مسار حركي:

وإذا كنا نقبل بعض القبول، مادامت المسألة لا تقبل التعميم، الرأي القائل "إن اللغة العربية قضية عادلة كُلِّف بها محام فاشل"، فإنه ماذا يُراد لهذه اللغة مستقبلا حتى تكون نظيرا كفئا لمقارعة نظيراتها من اللغات المستقبلية؟ لا أحسب أن هنا إجراء استراتيجياً موحّداً بين حماتها وناطقيها وممارسيها، لكن أسوأ ما نقف عليه، ونسمع به، تلك الأصوات التي تتغنّى بتحديث العربية وعلومها وقواعدها أن تُحدَّد أبعاد وميكانيزمات جلية.

اللغة أية لغة مسار حركي، ما في ذلك شك، لكن بشرط أن تظل اللغة سائرة بأمان وضمان دون أن تحيد عن سِكَّتها تارة أفقيا، ومرة عمودياً، حتى اللغات "البدائية" لا تطاوعك فيما ترومه من تحديث فيها دون مقاومة شرسة، وفي مقابل ذلك، يمكن لأية لغة أن تتلاقح وتتفاتح قرضاً واستقراضا مع لغات أخرى أيا كانت فصيلتها، لكن هذه العملية لا تخص إلا مستوى واحدا، ونعني به المستوى المعجمي، وبنسبة ضئيلة جدا، المستوى الصوتي، ومن ثمَّ، فبدلا من ضياع الوقت بغية الحديث عن "التحديث"، فإنه يليق بنا أن نتحدث عن

طرائق ووسائل "التحديث"، وهذا أقصى ما تسمح به لغة ذات إرث ثقافي وتاريخي وأدبي يعود إلى فترات خلفية قصوى سحيقة جداً.

القرآن والعولمة اللغوية:

ولعل ما سيقوّي مستقبل اللغة العربية ويسعفها عصراً بعد عصر، أن العامل الديني لا يعَدّ مثبّطاً لمسيرتها العولمية القادمة، لأنه يصبّ في صالحها، بسبب أنه عالم ثابت وقابل للاستمرار، ثابت لأنه مرتبط بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقابل للاستمرار، لأن ألفاظه متساوقة في معانيها، وواحدة في أوامرها ونواهيها، بصرف النظر عن العصور والأجيال الماضية والآنية والمستقبلية، لأن ألفاظ القرآن، حتى وإن كانت فعلاً عربية، فإن توظيفها لا يشبه أي توظيف بمستوى معجمي متماثل صوتيا ودلالياً.إن المدد اللساني التي تتماز به العربية بفضل اللسان العربي القرآني، لا تظفر به أية لغة بشرية، وهذا المدد لا يزيد من يوم إلى آخر إلا اتساعا وامتدادا واعتزازا، وهي اللغة الوحيدة التي تصل المؤمن بربه دون واسطة من ترجمة أو تفسير.

ولا أحسب أن العصبية القومية الضيقة ستقوى شوكتها ويطول عمرها، وسيقابل ذلك تقاربٌ إنساني حتمي في ظل راية واحدة، هي راية القرآن التي ستظلّلُ بأفيائها قبائل وشعوبا أشمل وأوسع مما هي عليه حالياً.

مستقبل الحرف العربي أمام التجمعات الإسلامية:

ومما نتبصره أن المجتمعات الإسلامية التي تراجعت عن كتابة لغاتها بالحرف العربي، ستنبذ يوما لا محالة الحرف اللاتيني، وتعود من جديد إلى

تعميم الحرف العربي، لأنه ما من جدوى في الاستمرار بتبنّي حروف تعبّر بها عن أصوات دينها، وأخرى ترمز بها إلى أصوات دنياها، ستضجر لا محالة يوما من هذه الثنائية التي لا تخلو من غرابة، فضلا عن كونها تبدّد طاقات الكتب وحتى الناطقين شفهيا، وتشوش فكرهم وحياتهم.

قد يرى غير واحد مما ألمحنا إليه مجرَّد هراء وخيال، طالما أن تجمعات إسلامية قطعت أشواطا علمية وثقافية وإبداعية بعيدة يتعذر معها الانتقال من رسم إلى رسم، وهذا واقع لا يدحضه أحد، غير أن الانتقال من حرف إلى حرف أمر سلس، ما دام الأمر لا يتعلق بترجمة، بل فقط بكتابة، ثم لماذا ارتدَّت بعض التجمعات عما كانت ألفته من ألفبائية، وتبنّت ألفبائية جديدة؟ إن الأمر يتعلق بتبنّي لغة جديدة.

وما من شك في أن ضغوطا سيعظم مفعولها ليعمّ الحرف العربي لغات عالمية بذاتها، بفعل انتشار اللغة العربية عبر كوكبنا، لأن المؤمنين الناطقين بهذه اللغات لن يشعروا براحة البال، وهم يتطلعون إلى الكمال، بلغة أو لغات لا تمتّ بصورتها الصوتية وطبيعة تراكيبها وسرّ نظمها إلى اللغة القرآنية التي لا يشوبها نقص ولا زيادة.

هل من صِمام آمن لمستقبل العربية؟

ومع ذلك، فإن ما ألمعنا إليه ينبغي ألا يجعلنا نغترّ اغتراراً قليلاً أو كثيراً بأن مستقبل اللغة العربية في صراعها مع اللغات العالمية الأكثر نطقاً أو مساحة مضمون بصِمام آمن، بل ليتحقّق ذلك تحتاج من ذويها تيسير علومها، وتعميم استعمالها بينهم داخليا وخارجياً، وحمايتها من الركاكة والتهجين والإهمال، وأمام العرب فسحة لسانية طيّعة تؤازرهم على التخطيط المستقبلي

العقلاني للغتهم، وهي دين ومصير في عنقهم لاسعا فها حداثيا حتى تكون هذه اللغة على أتم الاستعداد لتحدي العولمة اللغوية المستقبلية.

وأعتقد أن ضآلة لغات وصمود لغات في العالم، سيختلفان عنهما فيما سلف، يوم كانت اللغة تفرض وجودها على حساب مصادرة حقوق لغات وطنية أخرى في الوجود، حدث ذلك منذ ظهور الاكتشافات لجزر وأرضين بل لقارة بكاملها، ومنذ بروز الهيمنة الاستعمارية في أدنى وأقصى محطة في عالمنا القديم والجديد، ذلك عهد ولَّى ولن يُقَدَّر له أن يعود بشروره التي لا تبرح شعوب كثيرة تئن تحت وطأته، وتجني ما تجني من تركته السيّئة، ومنها الاستلاب اللغوي الوطني الأصيل الذي نسيته أو تناسته تجّمعات بشرية على مستوى القارات التقليدية، وكرَّست في الوقت نفسه تبنِّي لغة الغالبين، ولربما أضحت فئات أرستقراطية تعدّ فقيهاً لغويا بالأصالة اللغوية أمّياً أو في أحسن الحالات هو فرد أحاديّ ناقص، ومن ثمّ لا يُجازى لأن يكون مثلاً، في مجمع لغوي خاص بلغته، لجهله لغة أو لغات أجنبية حديثة، وهذه ظاهرة نفسية مرضية لا لسانية، يجب أن تعالج من داخلنا لا من خارجنا، ولعل أخطر ما فيها عدم الثقة في نفوسنا، وإعطاء أسوأ مثال لجيلنا، فضلا عمّا يصحبها من تجريد لقيمنا، وإهدار لهويتنا، وتشريد لوصل أجيالنا.

ومما يلوح في الأفق البعيد قياسا على ما يُمارس سراً وعلانية من ممارسات غير أخلاقية وغير متكافئة بين دول "متقدمة" ودول "متخلّفة"، ودول غنية وأخرى بائسة، فإن هيمنة لغة هنا سيقابلها، وفي آنٍ، انزواء وتَقَوْقُعُ لغة هناك، وسيكون من الصعب على لغة لا تُسْتَعمل حاليا ميدانياً، ولا يُنْتَجُ بها المعرفة، ولا يُبْدعُ فيها من الداخل مع تطعيمها معجمياً من الخارج، أن يكون

لها نَفَسٌ قويّ وطويل للصمود أمام السيل الجارف للعولمة اللغوية التي لن تَشْبَعَ ولن تَرْوَى.

ومن ثمَّ، فإنه يُوصى بتجنيب اللغاتِ الناهضة ذات الاستعمال المحدود، والانتشار الضيق، الصراعَ المستقبليَّ ما أمكن إلى ذلك سبيلا، وبدلاً من خَوْضِ لغةٍ معركةً خاسرةً من البداية، فإنه من الأَوْلَى للقائمين عليها أو المنتمين إليها أن يُحصّنوها من الداخل حتى لا تُغْزَى غَزْواً لا إرادياً من الخارج، على ألاَّ تتم تلك الحصانة بالعاطفة الرومانسية، ولا بالشعارات الفارغة، ولا بالإعجاب والتغنّي بأمجادها، بل بإنتاج المعرفة وإثرائها وتقويم ما قد يَعْوجّ منها أسوة بمن سبقونا، وإفساح الفرصة لها لتعميمها على جميع الأصعدة تعليميا وعمليا ومعملياً.

وقد يعتب علينا عاتب، ومن حقّه ذلك تماما، متسائلاً في غير قليل من العجب: من أين لك هذا البصيص الذي بَصَّ لك، أو من أين لك هذا الاستبصار الذي يُبَصِّرك بمستقبل واعد للغة العربية، وقد كنت حتى الحين غير متفائل بهذا المستقبل العولمي لهذه اللغة؟ أجل، هذا ما بدا ويبدو في ثنايا حديثنا هنا ظاهرياً.

في واقع الأمر لا يوجد أيُّ تناقض صريح بين صيحة هنا، وصُراخٍ هناك مما سبق أو لحق من إيماءات عارضة فيما لاح لنا أن نبديه بشأن المستقبل العولمي للغتنا العربية، لأننا في أعماقنا وقرارة أنفسنا نميّز بجلاء بين العربية بوصفها بنية مستقلة لا صلة لها بمن يقبل عليها أو يدبر عنها من جهة، وبين من تعاطوها ويتعاطونها ماضياً وحاضراً ومستقبلاً من جهة أخرى، وهذا هو الخيط الأبيض الذي يفصل بين قوم لغة، ولغة قوم، فنحن معاشرَ العربِ، تبعا

لما يشهد به واقع الحال، أقرب إلى أناس يستعملون لغة أو لغات منا إلى آدميين يصنعون لغة، وشتان بين الأمرين.

غياب الوعي اللغوي الذَّاتي في الآخر:

ولعل من أخزى ما يلحق المرء من مُخْزيات أن يسعى جاهدا في استعمال لغة بديلا للغته، وبدون حياء، وهذا الصنف من البشر صنف مستهلك، حتى ولو أنتج المعرفة، وصنع الذرة بلغة لا يمتُّ بصلة أيَّ مَتٍّ تاريخي ولا قومي ولا ديني إليها، بل تراه ينافح عنها منافحة أشرس من كونها لغة تواصل ناقلة، لأن المرء غاب عنه وعيه الذاتي لظرف خارجي أوجده، إلا واندمج في وعي الآخر، ومن ثم لكي تردّه إلى أحد مقوّماته الجوهرية، عليك أن تفكّر وتتدبَّر كيف تسحبه من أعماق وعي الآخر الذي امتزج به قسرياً أو إرادياً لم يعد يشعر به أقلَّ شعور.

بيد أن ما أومأنا إليه آنفا لا يشكّل ضربا من المستحيل أمام الزحف المستقبلي عولميا للغة العربية، وإن الصنف الذي أشرنا إليه هو من سيلهث وراء لغة دينه وإرثه وهويَّته، بل هذا الصنف الأقرب إلى وعي ومجد الآخر منه إلى وعيه الأصيل ومجده اللآثل، سيندثر بعد عقود قليلة قادمة، وسيبشّر زوالهم بمستقبل زاهر للغة العربية التي ستكون أفضل حالا بدونهم، لأن هذا الصنف المنصهر في وعي الآخر عالة لا تطاق حاليا على حساب اللغة العربية التي سَتُؤْذى أكثر مما ستجدي نفعا لو يُقَيَّض لهم الاستمرار والخلود معها، وإلا فماذا ستجني العربية من قوم يعادونها، وهم منتمون إليه صليبةً، وينتجون المعرفة، ويبدعون، ويتمرسون بلغة أخرى؟.

وإذاً، فثقتنا في اللغة العربية أعظم من ثقتنا بذويها، حتى وإن كان التعميم هنا إجحافا كبيراً في حق رجالات لم يألوا جهداً ولا ادّخروا وسعاً في خدمتها والنهوض بها نظريا وعمليا، منذ ظهور ذلك الرعيل العربي الأول في البصرة التي آن الأوان لها لأن تُرَسَّم عاصمة علمية للعربية، إلى فترات لاحقة متتابعة رغم العوائق والمثبِّطات التي عرفتها هذه اللغة في مضاربها، كما أننا لا نتجاهل النهوض الشامل والاستثنائي الذي شهدته العربية في بلد عربي مثل سوريا التي عملت على تعميم استعمال اللغة العربية تعميما شاملا في جميع دواليب الدولة السورية الشقيقة.

مكتبة البحث:

[1]- ينظر: "أتعرّف على العولمة"، ص: 3، د. صالح الرقيب، دار البحّار، عمان، الأردن.

[2]- مجلة "الطريق"، ص: 7، العدد الرابع، سنة 2000.

[3]- نفسه، ص: 24.

[4]- نفسه، ص: 24.

[5]- ينظر: المصدر نفسه، ص: 25 – 27.

[6]- التواصل والتثاقف، ص: 293، مطبعة النجاح الجديدة، ط: 2010/1، الدار البيضاء (المغرب).

[7]- عالم الفكر، ص: 42، مجلد: 22، العدد: 1999/2، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت.

[8]- ينظر: مجلة "بونة" العدد الثالث، ص: 34، يونيو، 2005.

[9]- عالم الفكر، المرجع السابق، ص: 45.

[10]- نفسه، ص: 45.

[11]- سورة الحجرات، آية: 13.

[12]- سورة الحجرات، آية: 14.

[13]- من قضايا الفكر واللغة، ص: 289 – 290، مصطفى بن حمزة، ط: 2010/1، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط.

[14]- العرب تاريخ ومستقبل، ص: 245، جاك بيرك، ترجمة: خيري حماد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ط: 1971.

[15]- من قضايا الفكر واللغة، ص: 292.

[16]- نفسه، ص: 293.

[17]- العربية، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، ص: 1، يوهان فوك، ترجمة: د. عبد الحليم النجار، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط: 1951.

[18]- نفسه، ص: 50.

[19]- ينظر: اللغات السامية: تخطيط عام، ص: 85 – 86، تيودور نولدكة، ترجمة: د. رمضان عبد التواب، المطبعة الكمالية، القاهرة.

[20]- بهذا الصدد يراجع دراسات في العربية وتاريخها، ص: 14.

[21]- سورة الروم، آية: 22.

[22]- ينظر: أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، ص: 16 – 20. محمود عباس العقاد، دار المعارف، مصر، ط: 1970/2.

[23]- الأصوات والإشارات، ص: 66، كندراتوف، ترجمة: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972.

[24]- عبد الليل مرتاض، أعمال الموسم الثقافي، المجلس الأعلى للغة العربية، (الجزائر) 2000، ص: 37.

[25]- اللسانيات وأسسها المعرفية، ص: 129، د. عبد السلام المسدي، الدار التونسية للنشر، أوت 1986.

[26]- نفسه، ص: 130.

[27]- سورة يس، آية: 40.

[28]- محاضرات في الألسنية العامة، ص: 20، ف. دي سوسور، ترجمة: يوسف غازي، مجيد النصر، دار نعمان، ط: 1984، بيروت.

[29]- نفسه، ص 93 – 94.

[30]- الألسنية (علم اللغة الحديث)، ص: 40 – 41، د. ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط: 1983/2، بيروت.

[31]- ينظر: مدخل إلى اللسانيات، ص: 37، رونالد إيلوار، ترجمة: د. بدر الدين القاسم، ط:1980، مطبعة جامعة دمشق.

[32]- الصاحبي في فقه اللغة، ص: 33، أحمد بن فارس، تحقيق: د. مصطفى الشويمي، ط: 1963، مؤسسة بدران للطباعة، بيروت.

[33]- وظيفة الألسن وديناميتها، ص: 346 – 347 أندري مارتني، ترجمة: نادر مراج، ط: 2009/1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.

[34]- نفسه، ص: 347.

[35]- العولمة والهوية الثقافية، ص: 235، إشراف: أ.د. فضيل ديبو، مخبر علم الاتصال للبحث والترجمة، 2010، جامعة قسنطينة.

[36]- ينظر: المرجع السابق، ص: 237.

العربية سابقة واللاتينية لاحقة

د/ عثمان سعدي
رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع
عن اللغة العربية

في العدد 27 من مجلة اللغة العربية الصادرة عن المجلس الأعلى للغة العربية، وفي صفحة 9 ذكر العلامة مختار نويوات "أن كلمة صرات أو سراط العربية أصلها لاتيني من ستراتا strata"، مخالفا بذلك اللغويين العرب مثل ابن منظور، والفراء وغيرهم الذين يرون بأنها عربية.

وأنا أعود لكتاب العالم اللغوي الجزائري عبد الرحمن بن عطية (الجذور العربية للكلمات اللاتينية Le Substrat Arabe de la langue latine) الصادر بالفرنسية سنة 2010 ، والذي أثبت أن 67 في المائة من الكلمات اللاتينية منحدرة من العربية. العربية ظهرت قبل آلاف السنين وقد سجل ظهورها في الألفية السادسة قبل الميلاد. بينما وُلدت اللاتينية في القرن الثالث قبل الميلاد. قبل هجرة القبائل الهندو أوروبية لأوروبا في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، كانت أوروبا كلها تتكلم اللغات العروبية كالآرامية والكنعانية والبابلية والأشورية والبربرية وغيرها. وقد أثبت بن عطية ذلك في كتابه (العرب والهندو أوربيون Arabes et indo-europées). المؤرخ الأوروبي دوتان G.Dottin في كتابه (الشعوب القديمة لأوروبا) يقول : "**الليبيون مثل الإيبيريين تقدموا حتى نهر الرون الذي حمل فرعان منه اسم ليبيكا Libyca**

والذي يرسم حدود ليبيا، مدينة في تراكونيا تسمى ليبيا" . علما بأن البربر الأمازيغ كانوا يسمون في العهود القديمة الليبيون أو اللوبيون.

لقد سُبقت اللاتينية في إيطاليا باللغة الإتروسكية ، فالأتروسكيون تواجدوا بإيطاليا وأوروبا قبل قرون من ظهور اللاتينيين واللاتينية أخذت من لغتهم التي هي لغة عروبية.

جذر كلمة strata اللاتينية stra أي (سطر) أي خط مستقيم ، ومنها Strategishe أي ستراتيجيك ومعناها رسم الخط الرئيسي للشيء أو الفكرة.

وقد رأيت أن أنشر في مجلة اللغة العربية عرضا مختصرا لكتاب بن عطية:

الجذور العربية للغة اللاتينية لعبد الرحمن بن عطية:

Le substrat arabe de la langue latin

صدر هذا الكتاب في شهر نوفمبر تشرين الثاني 2010 من دار هومة بالجزائر. في 790 صفحة، أثبت فيه المؤلف أن 67 في المائة من جذور الكلمات اللاتينية لها أصول عربية. وقد سبق للكاتب أن أصدر سنة 2008 كتابا عنوانه: (العرب والهندو- أوروبيون Arabes et indo-européens) يثبت فيه أن أوروبا قبل غزوها من طرف القبائل الهندو-أوروبية في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، كانت شعوبها تتكلم اللغات العروبية كالأرامية والبابلية والأشورية والبربرية، حيث كانت أوروبا مزروعة بمستوطنات عروبية. ويستعمل المؤلف مصطلح arabique للتعبير عن مصطلح عروبية بدل مصطلح السامية الذي بطل استعماله بسبب مدلوله الأسطوري .

ويستعمل كلمة عربي Arabe تسمية للعربية الحديثة العدنانية التي نزل

بها القرآن الكريم. وقد رفض رينان E.Renan مصطلح السامية في كتابه الهام (تاريخ اللغات السامية) واقترح أن تعطى لها التسمية السورية العربية. كما اقترح لايبنيتز Leibnitz الذي ولد في سنة 1646 أن تعطى تسمية عروبية للغات السامية .

سبق للكاتب بن عطية أن قدمته لقراء العربية في سنة 2005 من خلال كتابه الهام : (تاريخ العربية لغة العالمين) الذي ألفه بالفرنسية والذي نشر في الجزائر مترجما للعربية.

عبد الرحمن بن عطية يكتب بالفرنسية ويعتمد في كتاباته على المراجع والنقوش الأوربية.

يعتمد المؤلف على قاموس مهم عنوانه (القاموس اللاتيني . الفرنسي للمؤلفين بينواست Benoist وغولزير Goelzer طبع دار غارنيي Garnier الفرنسية سنة 1892 الذي نشر في فرنسا وألمانيا، ويحتوي على كل الكلمات اللاتينية.

العروبيون في أوروبا:

يثبث بن عطية وجود مستوطنات عروبية حدثت في اليونان القديم اشتقت من لغاتها ا اللغة اليونانية. (وقد أكد هذه الحقيقة المؤرخ الفرنسي بيير روسي في كتابه "وطن إيزيس تاريخ العرب الصحيح" الذي نشره المجلس الأعلى للغة العربية مترجما) ؛ ومن اللغة اليونانية انطلقت اللاتينية التي تأسست في القرن الثالث قبل الميلاد. فاللغة اللاتينية أخذت من اللغات العروبية قبل الإسلام، بينما اللغات الأوروبية الحديثة أخذت من العربية من الأندلس العربي المسلم. فاللغة الفرنسية التي ظهرت في القرن الثاني عشر الميلادي تأثرت كثيرا باللغة العربية .

سُبقت اللاتينية بآداب للغات عروبية قرونا عدة، كالآرامية مثلا التي ظهرت في بداية الألف الثانية قبل الميلاد وكانت لها آداب لامعة. وفي الشمال انتشرت اللغة الكنعانية الفينيقية في الساحل الشامي وشمال إفريقيا، وفي آسيا الصغرى: تركيا وأرمينيا وكردستان، مثلما يرى سترابون Strabon الذي يؤكد أنها حتى القرن الأول الميلادي كان يتحدث بها في هذه المناطق. وفي القرن الرابع عشر قبل الميلاد ظهرت الحروف الهجائية الكنعانية الفينيقية التي تعتبر الجذر الذي تفرعت عنه الحروف اليونانية فاللاتينية. وقد عثر في شمال سوريا على قصائد كنعانية تعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد. واللغة البابلية لغة الرافدين التي كتب بها قانون حمورابي الذي تراوح تاريخه بين 2300 و 1800 ق. م. حسب المؤرخين. فدورمي G.Dhorme في كتابه (العربية الفصحى ولغة حمورابي) يشير إلى العلاقة العميقة المعجمية والنحوية بين العربية الفصحى والبابلية لغة حمورابي. ومعنى هذا أن لغات عروبية كانت لها آداب ثرية منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد .

غوستاف لوبون G.Lebon في كتابه الحضارة العربية يرى 'أن الأشورية، والكلدانية، والفينيقية، وغيرها من اللغات التي يقال عنها سامية تتحدر كلها من أصل واحد .'

في كتابه (تاريخ الاستيطان العروبي في اليونان القديم) بين فيه بن عطية أن اليونان سُكن من العروبيين واستشهد بالعديد من المؤرخين الأوروبيين الذين يؤكدون أن الجماعات التي سكنت اليونان القديم لم تكن هندوأوروبية وإنما شرقية. وقد استعرض كلمات مثل ward,wrodan : تعني زهرة وهي التسمية العربية ورد. وكلمة borg وتعنى القلعة او المدينة وهي الكلمة العربية برج.

وكلمة sami وتعني المكان المرتفع، وهي كلمة عربية سامي, ويقول بن عطية فقد خلصنا في كتابنا بأن اليونانية القديمة لغة عروبية. ويقول المؤرخون أن اليونان القديم لم تكن فيه لغة واحدة وإنما عدة لغات وكل واحدة منها تنتمي إلى استيطان معين : أشوري ، كنعاني، مصري وغيرها. وعلى كل فالعديد من الكلمات العربية ثبتت في اليونانية الكلاسيكية بعد بروز الكوينية 'koinسواء بأسلوب مباشر أم بأسلوب محجب بكتابة محرفة لفظيا ككلمة وازيس oasis وتعني واحة حرفت قليلا. فالحاء تتحول إلى سين .

وعن طريق اليونانية الكلاسيكية دخل العديد من الكلمات العربية لقاموس اللاتينية. وعلى الخصوص وجود مجموعات عروبية بشبه الجزيرة الإيطالية وبصقلية والتي اعتبر أفرادها صقليمين أصلاء قبل قرون عديدة من مجيء القبائل الهندو أوروبية؛ في هذه الفترة ترسخت الكلمات العروبية في لغة روما. صقلية سُكنت في القدم قبل عزو القبائل الهندو أوروبية من طرف العيلم الذي قال عنهم كورتيوس E.Curtius في كتابه التاريخ اليوناني، بانهم آسيويون ولهذا فعندما جاء الفينيقيون لصقلية رحب بهم سكانها لأنهم ينحدرون من أصل واحد وهوالأصل العروبي . سُكنت إيطاليا من طرف الليغور والإتروسك، وهما شعبان غير هندوأوروبيين. الليغور كانوا بحارة مهرة وحسب العديد من المؤرخين فإن الليغور ينتمون إلى جنس واحد مع الفينيقيين. أما دوتان G.Dottin فيرى بان الليبيين (البربر الأمازيغ) الذين سكنوا إيبيريا التي وصلت في انتشارها حتى نهر الرون الذي يعتبر حدود ليبيا كما يرى فيلياس Phileas، ففرعان من نهر الرون كانا يحملان اسم ليبيكا، ومدينة في لوزيتانيا (البرتغال الحالي) تحمل اسم ليبيا إلخ... فدوتون يقول: 'إن الليغور هم

بربر أيبير وأمبراطوريتهم كانت تمتد حتى وسط إيطاليا'، ومن المعلوم أن تسمية نهر الرون في أصلها رودانوس وإذا حذفنا اللاحقة اليونانية سيصير الاسم رودان أي نسبة لنهر الأردن في بلاد كنعان. ويؤكد المؤرخون الأوروبيون بأن الإيبر ما هم إلا بربر أمازيغ هاجروا من إفريقيا إلى جنوب أؤرويا ويسمونهم اللوبيون الفينيقيون .

اما الإتروسك فجذر التسمية عروبي (بربري) وهو إسك وتعني قرن، ينتمون للعروبيين، وهم من أصل واحد مع الفينيقيين الذين يقول عنهم غوستاف لوبون: 'وعن طريق قوافل اخترقت جرمانيا يستقبل الفينيقيون في مدخل نهر بو ما يصلهم من شواطئ البلطيق'. وهذا يؤكد أن الفينيقيين تمركزوا في وسط أوروبا في نواحي نهر الدانوب وبلاد إيليريا بالبلقان . هم تمركزوا في مالتا في القرن الثالث عشر ق . م . وفي سردينيا وقادس بإسبانيا في القرن الحادي عشر .

فلاروس الكبير الموسوعي يقول 'إن الفينيقيين انتشروا في صقليا وإيطاليا وغالا' .

أباطرة رومان عروبيون :

ويفرد بن عطية فصلا عنوانه: (في روما: أباطرة وبابوات من أصل عروبي هو انعكاس ورمز لاستيطان). يقول عندما غزت القبائل الهندو أوروبية أوروبا كان أفرادها يمثلون أقلية بالنسبة للمواطنين الذين كانوا ينتمون للعالم العروبي: من آسيا (من الرافدين، من الفينيقيين، من الأناضول، وغيرها...). ومن إفريقيا (مصر، بربر)، كل هذه الشعوب كانت تتكلم لغات عروبية. فمع بداية التاريخ الميلادي حكم روما أباطرة عروبيون: تراجانTrajan سنة 97 م،

ويستمر حكم الأباطرة العروبيين حتى 249 م فالأمبراطور سبطيم سفير Septeme severeالكنعاني، زوج جوليا (خولة) ابنة كاهن في حمص بسوريا، حكم العالم من مدينة لبدة الليبية الكنعانية وابنه كاركلا. وقد حكم أباطرة بربر إيبيريون عروبيون روما مدة 116 سنة مستمرة . كما تولى البابوية ثلاثة من البربر وإيبيري سيّروا الكنيسة الكاثوليكية، الأول فيكتور الأول ابتداء من 189 م ، وآخرهم جيلاس الأول من 492 إلى 496 م . وعروبيون آسيويون أعطوا لروما أباطرة : فيليب العربي الذي حكم بين 244 و 249 م . وستة بابوات سوريون. هذا كله يبين الدور الكبير الذي لعبه العروبيون الذين كانوا يمثلون شعوبا كاملة تعيش بأوربا وبخاصة بشبه جزيرة إيطاليا، الذين وضعوا أسس اللغة اللاتينية المليئة بالكلمات العربية التي تعود إلى المرحلة العروبية .

الإتروسك العروبيون السابقون بإيطاليا :

يتفق الكثير من المؤرخين الأوروبيين على أن شعب الإتروسك هو الذي عمر إيطاليا منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد، كانوا يمثلون امبراطورية كبرى تمتد من جبال الألب وحتى خليج طارانت، هؤلاء المؤرخون هم : جارد A.Jarde، و هومو L.Homo ، وكريستول M.Christol ، و نوني D.Nony/ . فكاتون Caton يقول: 'إيطاليا كلها تقريبا كانت مملوكة للإتروسك .'

والمؤرخون يؤكدون أن اللغة الإتروسكية لغة شرقية من آسيا الصغرى . كانت اللغات العروبية هي السائدة بإبطاليا واليونان قبل بناء اللغة الرومانية ، فقد اكتشفت في مارسيلينا لوحة إتروسكية منقوشة على عاج بكتابة تعود إلى

700 سنة ق . م . تكتب من اليمين إلى اليسار . وقد ثبت أن الإتروسك استعملوا الكتابة الكنعانية الفينيقية مع إضافة ثلاثة حروف لها، وهذا يثبت انهم كانوا يتحدثون لغة عروبية (سامية)، والمؤرخون الأوروبيون متفقون على أن اللغة الإتروسكية ليست لغة هندو-أوروبية، فعندما يستعملون في كتاباتهم الكتابة الفينيقية معنى هذا أن لغتهم شقيقة للكنعانية الفينيقية ترتكز على الصوتيات العروبية .

ظهور اللاتينية

ظهرت الكتابة اللاتينية في القرن الثالث قبل الميلاد، والمؤرخون يؤكدون انه في القرن السابع قبل الميلاد كانت بروما كتابات إتروسكية تكتب من اليمين إلى اليسار. ثم ظهرت اللاتينية بعد أن تمكن الرومان من هزم الإتروسك الذين كانوا يسيطرون على إيطاليا وذلك سنة 295 ق. م. ، علما بأن الرومان والإتروسك هم أمة واحدة تتفرع إلى شعوب.

الحروف اللاتينية مستمدة من الحروف الإتروسكية، والأرقام المسماة رومانية هي نفسها الأرقام الإتروسكية، وذلك وفقا للكتابة الإتروسكية المثبتة في المسلات الإتروسكية الموجودة في متاحف توسكان وأومبريا بوسط إيطاليا. لكن الكتابة تحولت من اليسار إلى اليمين. واستمرت لغات غير لاتبنية منها الإتروسكية يتحدث بها في إيطاليا من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الأول الميلادي حيث اختفت .

نماذج وأمثلة من الكلمات

يعرض بن عطية جداول على نظام هجائي من خلال 638 صفحة من الكتاب، ويبين الجذور التي تعود إلى اللغات العروبية مفصلا كل لغة على

حدة: الأكادية، الكنعانية، البابلية، الآرامية، البربرية ، والعربية المستعربة.

من العربية المستعربة:

1 . أكر معناه حرث الأرض، AKR : AGER كلمة لاتينية معناها أرض صالحة للحرث. وقع تغيير في الجذر العربي، استبدل حرف الكاف في الجذر العربي بحرف G وهما حرفان يتبادلان .

. حرث HRT : ARATIO معناها باللاتينية الحِراثة ARATOR .معناها حرّاث.

HORTUS معناها البستان . أرس (الإريس من يحرث الأرض) : ARS RUS معناها باللاتينية الحقول، الريف، او منزل ريفي.

2. بلل BLL: BALINEUM معناها باللاتينية استحمام

FLEO معناها باللاتينية بكى حولت الباء إلى فاء

FLUO معناها باللاتينية سال

LAVO معناها باللاتينية غسل ، رش، بلل، يلاحظ إقلاب بين الجذرين بل ولاف

PLUO معناها باللاتينية مطر قلب حرف ب إلى P

3 ، باس، بوس قبل BWS : BASIO تعني بالاتينية بوسة أي قبّلة

4. جرم GRM: CRIMER تعني باللاتينية جريمة، عار ، تبادل بين الجيم والكاف

5. الحرية ELEUTHERIA وتعني باللاتينية الحرية. نفس الكلمة في اليونانية

6. حمَّ HMM ، CAUMA وتعني باللاتينية حمَّ ، نفس الكلمة في اليونانية

7. عرب يقال عرب الماء صفا، ARB : EURIPUS تعني باللاتينية قناة، خندق

مملوء بالماء، ساقية عربن ARRABO تعني باللاتينية عربون.

من اللغات العروبية

من البربرية أسنوس (حمار ASINUS (وتعني باللاتينية حمار أقراف (قرّ ، برد) FRIGEO وتعني باللاتينية برد

من اللغة الكنعانية الفينيقية

خُرص (ذهب) CHRISOS وتعني باللاتينية ذهب

كتن (نسيج كتان TUNICA (تعني باللاتينية نسيج كتان ، قميص

من اللغة الأكادية أوروم (ذهب AURUM / AURO (وتعنيان باللاتينية الذهب، لمعان الذهب من اللغتين البابلية والآرامية

كنس / كنش (مجلس ECCLESIA (وتعني باللاتينية مجلس، مجلس كنسي، كنيسة، معبد . بالآرامية كنشتا وبالبابلية كنشتو معناهما دار المجلس ، مجلس الكهنة.

يستعرض بن عطية في كتابه سائر الكلمات اللاتينية وعددها 18459

منها 15826 لها جذور عربية

الجذور اللاتينية التي عرضها 2706

الجذور العربية التي عرضها 1814

جهد المؤلف:

بن عطية طبيب، قام على حسابه بجولات في أوروبا بمتاحفها ومكتباتها، دون أن تتبنى جامعة جزائرية تكاليف ذلك، مثلما تعمل جامعات البلدان

المتقدمة مع الباحثين. هو يقرأ العربية لكنه يكتب بالفرنسية. من الغريب أن صديقا له سويسريا طلب منه تسليمه كتبه ليقدمها لمكتبة جامعة لوزان، وقدمها له، قدمت الكتب للمكتبة، لكن السويسري الذي قدمها فوجئ بعد أسابيع باستدعائه من دار الكتب السويسرية قالوا له : أعدها لصاحبها هذه الكتب لا تهمنا. فعلوا ذلك لأن الأوروبيين ولمدة خمسة قرون بنوا تراثهم على أن اليونانية واللاتينية هي الأساس للثقافة الأوروبية. ويرفضون من يأتي ليثبت لهم أن اليونانية واللاتينية مستمدتان من العربية

1. العرب في أوروبا قبل ميلاد المسيح
2. العرب أسلاف الغاليين
3. العرب حاضنو الكتب المنزلة الثلاثة
4. إيبيريا وبربريا
5. تاريخ الاستيطان العروبي في اليونان القديم
6. تاريخ العربية لغة العالمين
7. العرب والهندوأوروبيين

دور الخط العربي في ترقية الرسم القرآني
وبيان القراءات القرآنية

الأستاذ/ علي بلعالية دومة
جامعة الشلف

إن العرب لم تكن تعرف في الغالب الكتابة حتى جاء الإسلام وكانت أول سورة من القرآن الكريم نزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هي سورة اقرأ، فيها التنبيه إلى القراءة والتنويه بفضل علم الكتابة والرسم والإشارة إلى أهمية القلم وعظمته، هذه السورة أي سورة العلق أول سورة نزلت وفق ترتيب النزول، يقول فيها المولى جل جلاله { **اقرأ بسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم**}[1] وهي أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأي معظم المفسرين. فيها تنبيه على قيمة **القلم** وفضله، وكذا فضل علم الرسم أي الخط والكتابة لما في ذلك من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو سبحانه وتعالى، فما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا الكتب المنزلة . كما قال القرطبي رحمه الله . إلا بالكتابة. وأصل الكتابة تكون بالقلم، وهذا ما أشارت إليه السورة، والعرب تعرف القلم وقالت عنه بأنه سمي قلما لأنه يقلم. أي يقطع، كتقليم الأظافر. وقال بعض الشعراء في وصفهم للقلم:

فكأنه والحبر يخضب رأسه * شيخ لوصل خريدة يتصنع
لم لا ألاحظه بعين جلالة * وبه إلى الله الصحائف ترفع

ولما نزل القرآن عرفنا بأن القلم مخلوق من المخلوقات التي خلقها الله سبحانه وتعالى ، بل هو أول المخلوقات لما صح عن النبي (ص) أنه قال: { أول ما خلق الله القلم، فقال له أكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة }[2]. خلقه الله وأمره أن يكتب كل ما يكون في اللوح المحفوظ، ثم صيره بين أيدي ملائكته ليكتبوا به مقادير الخلق وأعمال بني آدم، ولذلك نجد بعض العلماء في ذكرهم للقلم يقولون: **الأقلام ثلاثة:** القلم الأول: الذي خلقه الله بيده وأمره أن يكتب. والقلم الثاني: أقلام الملائكة جعلها الله في أيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال. والثالث: أقلام الناس: جعلها الله بأيديهم يكتبون بها كلامهم. فهو نعمة من الله عظيمة، وبدونه لم يكن دين ولم تستقم حياة البشر، فالله سبحانه وتعالى لما أمرنا بالخط والكتابة بواسطة القلم، فإنما كان ذلك منه منة علينا عظيمة، حيث علم البشرية ما لم تكن تعلم ونقلها من ظلمة الجهل إلى نور العلم، فالعرب لم تكن أثناء نزول القرآن تهتم بالكتابة والخط اهتمامها بالحفظ في دواوين أشعارها وتواريخ أمجادها، كما لم يكن مجتمع الصحابة متميزا بالمعرفة الثقافية المتطورة. علما أن الكتابة من العناصر الثقافية القابلة للتطور، يؤكد صاحب جواهر الأدب هذا المعنى بقوله: (وقد كانت العرب على جهلها بالقلم وخطه، والكتاب وضبطه، تصرف إلى التواريخ جل دواعيها، وتجعل له أول حظ من مساعيها، فتستغني بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها، وتعتاض برقم صدورها عن رقم سطورها، كل ذلك عناية منها بأخبار أوائلها وأيام فضائلها)[3].

قريش تأخذ الخط العربي من جيرانها وتطوره

ولما كان الخط موجودا عند جيرانهم من البلدان التي كانوا على اتصال بها كاليمن والشام، لما تأثروا بهم وتحدثوا لغتهم، تعلموا منهم الكتابة، ثم استنبطوا لأنفسهم خطا خاصّا بهم عرف بالخط النبطي، اشتق منه عرب الشمال خطهم الأول، فعرف الخط الأنباري، والخط الحميري، والخط المكي

والخط المدني والكوفي والبصري أو الخط المدور، والخط المثلث وهو خط جاف مستقيم الحروف، حاد الزوايا مما أعطاه طابعا هندسيا، وقد انتشر في جميع الأقاليم الإسلامية، واستعمل بصفة خاصة في كتابة القرآن الكريم نحو خمسة قرون، إلا أنه أخذ شكلا متطورا مع بداية القرن التاسع الهجري حيث زينت نهايات حروفه بزخارف نباتية وتنوع تنوعا متعددا، فمنه الخط الكوفي المظفر ذو الحروف المترابطة. وكان الخط السائد إلى نهاية القرن الحادي عشر حيث قل استخدامه وحل محله الخط النسخي ثم خط الثلث ثم الخط الرقعي ثم الريحاني، فالديواني والطومار والتعليق. وصار فيهم الكثير ممن يكتب، بدليل أنهم كانوا يكتبون العقود والمواثيق لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه وثيقة الأمان الذي أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لسراقة، حين لاحقهم في هجرتهم إلى المدينة، والذي ضمن فيه سوار كسرى، وكتب كتَّاب الوحي القرآن لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكتب بعض الصحابة مصاحف قرآنية خاصة بهم، ثم كتبوا القرآن كله في جمع أبي بكر الصديق وجعلوها في الصحف التي كانت بحوزة حفصة رضي الله عنها. وبالرغم من كون الخط آنذاك لم يكن يتجاوز المستوى العادي أو كما قال عنه ابن خلدون غير محكم في الإجادة والإتقان، إضافة إلى عدم توفر أدوات الكتابة بشكل يتناسب مع عبقرية الصحابة وقدرتهم على الإبداع، إلا أنهم كتبوه فيما تيس لهم من أدوات الكتابة آنذاك، من الجلود والحجارة والعظام والخشب والعسيب، وكان تركيزهم في الغالب على الجلود لتوفرها بكثرة أو لما تتصف به من طول البقاء وخاصة الرق وهو ما يرقق من الجلود ليكتب فيه، ويؤخذ من صغار العجول والحملان والجداء والغزلان[4]، يقول القلقشندي : (وقد أجمع الصحابة رضي الله عنهم على كتابة القرآن في الرق، لطول بقائه، أو لأنه الموجود عندهم حينئذ)[5]، والأديم وهو جلد أحمر مدبوغ عرف في الجاهلية[3]، فكانوا عباقرة الدهر لا عباقرة عصرهم فقط، وانظر كيف كانت

عاملتهم مع الخط معاملة خاصة تليق بمقام القرآن الكريم، إذ صنعوا فيه صنيعا ما كان لغيرهم أن يبدل فيه . كما قال الدباغ . ولو شعرة واحدة، صنيعا عجيبا يميز كلام الله من كلام البشر من ناحية الكتابة والخط، إذ نظروا إلى الخط فيه من حيث هو موضوع إدراك البصر ، ونظروا إلى مداده من حيث هو مادته المحسوسة، واستعملوا في رسمهم للقرآن اللون الأسود دون غيره، وكأنهم على علم بمن سيأتي بعدهم ليدخل التحسينات على رسمهم فلا يجد بُدّا من مخالفتهم للأسود، فهم لا شك يدركون ما معنى سواد على بياض، كما أنهم يعلمون أن صورة الخط المدركة في الأذهان بيضاء، هكذا علق على ذلك أهل العلم والمعرفة بقولهم، المداد في الأبصار سوداء وفي البصيرة بيضاء، والعلاقة بين الخط واللفظ علاقة ترابط واتحاد وتلازم. فالكتابة أمر مرئي محسوس، واللفظ أمر معنوي مسموع. فعلى هذا النحو رسموا كتاب الله، وما قاموا بفعلِ خير أجمل مما قاموا به في رسمهم للقرآن الكريم بهذه الخطة، ذلك أن من أجمل صفات الخير والإحسان أن يخط المرء ببنانه عمل خير يبقى له ذكرا في الدنيا وذخرا في الدنيا والآخرة كما قال ابن البواب[6] في ذلك :

وارغب لكفك أن تخط بنانـها
خيـرا تخلفه بـدار غـــرور
فجميع فعل المرء يلــقاه غدا
عند التقاء كتابه
المنشـور

لذلك تراهم أحدثوا في الخط أمرا مخالفا لسنة العادة في طريقة الكتابة، لدرجة أن العلماء اختلفوا في مرجعيته هل هو توقيفي أي من الله ورسوله لا تجوز مخالفته، أم عادي يجوز استعماله والتصرف فيه بالوضع البشري. وإني لم أعجب باختلاف العلماء في توقيفية الرسم العثماني وعدم توقيفيته، مثلما أعجب في الكيفية التي رسمها به الصحابة والتي حيرت العقول في

إعطاء رأي واضح حول ما قاموا به هل هو وحي أم رأي. وأنا أدرس النقاش حول توقيفية الرسم القرآني ينتابني إحساس قوي بمستوى الفكر الرفيع للصحابة. لذا يمكنني القول بأن رسمهم هذا للقرآن الكريم في صورته التي تبدو بسيطة، ما هو إلا تعبير تلقائي عن ذلك الإحساس الطبيعي بالوضع الحضاري المتميز عند العرب في زمن النبوة. إذ في شكل خطوطه يعبر عن بداوة العرب وبعدهم عن الحضارة كما ذكره ابن خلدون، بينما في وضع قواعده، وإحكام شواهده، وبيان فوائده، يعبر عن الإدراك العالي والمستوى الرفيع من الإحساس بالمعاني، والذوق البياني، وقوة الحافظة، فجاء رسمهم بشكل لا يمكن لغيرهم أن يقوم به. فهو مشروع مثالي قيم، جدير بالتخليد، ولم لا؟ فإذا كانت الأجيال البشرية مهما كانت موغلة في الزمن، تحكمها نزعة طبيعية نحو تخليد أعمالها بغية تخليد رموزها ومن ثم استبقائها كعلامات دالة على عظمة مشاريعها القيمة وعلى قدرتها على تحدي الزمان ومقاومة فعل النسيان، فإن مشروع الصحابة هذا كونه يتعلق بحفظ القرآن الكريم من جانب الرسم، قد خرج عن كونه أثرا من آثار تخليد رموز الصحابة، إلى كونه ممارسة فكرية واعية، حيرت العقول بوقوف الجميع عند هذا الحد من الممارسة، ممارسة فكرية خالدة قام بها الصحابة بوسائل بسيطة، ممارسة يستخلص منها الحس الثقافي الرفيع لدى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين كَوَّنوا بذلك ثقافة إسلامية وحضارة دينية متميزة عن حضارات الفرس والروم وثقافاتهم المزعومة. ممارسة ممن لهم خبرة ربانية، وخاصة ممن كتبوا له القرآن الكريم، فجاء رسمهم مرآة تعكس لنا بحق حضارة ماضينا العريق، لكنها الحضارة في شكلها المتناهي لدرجة الإعجاز، حضارة تجعلنا نفتخر بهذا الماضي ونعتز به، فإذا نظرنا إلى ترقية الخط العربي حاليا نجد فيه تغييرا ملحوظا، وتطورا يعكس أعلى درجات

العقل العربي، مع بقاء عمل الصحابة هذا هو نفسه كما كان عليه أو تقريبا في زمن النبوة، وهو نفسه في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه.

دور الخط العربي في دلالة الحروف على المعاني القرآنية

يقول علماء اللغة بأن للأشياء مراتب من حيث الأهمية، منها ما يرجعونه إلى الخط والكتابة، ومنها العبارة والأذهان والأعيان. فهي مرتبطة بعضها ببعض حيث أن كل سابق منها وسيلة إلى اللاحق. جاء عن صاحب المفتاح قوله: (اعلم أن للأشياء وجوها في أربع مراتب في الكتابة والعبارة والأذهان والأعيان كل سابق منها وسيلة إلى اللاحق)[7] فالكتابة وسيلة لشرح ما يدور في الأذهان، كما قال طنطاوي جوهري: (إن للموجودات من حيث مراتب وجودها أربع درجات: فلها في ذاتها وجود، ولها في الأذهان وجود آخر ، وينوب عن الثاني وجود في اللسان ، وينوب عن هذا الأخير الوجود القلمي)[8]. فالخط دلالة على الألفاظ وهذه على ما في الأذهان وتلك على من في الأعيان. قال تعالى: { قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض }[9] يقول طنطاوي رحمه الله: (فالذي في السماوات والأرض من هذه العوالم هي التي في العيان لأنها موجودة في أنفسها، فإذا نظرته وفكرت فيه فهذا هو ثاني الوجودين، وهو الوجود في الأذهان، وينوب عن الثاني النائب عن الأول الوجود اللساني بأن يصور الإنسان بأعضاء فمه من الصوت أشكالا ويصوغها ببيانه ، فهذا هو الوجود اللساني، ولكن لما كان اللسان لا عمل له إلا بالهواء والهواء سريع الزوال اعتيض عنه بما يبقى على مدى الزمان)[10]. فإظهار المعلومات وبيانها للناس يكون باللسان أولا والخط ثانيا باعتباره نائبا عنه، والحروف هي قطب الرحى

الذي يدور عليه معنى القرآن، وهناك من اهتم بها بالتأليف كابن سعدان صاحب كتاب "حروف القرآن "[11].

اختلاف أحوال الكلمة القرآنية في الخط بسبب اختلاف أحوال معانيها

في هذه الفقرة يمكن لنا أن نبين دور الخط العربي في ترقية الرسم القرآني من خلال بعض الكلمات القرآنية وفق قواعد الرسم الاصطلاحي، انطلاقا مما بينه العلماء، مع التركيز على نماذج من ذلك، وقد اعتمدنا في الغالب على ما جاء عن ابن البناء في كتابه: " عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل " . ذلك لأنه من المتأخرين القائلين بتوقيفية الرسم القرآني، ومن الذين أشاروا إلى أهم الفروق بين الرسم الاصطلاحي والقياسي إذ يقول عن الرسم الاصطلاحي الذي كان مغايرا للقياس في اللغة العربية: (ليس وليد اتفاق ومصادفة، بل هو نتيجة تحقق ودراية)[12]. ففي مضمون كتابه ما يدل على تصورنا لقضية تأثير الخط العربي على المعاني في كثير من الكلمات القرآنية، كما عبر عن ذلك الدكتور نذير حمادو بقوله: (ثم جاء أبو العباس المراكشي الشهير بابن البناء (ت 721هـ)، فألف كتابا عجيبا سماه " عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل " بيَّن فيه أن هذه الأحرف إنما اختلف حالها في الخط بحسب اختلاف أحوال معاني كلماتها)[13]، إن موضع تأثير الخط العربي في هذا المجال يكمن في التعبير عن معاني الكلمات القرآنية بما قعَّد له الصحابة من القواعد ليفرقوا بين رسم القرآن ورسم غيره، بحيث لا يدرك فحواه إلا من امتلك مفاتيح هذا الرسم وقواعده. وكانت له القدرة الكافية في مجال الضبط والتحري، والدقة التامة في وضع الحروف، كل حرف في مكانه المناسب، باستعمال الحذف والإثبات، الوصل والفصل، والإبدال، وما هو معروف بقواعد الرسم الاصطلاحي (لمعنى موجود ومحقق)[14]. فالمتأمل في الرسم الاصطلاحي يرى العجب، إذ يلاحظ أن كلمة (القرآن) مثلا، رسمت مرات بألف بعد الهمزة، ومرات بدون

ألف. ومِثل ذلك كلمة (الكتاب). ونظائر ذلك مثل"الأصوات" و"الأموات" وغيرها من الأسماء والصفات، تبايُن في الكلمة الواحدة بالحذف والزيادة والإبدال ونحوه ورد إلينا متواترا، صنفت له الكتب، وألفت فيه المتون، وشرحه المتقدمون والمتأخرون من علماء الرسم القرآني إلا أنه لم يكن يظهر لنا وجه الإعجاز من خلال ذلك لأننا لم نكن ننتبه لقضية هامة وهي تحديد العدد في القرآن سواء في كلماته أم حروفه أو آياته، فعدد من الآيات والكلمات والحروف في ظاهره محدود، قال تعالى: { الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ }[15] ، لكنه في الواقع العملي لم يكن تحديده بالأمر الهين بحيث إذا سئلت عن عدد الآيات فإنك تطلب التحديد: وفق المكي أو المدني الأول أو المدني الثاني أو الكوفي أو البصري أو الشامي لتحدد الجزء الزائد على الستة آلاف ومأْتي آية لكل مصر، فالعملية لم تضبط بانتهاء عدد متفق عليه عند الجميع! ومثله على غرار عدد كلماته، بالرغم من ضبطها تلاوة وإحصائها كتابة ورسما من قبل كتَّاب الوحي في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أو في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ونحن نتكلم عن الرسم العثماني أي ضبط الكلمة بحروفها ووضع كل حرف موضعه دون زيادة أو نقصان، فإنك لو سئلت عن عدد حروف القرآن لأجبت بأن المتفق عليه (ثلثمائْة ألف حرف)[16] . أما الكسر الزائد والمختلف فيه فبالآلاف، وإذا سئلت عن كيفية ضبط الصحابة لهذا الكسر الزائد في رسمهم للقرآن رسما نهائيا مضبوطا بين دفتي مصاحف معدودة لا تتعدى الثمانية نسخ، فهذا عين الإعجاز، ولن ندرك ذلك إلا إذا اطلعنا على طريقة تقعيدهم ونظرتهم إلى استعمال الحروف في الكلمة القرآنية باعتبارها وسائل تخدم التعبير القرآني سواء من حيث دورها في إبراز المعنى القرآني للكلمة، أم إدراك تفصيل هذا المعنى المتعلق بالوجود المطلق في عالم الملك والملكوت، ومن حيث تنظيم النطق السليم بإعطاء الكلمة القرآنية حقها

ومستحقها من مخارج وصفات، وتركيزهم في الحذف والإبدال والزيادة في الغالب على حروف المد الثلاثة، باعتبارها مفاتيح لمعاني الكلمة القرآنية، لا باعتبارها وظيفة للمد بالصوت طولا وقصرا، وقد اتضح عندهم أن الألف عندهم هي الفاتحة لكونها دلالة على الفتح الذي من خلاله يُرى الفعلُ مفصلا، ولكونها أول الحروف، حيث قيل: (والألف تدل على الكون بالفعل في الوجود فهي مفصلة لأنها من حيث إنها أول الحروف في الفصل الذي بين ما يسمع وما لا يسمع متصلة بهمزة الابتداء)[17]. وأن الواو عندهم تتصف بالجمع ذلك أن من صفاتها الرفع والضم، فكل ما يُرفع يُضم بواسطتها ويُجمع، فهي جامعة، ألا ترى السماوات حين رفعها الله تبارك وتعالى فكأنها ضمت الكون كله وجمعته بينها وبين الأرض، فهكذا الواو عندهم جامعة (والواو تدل على الظهور والارتفاع والارتقاء فهي جامعة لأنها عن غلظ الصوت وارتفاعه بالشفة معا إلى أبعد رتبة في الظهور)[18]. وأن الياء تتصف بالتخصيص، لأنهم استعملوها للإشارة إلى ذلك في مقابل الجمع، وإلى التخفيض في مقابل الرفع، والخفض لا يكون إلا بعد الفتح والرفع، فأصبحت تخصص ما يمكن خفضه بعد الرفع (و الياء تدل على البطون فهي مخصصة)[19]. فراحوا يرسمون الكلمة القرآنية على أساس هذه المعاني للحروف وخصائصها الملكية والملكوتية، بنظرتهم للألف باعتبارها مفصلة، والواو لأنها جامعة، والياء لأنها مخصصة، ولذلك تزاد هذه الحروف لبيان معانيها وظهورها، وتحذف لبطونها وخفائها، وإن كانت هذه التسمية استنتاج من علماء الرسم، فإن مدلولها يفصح عن نفسه وينطق بحاله عما يعبر عنه، فجاء رسمهم عملية فكرية عقلية بعيدة النظر لدرجة الإعجاز. مخالفا للقياس في عرف الخط العربي، بقواعد وضوابط تتماشى مع مراد الله في كلماته، كيف لا وهم أفهم خلق الله لكتابه بعد نبيه عليه الصلاة والسلام , وأصدقهم تعبيرا له، وأدراهم به شكلا ومضمونا.

دور الخط العربي في زيادة حروف المد في القرآن.

للصحابة رضوان الله عليهم قواعد خاصة بزيادة الحرف في الكلمة القرآنية تبعا لمعانيها خاصة حروف المد الثلاثة التي هي الألف والواو والياء، ومثل ذلك في نقصانها.

أ . قاعدة زيادة الألف

تزاد الألف في الخط وتوضع فوقها دائرة صغيرة تسمى في عرف علماء الرسم دارة المزيد، لكي لا يلفظها قارئ القرآن، وتكون الزيادة في أول الكلمة وفي وسطها، وفي آخرها، كما توضحه الأمثلة في الألفاظ التالية :

1 . زيادة الألف في أول الكلمة القرآنية

تزاد الألف في أول الكلمة إذا كان في الكلمة معنى زائدا في الوجود بالنسبة للمعنى الموجود في الكلمة التي قبلها، أي أنه إذا اجتمع فعلان في آية واحدة، وكان المعنى في الثاني أقوى ممن هو في الأول، زيدت فيه الألف تنبيها على هذه القوة الزائدة. ويتضح هذا المعنى بالأمثلة التي تناولها علماء الرسم في هذا المجال مبينة في الأمثلة التالية: لَأَ اْذْبَحَنَّهُ، ولأوضعوا، لإِاْلَى كالتالي:

كلمة: لَأَاْذْبَحَنَّهُ

ورد لفظ " لأذبحنَّه " في سورة النمل على لسان نبي الله سليمان حين ما كان يتفقد الطير، في قوله تعالى : { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ

}[20]. فهي كلمة واحدة في القرآن كتبها الصحابة بألف بعد الهمزة، مع الإشارة إلى أن هذه الألف زيدت في بداية الكلمة وليست في وسطها كما هو ظاهر، ذلك أن اللام في حكم المنفصل، جاءت تلك الصيغة بعد كلمة (لأعذبنَّه) وقد أشار الطاهر بن عاشور إلى تعليلها في تفسيره بقوله: " فلا أراهم كتبوا ألفا بعد اللام ألف فيما كتبوها فيه إلا لمقصد، ثم قال : ولعلهم أرادوا التنبيه على أن الهمزة مفتوحة"[21]. أما ابن البناء فإنه يطبق القاعدة السابقة ويرى أن الذّبح أقوى من العذاب، فالألف الزائدة هنا للدلالة على أن الفعل الثاني في الآية القرآنية الذي هو الذبح أقوى وأشد من الفعل الأول الذي هو التعذيب. وهو ما نرجحه مقارنة بما جاء في قول بعضهم للدلالة على التنبيه بأن الهمزة قبله مفتوحة، وعلى العموم وضع الألف بهذا الشكل صار محلا للتوجيه والاحتمال، ولم تضبط حقيقته، فيبقى التوجيه فيه مفتوحا، وما ذلك إلا دلالة على الإعجاز في مثل هذه الحالات من الرسم القرآني.

كلمة: لأأوْضعوا

نفس الأمر بالنسبة لزيادة الألف في لفظ (لأوضعوا) من قوله تعالى : { ولأَأْوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ } [22]، اختلف علماء الرسم في الزيادة وعدمها فمنهم من أشار إلى ضرورة زيادة الألف، تنبيها على أن المؤخر أشدّ وأثقل في الوجود من المقدّم عليه لفظا، وهو رأي ابن البناء إذ قال فيما معناه: الإيضاع أشدّ فسادا من زيادة الخبال لذلك ظهرت الألف في الخط لظهور القسمين في العلم[23]، أما الذي يرى أن الخبال أشد من الإيضاع لم يكتب الألف، وصوبه الراجي بقوله: (وهو الصواب لأن في نظر أهل المدينة الخبال أقوى من الإيضاع ومن كان عنده الخبال باعتباره النميمة ومحاولة شق صفوف جماعة المسلمين بينما الإيضاع نميمة فقط ... فإذا الفعل الأول أقوى بكثير من الفعل الثاني، ولذلك

ليس فيه ألف)[24] وهي قاعدة شاملة هامة واضحة من خلال النظر في درجة الأفعال. ويُعرّف بأن الاعتبار فيها هو من جهة زيادة المعنى في الوجود (يكون باعتبار معنى زائد بالنسبة إلى ما قبله في الوجود)[25]، فهي ميكانيزمات تبدو ظاهرة في بساطتها، لكنها في الحقيقة تعبير على قدرة الصحابة لبيان المعنى من خلال المبنى ومقارنة الأفعال في تفاوت درجات قوتها، وما ذلك إلا ضرب من الإعجاز إذ لا يمكن لغيرهم أن يصل إلى ما وصلوا إليه.

كلمة: لإاْلى

تزاد الألف بين الهمزة واللام من كلمة "**لإلى**" مع اختلاف بين المصاحف منهم من يزيدها ومنهم من لا يزيدها وهي حرفان في القرآن الكريم هما:

الأول في سورة الصّافات في قوله تعالى { ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ **لَإِلَى** الْجَحِيمِ }[26].

والثاني في سورة آل عمران في قوله تعالى { وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ **لإِلَى** الله تُحْشَرُونَ }[27].

فزيادة الألف في الأولى دلالة على أن مرجعهم إلى الجحيم أشدّ من أكل الزَّقوم وشرب الحميم، وفي الثانية دلالة على أن محشرهم إلى الله أشدّ عليهم من قتلهم في الدنيا. وبما أن القسمين المذكورين مستورين عنا أي في علم الغيب تُرك أمر الزيادة لأهل الألباب، فمن رأى هذا الفرق في الشدة بين القسمين زاد الألف بين العبارتين، ومن لم ير ذلك بحيث لم يستو القسمان في العلم بهما عنده لم يثبت الألف في الخط وهو ما عليه قراءة نافع وقد علق ابن البناء على ذلك بقوله (أما اختلاف المصاحف في الحرفين من هذا النوع وهما **لَإِلَى** من قوله تعالى { ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ **لَإِلَى** الْجَحِيمِ}، وقوله تعالى { وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلتُمْ **لإِلَى** الله تُحْشَرُون } . فمن رأى أن مرجعهم إلى الجحيم أشد من أكل الزقوم وشرب الحميم ، وأن محشرهم إلى الله أشد عليهم من موتهم أو قتلهم في

الدنيا أثبت الألف، ومن لم ير ذلك لأنه غيب عنا فلم يستو القسمان في العلم بهما لم يثبته وهو أولى)[28]. وكأن القاعدة عامة بحيث إذا زيدت الألف في بداية الكلمة فإنما ذلك لاعتبار معنى زائد بالنسبة إلى ما قبله ، بمعنى آخر أنه إذا اجتمع فعلان في آية واحدة وكان الفعل الثاني أقوى وأشد من الأول زيدت فيه الألف تنبيها على هذه الحالة. ولله در الصحابة في بعد نظرهم لم يشيروا إلى المعنى بواسطة الخط فحسب، بل تركوا فسحة تناسب التدبر والتأمل من قبل الكاتب للكلمة القرآنية بحيث يمكن له الخيار في وضع الألف وعدم وضعه، تماشيا مع قدرته على إدراكه لمعاني تلك الكلمة فإن تبين له أن مرجعهم إلى الجحيم أقوى وأشد وضع الألف، وإن تبين له العكس تركه محذوفا.

2 . زيادة الألف في وسط الكلمة

تضاف الألف في وسط الكلمة إشارة إلى أن للكلمة معنى ظاهر في الفهم من بين معان أخرى غير ظاهرة نحو (مئة ومئتين جيء ولشيء وملإيه)[29].

لفظ: مائة، ومائتين

ففي مائة نحو قوله تعالى: { وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ }[30]. وفي مائتين في قوله تعالى: { فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مائَتَيْنِ }[31]. بينما لا تزاد في فئة من قوله تعالى { كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ} [32] بالرغم من كونها لها نفس الهيئة مع نظيرتها "مائة ". فزيادة الألف في مائة لأنه كما قال ابن البناء "اسم اشتمل في الوجود على كثرة مفصلة بمرتبتين آحاد وعشرات أمثال الذي هو تضعيف الواحد عشرة أمثال إذا علم ذلك بالفعل في الوجود وكان حقا لاشك فيه . فالمائة أضعاف الأضعاف للواحد ففيها تفصيل الأضعاف مرتين، لذلك زيدت الألف في مائتين أيضا تنبيها على المرتبتين في

الأضعاف ... وليس زيادة الألف في مائة للفرق بينها وبين (منه) كما قال بعضهم، لأنه ينعكس بالمائتين إذ لا التباس في ذلك ". فاستعملت الألف هنا للتفصيل في الكثرة .

لفظ: جِيءَ

زيدت الألف بين الجيم والياء في لفظ "**جيء**" في قوله تعالى: { وَجِاْيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ }[33]، وقد عبر عن ذلك القول (زيدت الألف هنا دلالة على أن هذا المجيء له صفة من الظهور يتميز بها عن المجيء العادي ... فيستوي في العلم ملكها وملكوتها في ذلك المجيء، وجيء يومئذ بزيادة ألف بين الجيم والياء كما في مصحف الأندلسيين معولين على المدني العام فيما رواه نافع وكتبوه بالياء)[34]. ويستدل على ذلك قوله تعالى: { وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى}[35] وقوله تعالى: { إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً}[36] فهو على خلاف حال: { وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُون }[37] فإن هذا على معنى معروف المثل سواء في الدنيا أم الآخرة. وكذلك من تأول بمعنى الظهور في المحشر لعظيم حساب الخلق أثبت الألف فيها.

ذلك هو عمل الصحابة في رسمهم للقرآن رسما خاصا، رسما توجيهيا، كل كلمة يشير سهمها إلى ذلك المعنى العميق الذي يكمن وراء العبارة، كل ذلك بواسطة استعمال قواعد الخط العربي وتطويرها، رسما لا يساعد على كتابة القرآن فحسب، بل يساعد على فهمه كذلك. وقد عبر الأستاذ عبد الرحمن خليف عن هذا البعد النظري للصحابة بقوله: (وكم لهم رضي الله عنهم من تصرف سديد وعجيب يدل على طريقتهم في مخالفة القياس مبنية على التنبيه على شيء له اعتبار وجيه)[38].

لفظ: لِشَيْءٍ

جاء لفظ (لشيء) في قوله تعالى: { وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّه }[39]، فالشيء هنا غير محدد ولكنه يعرف من تصور مثله الذي قد يقع في الوجود، لذلك فيه تفصيل بحيث أن الذي يعرف به معدوم من جهة تقدير الوجود، وقد أشار له بقوله: موجود في الأذهان حقا معدوم في الأعيان حقا. ولأجل هذا الانقسام زيدت الألف تنبيها على اعتبار المعدوم من جهة تقدير الوجود، بينما إذا نظرنا إلى مثله في لفظ (لشيء) في قوله تعالى: { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }[40]، فالشيء هنا ليس له أقسام في أذهاننا ذلك أنه من جهة قول الله له كن، لا نعلم كيف ذلك، فنؤمن بالمعنى تسليما لله فيه لأنه سبحانه وتعالى علم الأشياء بعلمه.

لفظ: ملائه

قوله تعالى: { ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلاِيْهِ فَظَلَمُواْ بِهَا }[41] زيدت الألف بين اللام والهمزة تنبيها على تفصيل في هذا الملأ ظاهر في الوجود.

3 . زيادة الألف في آخر الكلمة

إذا زيدت الألف في آخر الكلمة فإن ذلك يعني أن هناك معنى زائدا خارج الكلمة، ويتضح ذلك في نحو كلمة أولواْ من قوله تعالى { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [42] . وقوله تعالى { أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ }[43]. وفي كلمة ملاقواْ من قوله تعالى { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ }[44]. وفي كلمة تفتؤاْ ، من قوله تعالى { قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَؤاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ }[45]. استعملت الألف للتفصيل الخارجي.

ب . قاعدة زيادة الواو

هذا بالنسبة للألف، ومثل ذلك الواو، فإنها تزاد في كلمات مخصوصة إما دلالة على ظهور معنى الكلمة في أعظم رتبة ويتضح ذلك في نحو كلمة: "**سأوريكم**" من قوله تعالى: { **سَأُوْرِيكُمْ** دَارَ الْفَاسِقِين }[46]، وقوله تعالى : { **سَأُوْروِيكُمْ** آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ }[47] . فزيادة الواو هنا دلالة على ظهور ذلك للعيان ظهورا كاملا، بل أكمل ما يكون. ويدل على هذا أن الآيتين جاءتا للتهديد والوعيد. وإما لقوة المعنى وعلوه في الوجود مثل ما هو الحال في كلمة: "**أولي**"، و"**أولئك**"، فكلمة **أولي** معناه (الصحبة وزيادة التمليك والولاية عليه)[48] وكلمة "**أوْلئك**"، و"**أوْلئكم**" جمع مبهم يظهر منه معنى الكثرة الحاضرة، وإن كان بعضهم قال عن هذه الواو هي للفرق بينه وبين "**إليك**". وذكر تعليله بالضبط على حد تعبيره (أن هناك صورا في الرسم القياسي مماثلة لهذه الصورة تماما من حيث زيادة حرف في الكلمة تنزيلا له منزلة الشكلة، ومن بين تلك الصور كلمة " أولئك " فإن الواو فيها مزيدة خطا لا لفظا، وما وقعت زيادتها إلا على تنزيلها منزلة الضمة من قبل ابتكار شكلة الحروف إذ كان من الجائز أن تلتبس في بعض التراكيب بكلمة " إليك " لو لم يقع التنبيه على ضم همزة " أولئك " بالواو المزيدة في الخط)[49]، وهو قول مردود بـ "**أولاء**". فالقضية ليست قضية توجيه من أجل الشكل، وإنما من أجل ارتباط المعنى بالمبنى .

ج . قاعدة زيادة الياء

يجري للياء في الزيادة مثلما جرى للألف والواو بالنسبة للزيادة نحو كلمة: "**بأييد**"، من قوله تعالى : {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا **بِأَيْيدٍ** وَإِنَّا لَمُوسِعُون}[50]، الأصل في الكتابة أن يتطابق فيها الخط واللفظ، ولكن هنا خرج الصحابة عن الأصل تنبيها للقارئ على غرض ذي صلة بالمبنى لتحديد المعنى، لأن الأيد في الآية

مصدر لامه دال، فزادوا ياء لتوضيح المراد من اللفظ، حتى لا يتوهم أنه جمع ليد الذي لامه واو، فكانت الزيادة إشارة إلى معنى مترتب على مبنى فالياء مخصصة للفرق بين الأيد التي هي قوة الخالق جل جلاله، وبين أيدي جمع يد، ولا شك أن القوة التي بنى الله بها السماء هي أحق بالثبوت من الأيدي لذلك زيدت الياء لبيان ذلك لاختصاص. ونختم قائلين بأن ظهور الخط العربي في الجزيرة العربية على وجه التحديد، وتطوره كان منشؤه نزول القرآن، ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في حاجة إلى تدوين كل ما نزل عليه، تبعه في ذلك حاجة كتّاب الوحي إلى الاهتمام بالخط لكتابة القرآن ورسمه كما استعان النبي صلى الله عليه وسلم بالأسْرى من أهل الكتاب الذين لهم خبرة بالخط وبالقراءة، فبدأ رسم القرآن الكريم بشكل ضعيف من حيث الجودة في الكتابة، ثم مع تطوير الخط لدرجة أنه أصبح من مميزات الزخرفة الإسلامية، وبمعرفته وإتقانه أصبح عاملا من عوامل التأريخ للآثارات الفنية، حينها تطور معه الرسم القرآني بشكل يدعو إلى الإعجاز الخطي من قبل الصحابة رضوان الله عليهم، خاصة وأنهم اشترطوا في كتابة القرآن أن تكون موافقة لوجه من وجوه النحو في قواعد اللغة العربية، ولا يهم هذا الوجه إن كان مختلفا فيه بين النحاة أو مجمعا عليه كما قال ذلك الفضيلى في كتابه القراءات القرآنية: (فالمعنى به هنا موافقة القراءات للقواعد والآراء النحوية المستقاة من النطق العربي الفصيح)[51]، فسبحان من ألهم الصحابة رضوان الله عليهم إلى هذا الأسلوب الراقي من إثبات وحذف للإشارة إلى أسمى معاني الكلمة القرآنية، ليسهل على قارئ القرآن فهمه فهما عميقا، وما ذلك إلا دلالة على عظمة كتاب الله، وبرهانا على أن المستوى الفكري الرفيع الذي وصل إليه العرب في فهم كتاب ربهم من خلال الخط العربي المرن والمتميز في شكله وجماله والحمد لله على نعمة والقلم الخط والقرآن.

الهوامش

1. الآيات 1، 2، 3 من سورة العلق.
2. الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ج/10 ص: 82.
3. جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تأليف المرحوم أحمد الهاشمي، طبعة جديدة ومنقحة، أشرف على تحقيقه لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان. ج/2 ص: 333.
4. تطور كتابة المصحف الشريف وطباعته، وعناية المملكة العربية السعودية بطبعه ونشره وترجمة معانيه، إعدادا لأستاذ الدكتور محمد سالم بن شديد العوفي، الأمين العام لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ص: 39
5. المرجع السابق نفسه
6. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. لمصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت 1413 ـ 1992، ج/2 ص : 1339 . وهي قصيدة رائية في علم الخط لأبي الحسن على بن هلال المعروف بابن البواب المتوفى سنة 413 ثلاث عشرة وأربعمائة وصفها الأدباء بغاية البلاغة وقد استقصى فيها أدوات الخط شرحها الشيخ برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبرى المتوفى سنة 732 اثنتين وثلاثين وسبعمائة .
7. أبجد العلوم الوشي المرقوم، في بيان أحوال العلوم. لصديق بن حسن القنوجي (1248 ـ 1307) دار الكتب العلمية بيروت 1978، ثلاثة أجزاء، تحقيق عبد الجبار زكار
8. الجواهر في تفسير القرآن الكريم، تأليف الشيخ طنطاوي جوهري، ص : 219 .
9. الآية 101 من سورة يونس.
10. الجواهر في تفسير القرآن الكريم، تأليف الشيخ طنطاوي جوهري، ص: 220 .
11. الفهرست لابن النديم، تحقيق محمد أحمد أحمد، المكتبة التوفيقية، ص: 118 .
12. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء ، ص : 15.
13. مجلة منبر الإمام ملك بن أنس، ص: 79.
14. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء، ص: 17 .
15. الآية 1 من سورة هود عليه السلام.

16. عجائب علوم القرآن لابن الجوزي، تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور عبد الفتاح عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية: ص: 133
17. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء ص: 32
18. المرجع السابق نفسه
19. المرجع السابق نفسه
20. الآية 21 من سورة النمل
21. مجلة الأصالة، ملتقى القرآن الكريم، ج/1 ص: 69
22. الآية 47 من سورة التوبة.
23. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء ص: 56.
24. القراءات المتواترة والرسم القرآني، محاضرة التهامي الراجي الهاشمي، ص : 13.
25. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء ص: 56
26. الآية 68 من سورة الصافات.
27. الآية 158 من سورة آل عمران.
28. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء ص: 56
29. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء ص: 62 .
30. الآية 25 من سورة الكهف.
31. الآية 66 من سورة الأنفال.
32. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء ص: 64 .
33. الآية 23 من سورة الفجر.
34. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء، ص: 56.
35. الآية 36 من سورة النازعات.
36. الآية 12 من سورة الفرقان.
37. الآية 69 من سورة الزمر.
38. مجلة الأصالة، ملتقى القرآن، ج/1 ص: 71
39. الآية 23 من سورة الكهف.
40. الآية 40 من سورة النحل.
41. الآية 103 من سورة الأعراف.
42. الآية 19 من سورة الرعد.

43. الآية 116 من سورة هود.
44. الآية 46 من سورة البقرة .
45. الآية 85 من سورة يوسف.
46. الآية 145 من سورة الاعراف.
47. الآية 37 من سورة الأنبياء.
48. عنوان الدليل لابن البناء، ص : 87 .
49. مجلة الأصالة، ملتقى القرآن، ج/1 ص: 70
50. الآية 47 من سورة الذاريات.
51. القراءات القرآنية تاريخ وتعريف، للدكتور عبد الهادي الفضيلى، دار القلم . بيروت . لبنان، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة، 1980، ص: 56.

إعلان عن جائزة اللغة العربية 2014

يعلن المجلس الأعلى للغة العربية عن تنظيم "جائزة المجلس للغة العربية لسنة 2014، التي تهدف إلى تشجيع الباحثين من داخل الوطن، وتثمين منجزاتهم العلمية والمعرفية، ذات المردود النوعي الهادف إلى إثراء اللغة العربية، والإسهام في نشرها وترقيتها، سواء أكانت هذه الأعمال مؤلفة باللغة العربية، أم مترجمة إليها،

1 ـ شروط الترشح للجائزة:

- أن يقدم العمل باللغة العربية؛
- أن يتوفر العمل على قوا عد المنهجية العلمية؛
- أن يكون البحث موثقا وأصيلا، ولم يسبق نشره، وفي مجال الترجمة ترفق نسخة للنص بلغته الأصلية؛
- أن لا يكون البحث قد نال به صاحبه جائزة أو شهادة علمية؛
- أن يندرج البحث في أحد المجالات المذكورة أدناه.

- قرارات لجنة التحكيم غير قابلة للطعن؛

- لا ترد الأعمال إلى أصحابها سواء فازت أم لم تفز.

2 مبلغ الجائزة: حدد مبلغ الجائزة بـ 2.000.000 دج، يوزع بمقدار500.000 دج لكل مجال من المجالات الأربعة التالية:

2 - 1 - **جائزة المجلس في اللسانيات وفقه اللغة.**

2- 2 - جائزة المجلس في الترجمة إلى العربية في العلوم والآداب.

2 - 3- جائزة المجلس في التكنولوجيا والمحتوى الرقمي.

2 - 4 - جائزة المجلس في تحقيق التراث (العلمي واللغوي).

يوزع المبلغ المالي في كل مجال من مجالات جائزة المجلس للغة العربية على النحو التالي:

- 50% للفائز الأول أي 250.000 دج؛

- 30% للفائز الثاني أي 150.000 دج ؛

- 20% للفائز بالجائزة التشجيعية أي 100.000 دج التي يمكن أن توصي بها لجنة

التحكيم إذا ما توفرت في البحث الشروط العلمية المشار إليها أعلاه.

- **يمكن** أن يتكفل المجلس بنشر الأعمال الفائزة **باستثناء الجائزة التشجيعية التي تحال على هيئتي تحرير مجلتي: اللغة العربية ومعالم للتداول بشأن إمكانية نشرها في عدد من أعدادهما.**

- تصبح الأعمال الفائزة بجائزة المجلس **ملكا له**، إلا أنه **يمكن لمؤلفها استعادة حقوقه بعد موافقة المجلس،** وبعد انقضاء مدة ثلاث سنوات - على الأقل- من نشر العمل في طبعته الأولى؛

- تعرض الأعمال المرشحة على لجنة تحكيم مكونة من ذوي الاختصاص الذين لا يسمح لهم بالمشاركة في الجائزة؛

3 ـ طلب الترشح:

يتكون طلب الترشح للجائزة من الوثائق الآتية :

- **طلب خطي؛**

- **نسخة من وثيقة الهوية (بطاقة التعريف أو رخصة السياقة)؛**

- **السيرة العلمية للمشارك؛**

- نسختين من البحث المقدم لنيل الجائزة :

- النسخة الأولى مسجلة على قرص والنسخة الثانية توجه عن طريق البريد المسجل، ويكون تاريخ الختم البريدي شاهدا على ذلك.

4 – يفتح باب الترشح للجائزة ابتداء من نشر هذا الإعلان في وسائل الإعلام إلى غاية 31 ديسمبر 2013.

للاستفسار الاتصال بالروابط :
الهاتف: 021 23 07 09

البريد الإلكتروني: sg.hcla@gmail.com

5 – يوجه ملف الترشح إلى العنوان الأتي :

السيد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرانكلين روزفلت ، الجزائر

أو

ص.ب : 575 شارع ديدوش مراد الجزائر العاصمة

" جائزة المجلس للغة العربية 2014"

تم إخراج وطبع هذا الكتاب بـ:

دار الخلدونية للطباعة والنشر والتوزيع

05، شارع محمد مسعودي القبة القديمة ـ الجزائر

الهاتف: 021.68.86.49 الفاكس:021.68.86.48

البريد الإلكتروني : khaldou99_ed@yahoo.fr